



يشار كمال

الفتوة التشغرجوي

قصة حياته

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

رواية

الفتوة التشغرجوي

قصة حياته

اسم المؤلف : يشار كمال
عنوان الكتاب : الفتوة التشغرجوي
قصة حياته
المترجم : عبد القادر عبد اللي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٦

Author : YAŞAR KAMAL
Title :ÇAKIRCALLEFE

Translator: Abd Al kader Abdelli
Al- Mada P.C.
First Edition : 2006

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - **جانب فندق السفير**
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

يشار كمال

الفتوة التشغرجوي

قصة حياته

ترجمة

عبد القادر عبد اللي

مقدمة

ولد يشار كمال عام ١٩٢٣ في قرية حميدة (تدعى اليوم: غوغتشة ضام) التابعة لمحافظة أضنة. ترك الدراسة في الصف الأخير من المدرسة الإعدادية. عمل في أعمال مختلفة. في بداية أربعينيات القرن العشرين أقام علاقة مع كتاب وفنانين يساريين مثل: برتف نائلي بوراتاف وعابدين دينو وعارف دينو. عاش تجربة السجن الأولى لأسباب سياسية وهو في السابعة عشرة من عمره. نشر كتابه الأول "مناحات" عام ١٩٤٨ وهو إعداد من الفلولكلور. ذهب إلى اسطنبول بعد أن أنهى الجندية، وعمل هناك مراقب غاز في شركة فرنسية. عاد إلى قادرلي (قرب قريته)، وعمل هناك في حقول الأرز، وكاتب عرائض. دخل السجن بتهمة عمل دعاية للشيوعية عام ١٩٥٠. أطلق سراحه عام ١٩٥١، وعاد إلى اسطنبول. عمل كاتباً للنكات والتحقيقات في جريدة جمهوريت بين عامي ١٩٥١- ١٩٦٣. في هذه الأثناء نشر مجموعته القصصية الأولى "الحر الأصفر" عام ١٩٥٢، وروايته الأولى التي أكسبته شهرة واسعة "محمد الضعيف" عام ١٩٥٥. وفي عام ١٩٦٢ قام بمهمة عضو الإدارة العامة وعضو المكتب التنفيذي لحزب العمال في تركيا الذي انضّم إليه. تعرض لملاحقات كثيرة بسبب كتابته ومواقفه

السياسية. كان أحد مؤسسي جريدة "أنط/قَسَم" السياسية الأسبوعية عام ١٩٦٧. ساهم بتأسيس نقابة الكتاب في تركيا عام ١٩٧٣، وشغل منصب الرئيس فيها بين عامي ١٩٧٤- ١٩٧٥. كما شغل منصب أول رئيس لرابطة كتاب PEN المؤسسة في تركيا عام ١٩٨٨. حوكم، وحُكم لكتابته كثيراً من المقالات. وهو مرشح لجائزة نوبل منذ عام ١٩٧٣. وترجمت أعماله الأدبية إلى أربعين لغة. إضافة إلى الجوائز الأدبية العديدة التي حصل عليها في تركيا، فقد حصل على ١٩ جائزة أدبية عالمية.

تكتنف ترجمة يشار كمال صعوبة خاصة من حيث استخدام المفردات المحلية من جهة، ودلالة هذه المفردات من جهة أخرى. وهذا ما جعل الكاتب يصدر قاموساً خاصاً بمفرداته. مثلاً:مفردة " "eskiyaالواردة في هذه الرواية وروايات أخرى تعني معجمياً: "قاطع طريق" ولكن ترجمتها بهذا المعنى لا تفي بالدلالة، وهي ذات وقع حسن على الأذن في مناطق جنوب شرق وجنوب غرب تركيا حيث تجري أحداث هذه الرواية، وهي أقرب بدلالتها إلى مفردة "فراري" التي كانت تستخدم في سورية، و"المطاريد" المستخدمة في اللهجة المصرية.

عبد القادر عبداللي

توضيح

في عام ١٩٥٦ أبلغني صديق بأن قائد المفرزة التي قتلت الفتوة محمد التشغرجوي حيٌّ، وأنه يمكن أن يروي لي ذكرياته إن أردت. كانت طريقة موت أحد أكبر الفرارية- أو أكبرها- في تاريخ الإنسانية يدعو إلى الاهتمام. قائد المفرزة التي قتلت التشغرجوي هو عقيد درك متقاعد اسمه رشدو قوباش. وكان يسكن في قرية القوباشيين في قرة صو. بقيتُ فترة طويلة في قرية القوباشيين. استمعت لذكريات العقيد رشدو قوباش التي لا تنضب، وكتبتها. العقيد رشدو قوباش طارد التشغرجوي من جهة، وتعرّف على أعماق حياته من جهة أخرى. وكان لديه مدونات حول التشغرجوي تبلغ اثني عشر دفتراً. بعد استماعي للعقيد رشدو قوباش، وتدويني ذكرياته التي في الدفاتر، اهتممت بالتشغرجوي عن قرب أكثر. كنت قد تجولت في الجبال التي تجول فيها التشغرجوي، ورأيت الأمكنة التي عاش فيها. غير هذا، كنت قد استمعت مطولاً لما حكاه عن التشغرجوي الحاج علي الجاويش الدركي السابق، وشريكي عندما كنت أعمل كاتب عرائض في قادرلي، وكتبتها. وكان والد الحاج علي الجاويش جاويشَ دركٍ شهيراً أيضاً. كما أنني عرفتُ عن قرب شيخ قبيلة يدعى كامل آغا عرف التشغرجوي عن قرب. وهذا أيضاً حكى لي عن

التشغرجوي، وعما وقع له على مدى سنوات.

وكان الصحفي الشهير زينل بسيم صون قد كتب كتاباً طويلاً عن حياة التشغرجوي. وفي الحقيقة أن هذا الكتاب أحد أكثر الكتب التي كُتبت عن التشغرجوي جذباً للاهتمام.

أما حول وجه التشغرجوي وطوله وبنيته فقد حكى لي عنها الروائي يعقوب قدري قرة عثمان أوغلو. عرف قرة عثمان أوغلو الفتوة التشغرجوي عن قرب إذ كان يأتي إلى مزرعة أبيه في طفولته أو يفاعته.

تعرفتُ على حياة التشغرجوي الجاذبة للاهتمام من أشخاص آخرين غير الذين ذكرتهم أعلاه. نَشرتُ سيرة حياة التشغرجوي عام ١٩٥٦ في جريدة جمهوريت. ولم أصدر السيرة تلك في كتاب منذ ذلك اليوم. كانت رغبتي هي إجراء بحث أوسع حول التشغرجوي، والعمل على تلك الشخصية الغريبة بشكل أعمق. يُقال أن التشغرجوي قد قَتَلَ ١٠٨١ شخصاً خلال حياة الفرارية الممتدة خمسة عشر عاما. يضاف إلى هذه الشائعة أنه كان يرى نفسه محقاً في قتل كل شخص من هؤلاء. مع مرور السنين ابتعد عني التشغرجوي، وفي النهاية مات آخر رفاق دربه الفتوة قوجة مصطفى دون أن يملي ذكرياته على أحد. طلبت مذكرات الفتوة قوجة مصطفى بإلحاح. لم أستطع تدبر النقود التي طلبها ثمناً لها، ولهذا السبب لم أتمكن من الاستماع لقصة حياة الفتوة الأغرب في التاريخ من لسان أحد أبناء جلدته الأقرب إليه. حين قرأتُ ما كتبتُه بعد ستة عشر عاماً، وجدته مدهشاً، وقررت نشره. أرى أن عملي المتواضع إلى هذا الحد يمكن أن يسلّط الضوء على شخصية الفتوة التشغرجوي

الغريبة. وأعتقد أن الأجيال القادمة ستهتم بهذه الشخصية الغريبة، وتحاول الخوض في بحث أوسع حولها.

كتبت الجزء الممتد حتى مداهمة أرباظن، واستفدت من رشدو بيك أيضاً. والجزء التالي هو من مذكرات العقيد رشدو قوباش.

الشائعات حول قتل التشغرجوي كثيرة. الوثائق التي أعطاني إياها العقيد رشدو قوباش حول قتل مفرزته للفتوة التشغرجوي سلّطت ضوءاً جديداً على هذه الشخصية الغريبة، وأضاءت موت الفتوة. الجزء المعنون "نحن قتلنا التشغرجوي" أضفته كما ورد تماماً على لسان العقيد رشدو قوباش. ونشر هذا الجزء في جريدة جمهوريت كما هو. لم أضف إليه شيئاً.

يشار كمال

١٠ حزيران ١٩٧٢

بصن كوي

- ١ -

كـان الجـاويش حـسن ضـخم البنيـة، وحنطي البـشـرة. شـارباه الطويلان خرنوبيـان. دخل مع خمسـة من خيـالته قـرية أياصـورة بأقصى سرعة. انغطت الخيول بالزبد. وبسبب العرق غدت رقابها سوداء داكنة، وقـوائمـهـا مـلتـاثة بالطين. وبالسـرعـة ذاتهـا أدار الجـاويش حـسن رأس حصـانه نحو باب بيت الفتوة أحمد. كان يلهث. الفتوة عند الباب. سمع وقع حوافر الخـيل فـخرج. فـور رؤيتـه الجـاويش حسن ظهرت علـى وجهـه ابتـسـامـة. إنه يحب الجـاويش حسن منذ عـهـده بـه. كـان رجـلاً شجـاعـاً. طارده ساهياً عن نفسـه حين كـان فـراريـاً. وهو وحده يعرف ما عـاناه من الجاويش حسن. لكنهـمـا صـارا صـديقين الروح بالروح بعـد أن نزل إلى السـهل. ثمـة مـقـولة كـانت لا تفـارق ألسنة الناس: "لا يمكن الوثوق بالعثمـاني". الفتـوة أحـمـد يعرف هذا. هذه العبـارة صحيحة. رغم هذا صارا أخوين. بعد أن نزل الجاويش والفتـوة إلى السـهل، كثيراً خرجا في ملاحقة قطاع الطرق، وواجها المصاعب الكثيرة. كانا صديقين، ومد كل منهما يده للآخر.

"ما هذه الحال ياجاويش؟ انزل، هيا انزل!"

"أنا في مأزق يا فتوة!"

نزل عن حصانه بسرعة، وتعانقا.

"أنا في مأزق. "

"ماذا يوجد؟ ماذا حدث؟ لم أرك مرتبكاً هكذا من قبل."

غدا وجه الجاويش أصفر. كأن يديه ترتجفان. يهتز كالسكران. دخلا، وجلسا. كان العرق يتصبب من إبطي الجاويش حسن.

في هذه الأثناء، انبعث صوت ولد من الداخل. ابرق وجه الجاويش حسن قليلاً. قبّل الولد يد الجاويش. أخرج الجاويش حسن مجيدية من جيبه، ووضعها في راحة كف الولد. لم يأخذها الولد.

قال الفتوة: "لمع وجهك يا جاويش حين رأيت محمداً. سيكون محمدي سبعاً"

الجاويش:" إنه لا يأخذ نقودي، ولكنني رغم هذا أحب سبعي"

قال الفتوة أحمد: "خذ نقود الجاويش يا محمد. هذا عمك. ليس غريباً"

أصدر الولد صوت"جق". لم يأخذها. أمسكه الجاويش من يده، وأجلسه بجانبه. وبدأ بمداعبة شعره. هذا ما يحدث بالضبط كلما جاء.

في هذه الأثناء دخل أفراد الدورية بعد أن أدخلوا الخيول إلى الإسطبل. ثمة اخراج على أذرعهم. أحدهم جلب خرج جاويش الدورية ووضعه بجانبه. فتح الجاويش الخرج بهدوء، وأخرج حذاء الطفل، وقبعة صوفية متماوجة. وضع القبعة على رأس محمد. وبيده ألبسه الحذاء. بعد ذلك، التفت، ونظر إلى محمد ضاحكاً، وقال:

"سيغدو ابني محمد باشا. كم هو وسيم! سيكون باشا ما شاء الله!"

لا بد أن يجلب هدايا لمحمد كلما أتى. كان الجاويش بجزمته المتلامعة في عيني محمد شهماً، وشهم الشهوم.

أخرج من العينة الأخرى للخرج هدايا أخرى للبيت. وضعها جانباً. جاءت فتاة وأخذت الخرج والهدايا.

يجلس محمد بجانب الجاويش كلما جاء إلى البيت، ويصغي بانتباه لحديثه مع أبيه. لا يغيب محمد ليس عند مجيء الجاويش فقط، بل عند مجيء أي شخص إلى البيت، ويصغي إليهم حتى النهاية، وحتى منتصف الليل دون أن ينبس.

قال الفتوة أحمد: "احك يا أخي لنرى ما وقع لك. أقلقتني كثيراً"

لم يكن الجاويش مرتاحاً. كأنه لا يستطيع الجلوس في مكانه.

قال: "يا فتوتي!" وصمت.

كان الفتوة ينظر إلى حدقتي عينيه.

"لم يقع لي هذا أبداً. لم يحدث لي هذا مذ غدوت الجاويش حسن. إنه مخجل"

قال الفتوة: "إيه، ماذا بعد؟"

الجاويش: "انطلقنا منذ الصباح. نويت أن آتيك. كنت أقول: لأذهب. وأرى أخي أحمد. قطعنا مسافة ساعة من الطريق، فتح أمامنا إطلاق نار عشوائي. الحمد لله أننا لم نسقط وسط الكمين. تراجعنا دون أن نصاب بالرصاص. يجب أن يكون هؤلاء قطاع طرق روم. لم أستطع ملاحقتهم. كنتُ قادماً إليك، قلنا يجب ألا نخرب عزمنا. قلت: أرى حلاً لأمرهم مع الفتوة بعد ذلك. حين انطلقت في الطريق، بدأ يصعب علي

هروبي من أمامهم. خجلت من نفسي. قلت لنفسي: وهل هذه شهامة يا حسن؟ وهل هذا الذي تفعله ياحسن شهامة؟ صار هذا هماً في قلبي. أقول لنفسي: لأعد إليهم، كيفما كان فهم قريبون، ولأعرفهم حدودهم."

ضحك الفتوة:

"لا تقتل نفسك يا أخي. الآن نعمل اللازم لهم. ارتح الآن وتناول طعامك."

الجاويش : "لا يمكن للطعام أن يعبر بلعومي يا فتوة. أنا أموت من القهر!"

الفتوة : "لقمة، لقمتين... يا أولاد، حضّروا شيئاً للجاويش. بسرعة، بسرعة!"

جاء الطعام بعد قليل. لم يلمسه الجاويش مجرد لمس. عند إلحاح الفتوة، كان يقول: "أنا أموت من القهر، أموت من القهر يا فتوة!"

بعد أن تناول أفراد الدورية بضع لقم، نهض الفتوة فوراً، وقال:

" معك حق يا أخي. لنخرج لمطاردتهم فوراً."

تزنر بأسلحته. وخلال ساعة انطلقوا في الطريق. الفتوة والجاويش حسن في المقدمة، والدورية في الخلف. عبروا من وسط القرية كالريح. كانوا يقودون خيولهم كأنهم سيقتلونها. غُطت الخيول بالدم والعرق ، وكانت تتنفس كالمنافيخ.

كانت الشمس تميل ببطء. والظلال تطاولت. وصلوا إلى جانب مجرى ماء. استفاد الجاويش حسن من إلقاء الفتوة أحمد نظرة إلى الماء، وتخلف عنه. في هذه الأثناء انطلقت ست بنادق. تدحرج الفتوة أحمد عن الحصان. كان رأسه قد تفتت. تلقّى الفتوة ثلاث رصاصات قريبة في

رأسه. تمدد هامداً على حافة الماء مضرجاً بالدم.

قاد الجاويش حسن حصانه بسرعة إلى "أودمش" دون أن ينظر إلى الميت.

في ذلك اليوم أوقع في الفخ كل الفرارية الذين نزلوا إلى السهل، وقُتلوا. ففي دار الحكومة في إزمير الفتوة عثمان البدوي، وفي برغاما في دار الحكومة الفتوة البكري مع رفاقه بالسلاح، وفي آيدن عرب عديم الأصابع... وأحالوا قضية قتل الفتوة أحمد إلى صديقه المقرب الجاويش حسن. وسبب هذا هو: لم يترك الفرارية النازلون إلى السهل أسلحتهم ورفاق سلاحهم، وهكذا ينزلون بأسلحتهم ورجالهم إلى القرية التي يريدون. هم لا يرتكبون أي جريمة، ولكنهم يجعلون أنفسهم زعماء على الناس. وكانوا يغدون حكومات داخل حكومات. وقتلهم سيحول دون هذا.

خَبَرُ الفتوةِ أحمد الأسود لم يُسمع في القرية حتى اليوم التالي في الضحى. انطلقت زوجتُه خدوج في الطريق على غير هدى باكية ناتفة شعرها. وصلت إلى حيث الفتوة. ارتمت فوق الجثة المدماة الحمراء.

"أما قلت لك يا فتوتي! أما قلت لك، لا يمكن الوثوق بالعثماني؟ أما قلت لك يافتوتي!"

أخذوا الميت، وجلبوه إلى قرية آياصورة.

لم تثب خدوج إلى صوابها بعد ذلك. وكل يوم تبكي فتوتها وهي تنتف شعرها.

كان محمد يكبر. يكبر على قصة الغدر الذي وقع فيه أبوه التي تعاد على مسامعه يومياً. صوت أمه وصوت النواح صارا قرطاً في

أذنه: "أما قلت لك يا فتوتي، أما قلت لك؟ لا يمكن أن يكون العثماني صادقاً. يا فتوتي المُصطاد بالمكر! يا من راح على يد سافل!"

أنهى محمد المدرسة الابتدائية، وبعد أن درس سنة أو سنتين في مدرسة أودمش، ترك الدراسة.

-٢-

الفراري الحاج ضئيل وأسمر ونحيف ومسن وغائر الخدين. وكان أقرب الأصدقاء للفتوة أحمد. كان ملاذه. كانا كإصبعي يد واحدة. بعد أن راح الفتوة أحمد برصاص الجاويش حسن الغادر، وضع محمد تحت جناحيه، وجعله يسلو فقدان أبيه. لم يحترق على الفتوة أحمد مع مرور السنين إلا شخصان لم يسقطا شهامته وطيبه عن لسانيهما. أحدهما خدوج والثاني الفراري الحاج... يردد الحاج طوال الأيام أهزوجة لا تنتهي، ويعبر في تلك الأهزوجة دائماً عن الفتوة أحمد وعن همومه.

بعد ترك أحمد المدرسة، وضعه الفتوة الحاج عند ركبتيه، وقال له: "يا بني، أنت لست هذا أو ذاك. أنت ابن رجل مثل الفتوة أحمد التشغرجوي. إذا كان قد انتقل إليك منه القليل من الجرأة فإنك تساوي التشغرجويين هؤلاء مجتمعين. لا يمكن أن تخلو منطقة البحيرة من الماء. وفراش الشهم لا يبقى فارغاً. فاليوم يومك يا هذا."

بعد ذلك وضع تحته حصاناً، وناوله رشاشاً. وإثر هذا، قبّل محمد يده، وقال: "سلمت يا عمي، سلمت. لم تجعلني أفتقد أبي طيلة هذه السنوات. والآن أيضاً... لو كان أبي حياً لفعل هذا، أليس كذلك؟"

"هكذا يفعل يا بني. ابن الذئب ذئب منذ الأزل"

ركب محمد حصانه، ووضع رشاشه في حضنه. كان الحصان حصان براري، والرشاش كالبنت. قاد محمد حصانه من سهل أودمش نحو الجبال. حين صحا كان الوقت عصراً. أطلق خمس رصاصات على شجرة صنوبر بقيت وحيدة وسط السهل. داعب بندقيته. فكر بعد ذلك: "كان والدي يصيب القرش. وأنا لا أستطيع إصابة شجرة ضخمة. كيف يصيبون القرش يا ترى؟"

العين على الشق والشعيرة. صوّب بندقيته إلى عصفور، وإلى فنجان عمود كهرباء، ولكنه لم يصب. قاد حصانه مرة أخرى، وجاء إلى البيت. فور وصوله إلى الباب خرجت أمه. ابتسمت. تعلق الولد برقبة أمه. بعد ذلك، دارت الأم حول الحصان.

قالت: " مبروك عليك يا بني، هل هو سريع؟"

"كالريح يا أمي"

تناولت خدوج البندقية، وقلّبتها ونظرت إليها.

قالت: "جميلة هل تدربت عليها؟ هل أطلقت بها؟"

"أطلقتُ يا أمي أطلقت على شجرة، وأصبتها بخمس رصاصات. إنها بندقية طيبة. طيبة جداً. وطيّعة".

ابتسمت خدوج. بعد ذلك، غَشت عينيها، وحزنتا.

قالت: "كان أبوك يصيب الطير الطائر في السماء، والنملة التي تدب على الأرض. بندقية والدك المطعمة بالصدف عند حسن الأسود الدين... كان يصيب الطائر في عينه يا بني. يا محمدي، كان أبوك أباً على هذا النحو. بندقية والدك في يد أولئك الذين لا يساوي دمهم وأكبادهم خمسة قروش. بندقية والدك المطعمة بالصدف، وبصدف السوم.."

ربط محمد الحصان وجاء إلى البيت. كان مطرقاً. حين تبدأ أمه بالحديث عن أبيه فلا تتوقف أبداً .

"كان أبوك صقر هذه الجبال. إذا علمت المفارز بوجوده على بعد يوم، تدير وجوهها، وتهرب. العثماني يرتجف أمامه. يا محمدي، يا بني... أبوك على حصان عربي.. سرجه مفضض بفضة صواط. عندما يأتي أبوك على الطريق تحت الشمس، كان يأتي ككرة برق. حين يرى قروي كرة برق في السهل يأتيني بالخبر: خدوج، الفتوة قادم! حين يأتي يبرق سهل أودمش. حين ينزل أبوك من الجبل إلى القرية، تعيّد القرية، وتعرّس. قولوا: إن الفتوة أتى! كان يجلب "جهازات" البنات الفقيرات، ويدفع المثكال عن الشباب. يغدو دواءً للمرضى، وخبزاً للفقراء. كان أبوك فتوةً على هذا النحو يا محمدي. كنت أقول له: يا فتوتي، لا تثق بالعثماني. كان يثق بالجميع. قلبه نظيف. وفي النهاية ارتكب العثماني سفالته. العثماني سافل."

تبكي بعد ذلك. تبكي ملء جفونها. قالت: "العثماني ظالم."

مساء اليوم التالي جاء خمسة خيالة إلى الباب. والخيول الخمسة محملة بالتبغ.

قال أحد المهربين: "يا محمد. الفراري الحاج أرسلنا إليك. سنأخذ التبغ معاً إلى آيدن."

كان محمد ينتظر أصلاً، وجاهزاً متململاً. قفز إلى حصانه.

قالت أمه من خلفه: "لتكن خطوة الخير يا بني. الله يسهل نصيبك، ويعمي عيون أعدائك. أبوك أيضاً كان هكذا.."

غاصوا في الظلام.

كانت الطرق مليئة بحراس مكافحة التبغ. والحراس في الأيام الأخيرة لجموا كل شيء، لا يدعون الطير الطائر في السماء يمر.

كان عثمان المجنون أحد المهربين.

قال: "الطرق خطيرة جداً. علينا أن نذهب الجبل الجبل. صعب، ولكن طرق الجبال أنسب."

قال محمد: "يبدو لي أننا إذا ذهبنا مباشرة، ومن الدرب أفضل."

دهش عثمان المجنون: "الدرب مربوطة، الطير لا يطير.."

قال محمد: "لا! الطرق فارغة لأن المهربين يذهبون دائماً عبر الجبال. وإن وجد أحد فحارس أو اثنان، وهذان يمكننا أن نجانبهما."

قال عثمان المجنون معانداً: "مستحيل"

تدخل مهرب آخر من هناك: "يا عثمان آغا، الولد يحكي الصواب. الجبال خطرة. تحت كل حجر يوجد كمين. خرجت الدوريات والحراس والمفارز لملاحقة الفرارية في الجبال كلها. الولد يحكي الصواب."

غضب عثمان المجنون، وقال: "من الجبال. قولي هو قولنا. من الجبال!"

كان المهرب الذي قد تدخل لاحقاً بالحديث هو الحاج مصطفى. لم يلح الحاج مصطفى. قادوا خيولهم نحو الجبال، اقترب الحاج مصطفى من الشاب:

"قبلنا ما قاله عثمان آغا. لا تهتم. أنت على حق ولكن لا تهتم. اسمي الحاج مصطفى. أبوك كان صديقي. كنّا كأخوين. أي رجل

كان الفتوة! آه يا لتلك الأيام، آه! حين مات كسر جناحي وذراعي."

كـان الوقت بعـد منتـصف الليل. صـعـدوا سـفـحاً، ونزلوا وادياً. فجأة وقعوا وسط إطلاق كثيف. أصيب أحد مرافقيه وسقط.

كـان الحـاج مصطفى بجـانب مـحـمد. قـال: "اقـفـز خلف الصـخرة." وقفز هو أيضاً. "نحن في وضع سيء. سقطنا وسطهم بالضبط."

بدأا بإطلاق النـار. كـان مـحـمـد فـرحاً. يطلق، ويطلق. بعـد ذلك، يسـأل: "إيه يا عـمـي الحـاج، ما نهـاية هذا الأمـر؟" لا نهـايـة له. سيـقـبض عليهم عند الصباح أو يصابون.

الحاج: "هل أنت من نسل فتوة؟ أنت شاب، ولا بد أنك شهم."

محمد: "هكذا!"

"اذهب إلى عثمان زاحفاً. قل له لنطلق النار معاً إلى تلك الجهة، إلى الجنوب. وليـأخـذوا الخـيـول، ويذهبـوا من هنـاك، ولنواجـه نحن هنا. ولنحمهم حتى يهربون."

قال محمد: "ممكن"

الحاج: " أرنا نفسك يا بن الفتوة أحمد."

تسلـل مـحـمـد إلى حـيث عـثـمـان بصـمت أفـعى. وشرح لـه فكرة الحاج.

قال عثمان: "اذهب إلى الحاج وأخبره بأننا سنعمل هذا."

هكذا فعلوا. فـتحوا النـار نحو الجنوب. قفز الآخرون على خيولهم الموضوعة خلف الصخور، وطاروا نحو الأسفل عبر الثغرة المفتوحة. بقي محـمـد مع الحـاج. احتـار الـكامنون. يوجد من هرب ومن بقي. هذا يعني أنهم تركوا فدائيين. حين هرب أولئك هاجمهم محـمـد والحـاج. استـمرت

المعركة حوالي نصف ساعة.

قال الحاج: "انظر، يأتي من الأعلى رصاص قليل. لنتحول إلى هناك ببطء. لنصعد إلى الجبال، لا مناص أمامنا."

انغط محمد بعرق كالدم. في البداية فرح وخاف في آن واحد. الآن لا يخطر بباله الخوف. زحفا. أحدهما يتقدم، والآخر يحميه. تمزقت ركبهما، وآلمتهما. بعد ذلك، هاجم كل منهما من مكان، وخرجا من الكمين. أو على الأصح، شقا الكمين.

عند الفجر وصلا إلى خيام الرحّل. عند الرحّل ملأا بطنيهما، وضمدا جراح ركبهما، كان رصاصهما قد نفد. وجدا عند الرحّل رصاصاً كثيراً. اشترياه. ربطا زوادتيهما على خصريهما، وانطلقا إلى الجبل.

محمد : "يا عمي الحاج مصطفى، إلى أين هكذا؟"

الحاج مصطفى : "إلى الجبل."

محمد : "هل سنغدو فرارية؟"

قال الحاج مصطفى مبتسماً : "شيء كهذا."

كان للحاج مصطفى حاجبان كثان أسودان، وشاربان قويان وطويلان، وعينان واسعتان شهلاوان، ووجه محفّر قليلاً. ازداد حاجباه المقطبان تقطيباً. جبينه مجعّد. ربع القامة. قوي. لحيته كأنها شوك مغروز في وجهه. يبدي أنه في الأربعين من عمره. ثمة شعرة أو اثنتان بيضاوان في شعر صدغه.

قال محمد : "ماذا ستقول أمي؟"

الحاج : "لن تقول شيئاً. ستفرح، وتشعر بالامتنان. إنها زوجة أحمد التشغرجوي. ستفرح لفرارية ابنها."

محمد : "ولكننا لم نرتكب أي جريمة."

ابتسم الحاج مرة أخرى، وقال : "انظر يا محمد! إذا نزلنا إلى القرية الآن، ممكن أن يشتبهوا بنا. وممكن أن يقبضوا علينا. لنضيّع أثرنا عدة أيام. نتجول في هذه الجبال ,ونعود."

لماذا يذهب الحاج إلى الجبل؟ يمكنهم أن يبقوا عدة أيام في خيام الرحّل إذا أرادوا. لابد أن لدى الحاج أمراً ما.

"لو رآك أبوك هكذا لفرح يا محمد. لو أنه رآك."

قبيل المساء، وصلا إلى مكان قرب رأس الجبل. تخيم على المكان رائحة الصنوبر. ثمة رائحة ماء ونعنع بري وأزهار. جلسا قرب رأس نبع. شربا، ورشقا ماءً على وجهيهما، وتمدد أحدهما إلى هذا الجانب، والآخر إلى الجانب الثاني.

بعد فترة طويلة نهض الحاج من حيث يتمدد. نهض، واتجه نحو الأسفل. رسم بطينٍ أبيض على جذع شجرة صنوبر دائرة بقدٍّ مرآة اليد، وعاد. محمد أيضاً قفز من مكانه، ونظر إلى ما يفعله الحاج.

قال : "انظر يا محمدي!" وصوّب بندقيته، وأطلق. أصاب وسط الدائرة بالضبط. أطلق واحدة أخرى، وأخرى. أصاب بها كلها المكان ذاته. تقطب وجه محمد.

لم يستطع الإمساك بنفسه: "يا عمي الحاج، هل تصيب القرش أيضاً؟"

الحاج: "ارم قرشاً لنرى ما سيحصل!"

أخرج محمد قطعة نقود من جيبه، ورماها في الجو. أطلق الحاج فلم تسقط قطعة النقود إلى الأرض.

قال الحاج: "أبوك أيضاً كان هكذا..."

كان قلب محمد يبكي دماً، ويرتجف حرصاً.

قال الحاج: "هذا الأمر هو الأول في الفرارية والتهريب. من دونه لا يمكنك أن تغدو فرارياً، ولا مهرِّباً، ولا شهماً."

بعد ذلك، نهض، ورسم دائرة أكبر قليلاً على صنوبرة أخرى.

"هيا يا سبعي!"

قلبُ محمدٍ متوجس. رفع البندقية إلى وجهه، وصوب جيداً، وضغط على الزناد، فانغرزت الرصاصة فوق الدائرة على الصنوبرة.

قال الحاج: "ما صار"

ألقى محمد البندقية التي بيده على الأرض. ذهب، وجلس عند رأس النبع. وضع وجهه بين يديه.

قال الحاج: "يا شهمي. هذا الأمر لا يصير برصاصة واحدة. تناول بندقيتك، وأطلق، واستمر بالإطلاق حتى تصيب."

كان محمد لا يصغي حتى لما يقوله. تحول إلى حَجَرٍ حيث يجلس.

"الرماية ليست موهبة من الله، بل تدريب. لن تترك هذه اللعنة من يدك لحظة. إذا رميت هذه من يدي شهراً، سيتغير الأمر، ولن أستطيع التصويب. هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل الفرارية الذين ينزلون إلى السهل بعد صعودهم الجبل يُصطادون بسرعة. لا تزعل ولا تتضايق. يمكنك أن تغدو رامياً جيداً. الرماية تعتمد على قوة الجسد أيضاً. أنت كالفولاذ، سليم البنية. لا تضايق نفسك. هيا تناول بندقيتك، وارمِ. ارمِ باستمرار."

كان الحاج أحد أفراد قبيلة كردية أُسكنت في تلك المناطق.

نهض محمد من جديد بعد أن ارتاح قليلاً، وبدأ بالإطلاق. كان الحاج هذه المرة يقدم له النصائح بأن يفعل كذا، وكذا.

"ها، هذه صارت! هذه لم تصر. لا، لا، ليس هكذا... ها، هكذا. عليك ألا تحرك البندقية. عليك ألا تهزها أبداً. يجب أن تمسك بنفسك. صار. لا أهمية لعدم إصابتك."

حتى المساء أصاب الإشارة مرة أخرى.

داعب الحاج ظهره: "ها هو قد تم.. هكذا.."

حين حل المساء، نزلا إلى مضارب الرحّل. تناولا طعاماً، وأخذا زاداً ورصاصاً، ثم صعدا الجبل.

محمد: "ألن ننزل يا عمي الحاج."

الحاج: "سنتجول في الجبل. هذا الجبل جبل أبيك. سأريك مكامن أبيك، المكامن التي صنعها أبوك بيديه."

بقيا حوالي أسبوع في الجبال هكذا. تجولا من نبع إلى نبع. تجولا على مكامن الفتوة أحمد. ومحمد يطلق مصوباً طوال الأيام. حين نزل من الجبل كان محمد قد نضج قليلاً، واعتادت يده على السلاح.

الحاج: "إلى هنا يا محمد! هذه هي الصعوبات كلها. أنت نضجت. الأمر سهل بعد ذلك."

عينا أمه كنبعين وهي قلقة على محمدها. حين ذهب إليها، وشرح لها، انبسطت منه.

"كان أبوه يصيب القرش. وهو- إن شاء الله- سيحل محل أبيه."

أنقذ أصدقاؤه، وجلبوا حصان محمد، وسلموه لأمه.

استمر بالتهريب. وبدأ يحظى بمكانة بين المهربين. كان ذكياً وجريئاً، ولا يسقط. ولم يسقط في فخ، ولو مرة، طوال حياته في التهريب. ولكنه اضطر للاشتباك مع بعض الدوريات. وخرج منها دون أن يدمى أنفه كخروج الشعرة من العجين. وحين يكون خاوي شغل، يقفز على حصانه، ويقوده بأقصى سرعة، ويجد مكان خاوياً، ويطلق رصاصاً حتى المساء. كان يجن فرحاً. كان يصيب بكل رصاصة يطلقها تقريباً.

كانت الفتوة في منطقة إيجة ضاربة الجذور في القدم، وتقليداً يغوص في الأعماق. إنها أقدم من العثمانيين والبيزنطيين. لعل هذه الجبال لم تبق دون فتوة مذ صارت جبالاً. كان التهريب مدرسة. مدرسة تأخذ الشبان، وتنشئهم فتوات. رائحة التبغ في أخراج وسروج كثير من الفتوات.

-٣-

لم يضحك وجه الفتوة الحاج منذ عهده بالحياة. كان يتجول مقطب الوجه كأنه يبكي. إذا وُجد ولد أو أي شخص مقطب الوجه في قرية ما فيلقبونه الفتوة الحاج فوراً. ولهذا سبب. فقد انغرس في قلب الفتوة الحاج سهم مسموم، لا يمكن الشفاء منه. تزوج قبل سنوات من فتاة شابة. بعد أن عاشت معه زوجته عدة سنوات، وقعت بحب الخادم الذي على بابها. والخادم خطف المرأة، وتزوج منها. كانا يسكنان في أودمش. وصار عند زوجته وذلك الخادم بنت. فيما بعد، تزوج محمد من تلك البنت. كان الحاج الفتوة مسناً، والخادم شاباً وشهماً. وحاول الحاج قتل زوجته الهاربة والخادم كثيراً فلم ينجح. لو كانا في القرية لتمكن منهما. ولكنهما سكنا في أودمش لخوفهما. هذا ما قهر الحاج الفتوة طيلة تلك السنين.

نادى محمداً في أحد الأيام، وقال له: "يا بني محمد! كبرت، وصرت رجلاً. وفعلتُ لك كل ما باستطاعتي. لم أمنع عنك شيئاً. أنت شهم. لا يمكن للهارب أو الطائر أن يفلت من يدك. تصيب العصفور الطائر في عينه. إذا لم تفعل معي جودة في هذا الوقت، فمتى ستفعلها؟ إحدى قدمي في القبر. سأموت ويبقى هذا الهمُّ في قلبي. أنت

ابن الفتوة أحمد. هذا يومك يا بني. لا تترك آهي من دون ثأر. من لي غيرك؟ اعمل ما يستحقه هذان. لا تترك آه عمك الحاج دون ردّ. أنا انتظرت هذا اليوم. ليغدو محمدي رجلاً، ويثأر لي. مالي وملكي لك. ذاك الكرم والحقل الذي في الأسفل لك."

أطرق محمد برأسه، وتركه دون أن ينبس. ذهب إلى الحاج مصطفى فوراً. وشرح الأمر للحاج.

قال الحاج: "ممكن."

اصطحب معه صديقاً، وذهبا إلى أودمش. خنقا الرجل والمرأة وهما نائمان. وخرجا من البيت بهدوء، دون أن يراهما أحد.

جاء محمد إلى الفتوة الحاج، وقال: "هذا هو عمر عدوك."

تجول الحاج لأيام في القرية منتشياً بالفرح. غدا كشاب في الخامسة عشرة من عمره. يضحك، ويلهو، ولا يستطيع الوقوف في مكانه. كان هذا الحاج غير ذاك الفتوة الحاج العابس.

من قتلهما؟ قتلهما مجهولون. كلفوا الجاويش حسن قاتل والد محمد بالتحقيق في هذه القضية. بعد بحث استمر عدة أشهر توصل الجاويش حسن إلى أن محمداً هو الذي قتل العاشقين. في أحد الأيام قبض الجاويش حسن على محمد وأصدقائه دون أن يعلموا بشيء، وضرب القيود على أيديهم. وأرسلهم إلى سجن إزمير ليحكموا بعقوبة شاقة.

كان في السجن مجرمون مسعورون وفتوات محكومون بمائة عام وعام. أناس السجن الآخرون، وأصحاب الأحكام الخفيفة يغدون عبيداً لأولئك. وهم يسدون الدنيا في وجه القادمين الجدد بشكل خاص.

يوم دخل محمد السجن جاءه المسجونون للترحيب به، وتصرف فتوات السجن وكأنهم لا يعلمون بوجوده. أحزن هذا محمداً.

كان يتصرف محمد في الداخل وكأنه سجين صاحب تجربة، ينام هناك منذ خمسة عشر عاماً. لم يكن يضحك في الأيام الأولى، ولم يتحدث مع أحد. ولا يهتم بمن يأتي إليه ليحدثه. بقي وحده ثقيلاً، منتصباً، غير متردد من أحد، ولا يتدخل بشأن أحد.

بعد ثلاثة أشهر فهم السجن كله، والأحابيل المحاكة في الداخل، والعصابات والمصالح. بعد ذلك صادقَ سيد آغا. كان سيدُ آغا قريةٍ غنياً، ورجلاً بحاله وذاته. مرَّ على رأسه الكثير. محكوماً بمئة عام. أزهق أربع أرواح. وجريمته هي جريمة شرف. تفاهما جيداً. وكان سيد آغا معجباً بثقل محمد، وبأنه شاب إلى هذا الحد.

كان يقول كل فترة: "إذا ظهر رجل، فيظهر بين أمثال هذا."

كان سيد آغا تجربة طويلة، يعرف المحاكم جيداً. قبل أن يخرج محمد إلى المحكمة، وضعه عند ركبتيه، وقدّم له النصائح حول ما سيقوله للقضاة. كان يعرف مواد قانون العقوبات مادةً مادةً.

في الداخل أيضاً ثمة فتوة يدعى البدوي المجنون. كان البدوي المجنون قوياً وضخمَ البنية. يقوم على خدمته عشرة محكومين. كان ثرثاراً، ومجنون حقيقة، وعينه حمراء. كان يرتكب جريمة كل يوم في السجن. كان يأخذ أتاوة السجن. كل قادم جديد مضطر لدفع أتاوة له فقيراً كان أم غنياً. علّق على محمد يوم جاء، ولكنه لم يستطع أن يُخرج منه شيئاً. كان يشحذ أسنانه لمحمد. يتحين الفرصة ليعمل شيئاً ما لمحمد. أرسل رجالَه عدة مرات إلى محمد وهو يتمشى في التنفس،

فخاف رجاله من شاب كالصخر، ولم يستطيعوا أن يوقعوا واقعة. وكان الحاج مصطفى متوفزاً.

حين رأى البدوي المجنون أن محمداً صار صديقاً لسيد آغا طار صوابه. الكبار والصغار يحبون سيد آغا كأب.

في أحد الأيام جاء البدوي المجنون إلى سيد آغا، وقال: "أنت تقيم صداقات مع أولاد القحبات والأولاد الجدد القادمين بالأمس إلى السجن دون أن تستحي من شيبتك ولحيتك. أنت تهين قدرنا. لن يأتي إلى جانبك ابن القحبة ذاك مرة أخرة."

وصل هذا إلى أذن محمد. السجن يتخبط منتظراً ما سيحدث. بدا محمد أنه غير مهتم. ولم يذهب إلى سيد آغا مرة أخرى. نزلت قيمة محمد إلى الصفر في الداخل. الرجل قوي، ونصف المسجونين معه. الجميع يشحذون أسنانهم ولكنهم متوجسون. يوجد عنده سكين ومسدس وأسلحة من كل الأنواع. كان يتجول حاملاً مسدساً. كان حتى الفقراء المساكين يسخرون من محمد سراً. ولدى محمد فكرة لاتتغير: نهاية الصبر السلامة.

مرَّ شهر ونصف تحت الإهانات والاستهزاء. خلال الشهر ونصف الشهر هذه إذا التقى محمد بسيد أغا يغيران طريقهما.

ما السجن؟ يقولون عنه فراش الأسد. لم يكن حتى فراش الثعلب. حتى المجرمون الذين يخنقون الرجال في الخارج دون أن يرف لهم جفن، وحتى الفتوات الذين داهموا القرى وتحدوا الحكومة على مدى سنوات يقفون صامتين أمام البدوي المجنون، ويقومون على خدمته، ويصبون الماء على يديه، ويحملون الإبريق له إلى دورة المياه. كيف يتم هذا الأمر؟

كان الحاج مصطفى يحضر نفسه سراً دون توقف. الحاج مصطفى كردي. وفي السجن كثير من الأكراد. كان الحاج يعمل مع الأكراد والمسجونين أعداء البدوي المجنون نهاراً، وينزوي مع محمد وحدهما ليلاً ويخططان. يفرزان الرجال الذين يتعرفون عليهم ويلتقون بهم.

قال محمد: "كل شيء جاهز يا عمي الحاج. الأمر جاهز. غداً حين يتمشى في التنفس سنرتمي عليه، ونأخذ مسدسه. بعد ذلك، سنفعل له اللازم. سأنقضُّ على البدوي المجنون وحدي. وأنت مع الأصدقاء الآخرين ستمنعون مجيء أصدقائه."

وجدا أحد عشر صديقاً كتوماً. وكلهم من النوع الذي إذا أرسلتهم إلى الموت يذهبون.

كان الوقت صباحاً. البدوي المجنون يتمشى في فترة التنفس. حين يكون في الفسحة لا يمكن لأحد أن يتمشى بجانبه.

توجه محمد نحو الباب كأنه لا يعلم شيئاً، وهو ذاهب لأخذ شيء ما. لم يكن البدوي المجنون منتبهاً لشيء. حين وصل محمد إلى جانب البدوي انقض عليه كالصاعقة. أسقطه أرضاً. لم يدرك البدوي ما تعرض له. فور ارتماء محمد فوقه مد يديه إلى خصره، وأخذ مسدسه، وألقاه إلى الحاج الواقف عند الباب.

بدأ عراك مخيف. يتقلبان أحدهما فوق الآخر. لم يستطع البدوي المجنون التمكن من محمد رغم ضخامته وقوته. أنهكته عشر سنوات سجن. أما محمد فهو شاب، ومصارع خفيف. حين رأى أصدقاء البدوي القادمون لنجدته عشرة أشخاص مقابلهم انكفأوا، ولم يستطيعوا الوصول إلى المتعاركين. كانوا ينظرون من بعيد. وُجِّه المسدس الذي بيد الحاج نحوهم.

البدوي المجنون يصرخ برجاله: "الحقوا! أين أنتم؟"
لم يستطع أحد الذهاب.

كان محمد يسحقه. تضرج البدوي بالدم، وصار في حال لا يمكنه التحرك. الحراس أعداء البدوي أيضاً لا يفتحون الباب لفصلهما. أفراد الدورية ينظرون من الباب، ويتفرجون على العراك. حين وصل البدوي إلى حال شبه الإغماء، فُتحت الأبواب، ودخل الحراس وأفراد الدورية، وفصلوا بين المتعاركين. قيدوا البدوي ومحمد بالسلاسل. لم يكن البدوي يستطيع النظر في وجه أحد.

بعد ذلك، صار محمد أحد المعتبرين في السجن. ولكنه لا يلمس أحداً، ولا يهين أحداً.

لسبب ما شاعت إشاعة في السجن. فور خروج محمد من السجن سيصعد إلى الجبل، ويثأر لأبيه. لعل هذه الشائعة شاعت بسبب ثرثرة الحاج مصطفى، أو بسبب إلقاء السجناء التشبيهات على هذا وذاك.

ثمة جواسيس في الداخل. أوصلوا للحكومة أن محمداً سيغدو فتوة فور خروجه من السجن. نقلت الحكومة الجاويش حسن على عجل، لأن محمداً سيُطلق سراحه قريباً "لعدم كفاية الأدلة".

ثمة قروي في السجن. كان محكوماً خمسة عشر عاماً. أطلق النار على أحد القرويين. في أحد الأيام وصله خبر من القرية. الخبر جنَّن المسكين. أخوه أخذ زوجته.

أغلق المحكوم على نفسه المهجع بعد تلقيه الخبر. لم يتناول طعاماً أو يكلّم أحداً طيلة أسبوع. بعد ذلك بدأ يصحو تدريجياً، ولكن

لم يعد فيه خير. كان كالمجنون يهيم في السجن صامتاً وشاخراً باستمرار. إذا سأله أحد عن شيء، أو قال له شيئاً فلا يسمع على الأغلب. وإذا سمع، فيضحك كالمخبولين. صار الرجل برفع خيط الإبرة. شعره أشعث. بعد ذلك حدث أمر للرجل. فور خروجه من المهجع، يذهب إلى شبك الحديد، ويسند رأسه عليه، ويبقى حتى المساء جالساً هكذا ينظر إلى مكان ما على الأرض. همّ السجين صار همّ الجميع. وكان محمد الأكثر اهتماماً بالسجين. يهتم، ولكن ماذا يفعل؟ ليس بيده شيء. لا دواء لهمّ السجين.

يشرد أحياناً، ويقول: "يا حاج! يا لكثرة الشهوم وأصحاب عزة النفس في هذه الدنيا. انظر إلى هذا الرجل. مات وهو حي. إذا أطلقوه من هنا، عليم الله أنه سيمهد تلك القرية، ويفرمهم فرماً."

بدأت التحضيرات في الداخل يوم إطلاق سراحهم. توادعوا. سيد يقدم النصائح لمحمد منذ المساء. كان يحكي له عن الناس والعالم.

جاءت أوامر الإخلاء. عصر أحد الأيام، أخذوا فراشه، ووضعوه إلى جانب الباب. كان المحكوم ينظر شارداً من بين القضبان، وسينهار لو نفخت عليه. صغُر حتى صار كطفل. فجأة فُتح الباب. في أثناء خروجه، قال محمد للمحكوم: "مع السلامة يا أخي" سمع المحكوم هذا. أدار عينيه نحو محمد، وتسمّر. بعد ذلك، دبت الروح بالرجل. أمسك محمد من زيقه. وتحدث أول مرة منذ أشهر.

قال: "يا فتوتي، أنت تخرج يا فتوتي..."

بعد ذلك، بدا كأنه نادم، وسقطت يده عن زيق محمد كأنها يد ميت. وافترقا.

-٤-

حين خرجوا من السجن، أخذوا فرشهم، ونزلوا في نزل. حجزوا غرفة. صديقهما الآخر هو محمد الراعي.

جلسوا على فرشهم، ووضعوا أيديهم على خدودهم، وفكروا فترة.

التشغرجوي: "قل يا حاج لنرى. ماذا سنعمل الآن؟"

"أنت تعرف يا بني"

"أيأتي خبر من كامل آغا غداً برأيك؟"

"يأتي يا بني."

ماذا أقول له يا عمي الحاج؟"

"أنت تعرف."

"هل أغلقت الطرق كلها يا عمي الحاج."

"هذا ما يبدو"

"لننتظر."

تمددوا على الفرش. وأطفأ الحاج المصباح.

لم يدخل النوم إلى عيني التشغرجوي، وهو يتقلب في فراشه. كان محمد والحاج الراعي قد ناما منذ وقت طويل. كان يفكر بأبيه.

يفكر بالفتوة. يفكر بأمه. والجاويش حسن.

جرة الماء تكسر على طريق النبع... هل شوهد حتى الآن فتوة عاش مديداً، ومات متمدداً على فراشه؟ مهما كان الفتوة شهماً فنهايته رصاصة. رأت الجبال منذ تكونها كثيراً من الفرارية. لم تكن نهاية أحد منهم نهاية. هناك جريد الكبير، وجريد الصغير، والعربي عديم الأصابع... ومئات الفتوات! يد الحكومة وذراعها طويلة. الحكومة عملاقة. مهما بلغت شهامة الفتوة يسقط بين مخالبها.

مستحيل، يجب إيجاد طريق آخر.

أمه من طرف، والجاويش حسن من طرف، والفقر من طرف. التهريب لا يُكسب الكثير. ونهايته أيضاً رصاصة... بعد ذلك، ماذا سيقول الناس؟ "انظروا إلى ابن أحمد التشغرجوي! قاتل والده يتجول ملوحاً بيديه، وهو ينظر هكذا. تفوه على رجولته! ليغدو رجلاً ابن أحمد التشغرجوي." بعد ذلك ماذا سيقول الفتوة الحاج؟ سيقول: "أمنت له مساعدة كامل آغا، وخليل بيك ولكنه لم يغدُ رجلاً. آه يا فتوة أحمد!" وسيقول: " لم يبق بعدك ابن. بقي أرنب، وحجر أسود."

كيف سينظر إلى وجه أمه؟ ليس لديه حتى هدية ليأخذها إليها. لم يكن معه نقود. ليس لديه حتى أجرة النزل. نهاية الفتوة رصاصة.

بعد ذلك ماذا سيقول الجميع في الداخل والخارج؟ "ليخرج التشغرجوي.. ليخرج أولاً، وسيرى الجاويش حسن ذاك... ليقتل أباه، وليعتقله دون وجه حق، ويجرجره في السجون. سيرى. إذا كان التشغرجوي تشغرجوياً فلا يدع ثأره."

الجبل والسهل خوفٌ كل يوم... اهرب، اقتل... اضرب واكسر...

نهض فجأة، وأشعل المصباح. جاء إلى جانب الحاج، وجلس. أيقظه.

"ماذا يوجد يا محمد؟"

"يا عمي الحاج، أنا تراجعت عن هذا الأمر."

"عن ماذا؟"

"عن الفتوة"

"ما السبب؟"

"نهايتها..."

فكر الحاج وهو شبه نائم.

"رجل مثلك لا يتراجع عن الفتوة. أنت فتوة منذ الآن. لا يمكن الخروج من هذا. إذا ذهبنا الآن إلى القرية، وأمسكنا مقبض المحراث فلن يبقى لنا قيمة خمسة قروش. لن يدعونا نرتاح. لوثنا ايدينا بالدم. سيجعلوننا في حال يضربنا فيها القادم، ويضربنا الذاهب. الفتوات يضربوننا، والحكومة تضربنا. يقولون عنا اننا فلاحون سيئون. التاثت أيدينا مرة بالدم، لا مناص."

عاد الحاج إلى النوم بعد أن قال هذا. وذهب التشغرجوي إلى فراشه.

أصبح الصبح. لم يغمض له جفن حتى الصباح. نهضوا.

سأل الحاج: "أننتظر خبر كامل آغا؟"

تحولت عينا التشغرجوي إلى ما يشبه صحني دم: "لنذهب إلى القرية أولاً، وبعد ذلك، الله كريم."

ضحك الحاج من تحت شاربيه: "ليكن هذا."

كان يعرف الحاج أن التشغرجوي لا يستطيع الوقوف في السهل،

وأنه سيضطر للصعود إلى الجبل. وإن لم يكن اليوم، فغداً"

وصلوا إلى محطة القطار. كان القطار سيتحرك مساء. عادوا إلى السوق. تجولوا. طوال اليوم لم يذكر الحاج أو التشغرجوي قضية الفتوة. محمد الراعي معهما لا ينبس أبداً. هذه هي عادته. لا يتكلم أبداً، ويعمل ما يقوله الحاج منذ بدأ التهريب.

ركبوا القطار.

بدأ يشتعل الجاويش حسن حين سمع في أودمش بخروج التشغرجوي ، وبدأ يحاول إيجاد ذريعة لتوقيفه، ووجد الذريعة. ألبسه جريمة سرقة حدثت قبل سنوات قليلة. ذهب إلى قريته من أجل توقيفه. جاء إلى بيت التشغرجوي، فلم يجده فيه. كانت أمه تغزل الصوف. كان الجاويش حسن غاضبا، وغضب أكثر عندما لم يجد التشغرجوي، وأقدم على تصرفات غير مناسبة مع المرأة. لا بدّ له من إيجاده.

قال: "إذا وقع ابنك هذا بيدي... سأفعل فيه أسوأ مما فعلته بأبيه. من أين أخرجت هذا السافل، وولدته؟ يخنق رجلاً كما لو أنه خروف. أمن هنا أخرجته؟" ومدّ بندقيته إلى ما بين فخذيها "ناتج من زنا بين أب كلب كذاك وقحبة مثلك... ومن مكانك هذا."

بعد ذلك، مدّد الجاويش حسن عدداً من أقرباء التشغرجوي تحت الضرب. وعندما لم يحصل على نتيجة، خرج من القرية ليبحث عنه.

لم تصمد خدوج أمام هذه الإهانات كلها، فمرضت. استدعت أحد الشبان من أقربائها: "اذهب وجد محمدي أينما كان. قل له إن الجاويش حسن - الجاويش حسن الذي قتل أباك- فعل كذا وكذا مع أمك. قل له ألا يأتي إلى القرية قبل أن يقتل الجاويش حسن انتقاماً لدم أبيه، ولأمه.

لن أسامحه بحليبي. قل له ألا يأتي إلى القرية إذا لم يفعل هذا. قل له: أمك قالت هذا. لم يبق لي أو له وجه نقابل به الناس."

ذهب الشاب، ووجد التشغرجوي. وحكى له ما قالته أمه مبالغاً خمسة أضعاف.

تحقق ما كان يأمله الحاج قبل وصولهم إلى القرية. امتقع التشغرجوي بالحمرة، وجحظت عيناه.

"لا مناص يا عمي الحاج. هذا يعني أنه لا مناص. لنذهب فوراً إلى عمي الفتوة الحاج. لنرسل خبراً إلى كامل آغا وخليل بيك وتوفيق بيك ليستعدوا من أجلنا. عدوهم عدونا."

وصلوا ذات ليلة إلى قرية الفتوة الحاج من دون أن يعرجوا على قريتهم. صاروا يعتبرون أنفسهم فتوات، ويترصدون. يعرفون أن الجاويش حسن خلفهم، ويتصرفون على هذا الأساس.

فور رؤية الفتوة الحاج لهم: "كنت أظن أنكم في جبل الخمس أصابع.. ما زلتم.."

قال التشغرجوي: "يا عمي الحاج، قم بما يلزمنا."

قال فرحاً: "على رأسي، وعلى عيني. منذ القديم وفرخ الذئب ذئب. كل شيء جاهز. لم يجدوكم رجال خليل بيك، فجاؤوا إليّ. وأنا قلت لهم ما يجب أن أقوله. الآن سأرسل خبراً لتوفيق بيك، ولكامل آغا أيضاً. لا بد أنهم سيرسلون لكل منكم خمسين ذهبية."

الفتوة الحاج يطير فرحاً. سيعود سلطان القرية. طالما أن محمداً في الجبل سيكون القرويون خدماً وعبيداً له. عاد عصرك من جديد. سيفه حاد من جديد. أعطى لكل منهم سلاحاً، وكثيراً من الذخيرة،

ولمحمد منظاراً. وودعهم في تلك الليلة.

قال: "ليكن طريقكم مفتوحاً، وسيفكم حاداً، ورزقكم وافراً، الخضر عونكم"

بعد ذلك، طيّر كالبرق خبراً للرحل، وأغوات الرحل من معارفه في الجبل: "رجلنا واصل إليكم، أرجوكم التزموا بعهودكم."

قصدوا جبل الخمس أصابع. استقبلهم الرحّل، وأكرموهم باحترام. سحب آغا الرحل محمداً جانباً:

" وصل السلام من الفتوة الحاج. قيل لي إنك ابن الفتوة أحمد. لاتفكر أبداً. سيُقدم لك كل ما تحتاجه في هذا السهل. لا تخف. أرسلت خبراً لأقربائنا الآخرين. انظر يا بني، أنت شاب يافع جداً. سمعت عنك من قبل. قيل أن ولداً مثلك عند الفتوة أحمد. لك عندي نصيحة أو اثنتان. اسمع جيداً. الفتوة تعني المآوي. المآوي هي روح الفتوة. لا يمكن للفتوة الذي يُظهر مآويه أن يعيش. وهنا مأواك الأساسي يجب ألا تطأ قدمك هذا المكان مرة أخرى.

لم يفهم التشغرجوي.

"إلى أين أذهب إذن؟"

"أبوك مات، وراح ولم يعرف أحد مأواه، أو صديقه. مأواك الأساسي يجب ألا يعرفه أحد غير الله. يجب أن يكون عندك مآو كثيرة فلا يعرف أحد مأواك الثاني أو الثالث أو الرابع أو الأساسي، وهذا ما "سيلخبط" الجميع والحكومة، ويجعلهم يوقعون بعضهم بعضاً. هذه القبيلة لك. سأصل إليك حين تقع في مأزق. عليك ألا تشكّ في هذه القبيلة. هل فهمت ما قلته؟"

رفع التشغرجوي رأسه، ونظر إلى هذا المسنّ البالغ الخامسة والسبعين، الطويل، ذي اللحية البيضاء المدببة، والعينين الخضراوين كورقة شجر، وقال: "تسلم يا آغا، فهمت."

أمر آغا الرحّل بذبح خروف، وقدّم لهم وليمة جيّدة. بقوا هناك عند تلك القبيلة أربعة أيام. يصعدون نهاراً إلى الجبل، وينزلون ليلاً إلى القبيلة. وبينما هم هكذا جاءتهم النقود من كامل آغا وتوفيق بيك وخليل بيك. أرسل خليل بيك رسالة. يقول فيها: "يا فتوة لا تقلق من شيء طالما نحن هنا. هذا يعني أن يداً لك في إزمير، وأخرى في أودمش، وأخرى في اسطنبول، في قصر السلطان..."

خليل بيك هذا من الوجهاء. كان جده متسلّم الضرائب، وعائلته حكومة المنطقة منذ عهدها بالحياة. هي حاكمة ابنة حاكمة منذ نشأتها. وإذا كانت الحكومة تؤمن عيش الوجهاء، فإن الفرارية يؤمنون هذا أيضاً.

قبّل التشغرجوي يد آغا الرحّل المسنّ.

قال آغا الرحّل: "تجوّل على القبائل قبيلة قبيلة، وعلى قبائلنا، وتعرف عليها، تلزمك." وأخبره بالقبائل العدوة، وقال له: "لاتثق بها."

وصلوا إلى نبع قريب من ذروة جبل الخمس أصابع.

قال التشغرجوي: "أتعرف ما قاله آغا الرحّل يا حاج؟"

الحاج: "أعرف."

دهش التشغرجوي: "كيف تعرف؟"

الحاج: "أعرف. أخبرك بأن قضية المآوي هي روح الفراري. لايمكن لفراري أن يعيش إذا كان مأواه فاسداً."

سأله متعجباً: "هل قال لك هذا أيضاً؟"

قال: "لا، قال هذا لأبيك عندما صعد. إنه يقدم النصيحة نفسها لكل فراري معه. إذا لم يكن عند الرحّل فرارية في الجبال، فهذا يعني أن جناحهم مكسور. يقف الرحّل بقوة إلى جانب فراريتهم. لولانا لأتى وجه نحس، وسلبه وفرمه."

فكر محمد، وقال لنفسه: "يفرمه."

حين سمع الجاويش حسن أن محمداً صار فرارياً، نظّم مفرزته، وانطلق في مطاردته رغم وجود الملازم حسنو أفندي معه.

كل برهة كان يقول: انظر إلى ابن التشغرجوي، إلى ابن القحبة هذا! صار رجلاً، وصعد إلى الجبال! نسي أباه. أنا أصطاده الآن كالحجل. إنه شاب لا تجربة عنده... حسن أنه صعد الآن. لو كبر قليلاً، وتمرّس، لصعب القبض عليه. الذين معه أيضاً أغرار. إنهم أغرار على البركة، ينتهي أمرهم في اشتباك واحد. كالحجل..."

يبحث عنه قرية قرية، وجبلاً جبلاً، فلا يجد أثره. مر أسبوع، شهر..لا..الجاويش حسن لا يقطع الأمل.

الحاج: "سنبقى هنا هذه الليلة. أرسلت خبراً إلى الفراري الحاج. سيجلب لنا خبراً عن الجاويش حسن. ولدينا عملٌ آخر أيضاً."

صمت، وفكر زمناً طويلاً.

يتدفق النبع من مجرى صنوبري قديم نبتت عليه الطحالب، وينحدر إلى الأسفل كخيط فضي. كانت حافتاه مغطاتين بعشب داكن يانع. النعناع البري والسحلب والصفا تفتح أزهاراً في الحقول. غدا ما تحت أشجار الصنوبر فراشاً من أوراق إبرية. نبتت أوراق الأعشاب من

بين تلك الأوراق الإبرية. انتهى الصيف أو كاد ينتهي. الجو يتجه نحو الخريف. الوقت عصراً. تهب ريح خفيفة. ثمة طائر يتقافز من غصن إلى غصن. لا أثر لروح أخرى في المحيط.

وضع محمد الراعي بندقيته في حضنه وفوهتها متجهة نحو الأعشاب السفلى، وهو ينظر إلى الماء المتدفق. يعبق المكان برائحة تفقد الإنسان صوابه. إنها رائحة النعناع البري والطحلب والصنوبر والماء والعشب. إنها رائحة طازجة وناعمة...كان الراعي شاباً ضخم البنية وجميل الجسد في السادسة والعشرين من عمره. لا يتكلم أو يفتح فمه أبداً. صوته جميل. يغني دائماً. يفتح فمه لكي يقول: "كما تريد يا فتوتي!"، ومن أجل الغناء أيضاً. كان ابن أرملة. عمل راعياً عند أحد الأغوات مقابل ملء بطنه حتى أخذه الحاج الفراري للتهريب. وفي عمله بالتهريب يحمل نايه مع بندقيته. ذهب أبوه جندياً إلى اليمن، ولم يعد. يكاد يقفز قلبه من صدره لشدة الخفقان حين يغني، ويعزف على الناي. عادته السيّئة هي عدم تكلمه. يصوب بشكل مدهش. إنه أحد الذين يصيبون القرش. لعل هذه الجبال لم تشهد شاباً وسيماً وهادئاً وواثقاً وهدافاً تلقائياً مثله.

رفع الحاج مصطفى رأسه، ونظر إلى الراعي. كان الراعي متمدداً دون حركة كأنه نائم. ابتسم، وقال بصوت عالٍ:

"إذا وَجَدَ ابن الكلب هذا رأس نبع تنقطع أطرافه، ويضطجع هكذا، وإما أن يعزف الناي أو يغني."

ابتسم الراعي، ووقف ببطء.

قال مصطفى: "يا راعي، تعال إلى هنا. لدينا عمل. فيما بعد

تذهب لتنام من جديد. ولاه أسود الدين، وهل النوم أمك؟"

جاء الراعي مبتسماً، ووقف عند رأسه.

سأل الحاج مصطفى: "بندقيتك محشوة؟"

هز الراعي رأسه كأنه يقول: محشوة! كان يبتسم.

في هذه الأثناء أفرغ الحاج بندقيته من الرصاص، وملأها من جديد. التشغرجوي يتابع حركاته بفضول.

وقف الحاج، وداعب بندقيته، وأخذها، ووضعها بجانب التشغرجوي. بعد ذلك، أخذ يده، قبلها، ووضعها على رأسه.

"أنت فتوتنا. ليكن الخضر بعونك. وليكن عدوك أعمى وصديقك شديد البأس."

بعد ذلك انسحب من أمامه. نظر إلى الراعي محمد. ذهب الراعي أيضاً إلى أمام التشغرجوي، ومد بندقيته، وتناول يده وقبلها، وانسحب.

اغرورقت عينا التشغرجوي بالدموع، ونهض على قدميه.

"هذا يعني أن الأمر وقع يا حاج."

هز الحاج رأسه.

قال التشغرجوي: "سلمتم ودمتم. الله لا يسود وجوهنا أمام العدو والصديق."

بعد هذا سيتصرفون وفق تقاليد الفتوات. تخلى الحاج عن النصح، وغدا رجلاً من رجاله. بحسب تقاليد الفتوة فالرجل التابع لايسأل الفتوة أي سؤال، ولا يمكن قول: ماذا نفعل، إلى أين نذهب؟ هذا صار، وهذا لم يصر... وحين يسأل الفتوة، يجيب فقط. لا يوجد رجل

تابع يخرج على كلام الفتوة، أو يعترض على أي حركة. أي رجل تابع يخرج خارج التقاليد، أو يعترض أدنى اعتراض ينال رصاصة حتى ولو كان على حق. الحاكم الوحيد في العصابة هو الفتوة. لا يمكن أن يكون ثمة كلام إثر كلامه، أو أمنية إثر أمنيته.

مد الحاج بندقيته، وقال: "أتسمح لي يا فتوتي؟"

بإشارة طرف عينه قال التشغرجوي: "نعم"

أطلق الحاج خمس رصاصات على سفح الجبل. بعد ذلك:

"يا فتوتي، اسمح للراعي أيضاً."

أطلق الراعي أيضاً خمس رصاصات، ومن بعده التشغرجوي أيضاً. رددت الجبال صداها. كانت الجبال تصدح بم بم.. تحول وجه التشغرجوي إلى حمرة شديدة.

ناموا في تلك الليلة عند رأس النبع، مع أن الحاج مصطفى كان يريد الذهاب إلى خيام الرحّل. لم يستطع تقديم اقتراحه بأي شكل. لايمكن له هذا. الفتوة سيفكر بكل شيء، ويقرر كل شيء.

استيقظ التشغرجوي عند احمرار الأفق، كان الراعي مناوباً.

"يا راعي"

"تفضل يا فتوتي"

"أيقظ الحاج."

"على رأسي يا فتوتي."

نهض الحاج. تناولوا افطارهم عند رأس النبع. لم يتكلموا حتى أنهوا طعامهم.

قال التشغرجوي: "يا حاج" لم يعد يقول يا عمي "لن نذهب إلى

خيام الرحّل الآخرين. فكرت كثيراً. إنه غير مناسب. إذا كنت تسأل عن السبب، فلأننا عندما نذهب إلى قبيلة، ألا نقول لها انظروا إلينا، نحن صعدنا لنكون فرارية، اعرفونا، وشاهدونا؟ هذا غير ممكن ياحاج! الفراري يجب أن يكون فرارياً قبل كل شيء، يجب أن يعمل عملاً، بعد ذلك يعدّ مكانه. أعتقد يا حاج أن أحداً لن يضعنا موضع الرجال من دون عمل ما."

الحاج: "أنت على حق يا فتوتي. أنت على حق من الأرض إلى السماء."

"علينا أن نتحين فرصة الجاويش حسن يا حاج."

الحاج: "علينا أن نتحينها."

في أثناء كلامهما هذا صدر صوت صفير.

قال الفتوة: "انظر يا حاج"

نهض الحاج وذهب. ورد بصفير مماثل. بعد قليل نهض الراعي، وذهب، ثم عاد مع رجل على رأسه عرقية صوفية وفي قدمه شحاط، وعليه ألبسة ممزقة. كان الولد جلداً على عظم.

سأل التشغرجوي: "ما الأخبار يا سبع؟"

"سلامتك يا فتوتي. أنا كنت ألاحق الجاويش. كنت أذهب إلى حيث يذهب. كان يضرب القرويين دائماً. يضرب ويضرب وهو يقول: أين التشغرجوي؟ يتجول على قرانا كلها. قال الآغا الفراري الحاج: اذهب إلى الفتوة، وقل له إن هذه هي الفرصة."

قال التشغرجوي: "حسن يا بني. سلم لي على الفراري الحاج." والتفت إلى الحاج مصطفى، وقال: "يا حاج! النقود، لا يوجد مايسمى

ألبسة على هذا الولد، ولا قبعة على رأسه. اعطه خمس أو ست مجيديات." وقال: "يا بني، خذ هذه النقود، واشترِ حذاء لقدميك، وثوباً لظهرك. سأعطيك مرة أخرى."

أخرج الحاج النقود، وأعطاها للولد. أبرقت عينا الولد المتعب في تلك اللحظة. وتحرك الدم في عروق وجهه.

قال: "الله يموّت عدوك يا فتوتي. ليكن الخضر بعونك، الخضر ذو الحصان الأغبر."

اجلب لي خبراً عن الجاويش حسن. اجلب لي دائماً. اعرف كل ما يفعله جيداً. وقل للحاج ألا يفوت أي شيء يفعله"

انطلق الولد مرة أخرى في طريقه.

قال التشغرجوي: "يا حاج، لنغير المكان فوراً. لننتقل إلى ماوراء السفح. وليأخذ الراعي زاداً من الخيام. اعط نقوداً للراعي."

فكر الحاج: "ابن الكلب هذا ليس فتوة بل تاجراً! يأمر بشراء الزاد. ويعطي خمس مجيديات للولد القادم الذي يساوي خمسة قروش." ضرب يده إلى زناره ببطء، وأخرج النقود من دون رغبة، ومدها نحو الراعي. انتبه التشغرجوي للأمر.

قال: "ما هذا يا حاج؟ ما هذا؟ نحن لم نغدُ فرارية بعد. لئلا ننشب معركة من أجل رغيف خبز. بعد أن نغدو فرارية لن يأخذ منا أحد ثمن رغيف الخبز. سيعطونه بمحبة. ولكنهم الآن يغتابوننا. ينظرون إلينا بعين الريبة." التفت إلى الراعي: "إذا لم يأخذوا النقود فاعطهم إياها بالقوة. قل لهم: لم يصعد التشغرجوي إلى الجبل من أجل أن يأكل خبز الفقراء، ويسرق مالهم. لا تنس!" جاء الحاج وجلس بجانبه. وضع

التشغرجوي يده على كتف الحاج: "تجري الأمور بشكل سليم يا حاج. نحن الآن يمكننا أن نصطاد الجاويش حسن كالحجل إذا أردنا. ولكن لينتظر. ليظلم الناس عدة أيام بسببي... ولكننا الآن ماذا سنفعل يا حاج؟"

قال الحاج: "أنت على حق يا فتوة ليظلم. بعد ذلك..."

التشغرجوي: "فكرت بأمر على النحو التالي. هل يوجد في هذه الأطراف آغا سيء يظلم الفقراء؟ الأظلم. الذي يتوسل الفقير كي لايقع بيده..."

قال الحاج: "موجود. موجود، ولكن ليس رجلاً يمكن ابتلاعه بسهولة. إنه مصطفى آغا. ملجأ جريد الكبير. وعدو والدك أيضاً. على بابه حراس ورجال مسلحون. يحمي القتلة، ويحمي التشاملجوي. الفقراء من هنا حتى أودمش، ومن أودمش حتى آيدن أعداؤه. إنه رجل لا يمكن ابتلاعه بسهولة. ومزرعته في السهل."

نظر التشغرجوي نظرة غضب للحاج فترة:

"حسن يا حاج. هذه هي الفرصة. سنبتلع مصطفى آغا. سنداهم بيته. إذا لم يكن معه نقود سنأخذه إلى الجبل. وإذا لم يدفع سنقتله. أنت أرسل خبراً إلى ولي آغا مع الراعي. ليبلغنا إن كان مصطفى آغا في بيته أم لا."

الحاج: "لألحق بالراعي،..."

التشغرجوي: "دع الراعي. أنت اذهب إلى ولي آغا. أنا سأنتظرك في مقبرة الدم، عند جوزة الهند."

نهض الحاج وذهب. وجهه قلق، وداكن.

-٥-

يزخ المطر بهدوء. كانت ليلة مظلمة ثقيلة كالصخر. العين لاترى أمامها. إنهم في مكان يبعد نصف ساعة عن مزرعة مصطفى آغا. يتقدمون ببطء. يخشون كميناً. رجلاه ليسا مجربين. يمكن أن يخوناه. إنهم ذاهبون إلى المزرعة من طريق معاكس للذي حدده رجلاه. الحاج في المقدمة على بعد مئة متر. التشغرجوي في الوسط، ومحمد الراعي في الخلف. توقف الحاج قبل خمسين متراً من المزرعة. جاء محمد إلى جانبه. ولحق بهما الراعي.

التشغرجوي: "احرسا الباب أنتما. لأدخل أنا. إذا كان الباب مغلقاً فأفتحه برصاصة. إذا قرر الجاويش حسن المجيء فلا يصل إلى هنا بيوم. لا تهتم يا حاج إذا وقع اشتباك. سيكون هذا أفضل."

"أهذا أفضل يا فتوتي؟"

"سيكون أفضل يا حاج"

قفز عن الجدار، ودخل. كان قد عرف أدق التفاصيل عن الغرفة التي يجلس فيها الآغا، ومن يسامر في الليل، وحتى مقدار النقود في البيت. وصل إلى باب الغرفة. قرع الباب.

سألوا: "من؟"

قال: "محمد. جئت لرؤية الآغا."

فُتِحَ الباب فوراً. دخل محمد. فَتْحُ الباب فوراً، وعدم سؤالهم عمن يكون، يشير إلى أن مصطفى آغا لا يخاف من أحد. فور دخول محمد من الباب وجه بندقيته نحو الآغا.

قال: " لا تتحرك. ستأكل الرصاصة"

لم يهتم مصطفى آغا أبداً. نهض من حيث هو. لم يبد اضطراباً.

قال: "من أنت؟ ماذا تريد يا بني؟"

أنا محمد التشغرجوي. إذا لم تعطني ألفاً ومئتين وخمسين ليرة من الألف والثلاثمئة الموجودة في خزانتك، فروحك.."

ضحك الآغا: "سمعت أنك صعدت حديثاً. كنت سأرسل إليك خبراً، لتأتي وتأخذ نصيحة أو نصيحتين من آغاك."

قال محمد: "هاا! دعك من الكلام يا آغا. إما روحك أو النقود."

الآغا: "ألا تعرف يا بني أن مصطفى آغا لا يسلب؟ ألم تسمع أبداً؟"

"هيا يا أسود الدين... طولتها كثيراً. أين النقود؟"

شخصت عيناه. واصفرت وجوه الذين عند الآغا.

نادى محمد فجأة نحو الخارج: "انظر إلى أسود الدين هذا.. يقول إن مصطفى آغا لا يُسلب! خذ الألف وثلاثمئة ذهبية حتى آخرها."

اقترب الحاج من الآغا: "هيا يا كلب ضخم. إذا لم تتحرك فاعرف أنك ميت."

نظر الآغا فوجد أن الوضع سيء. بدأت يداه ترتجفان. يعرف أنه

إذا فتح فمه فسيأكل رصاصة. فقد رأى فرارية كثيرين. جاء هؤلاء من أجل قتله فقط. فكروا به بشكل خاص، وعرفوه، وخططوا، وجاؤوا. نهض ببطء. وانتقل إلى الغرفة الأخرى. والحاج خلفه. أخذ كيساً، وأعطاه للحاج. أخذ الحاج الكيس وجاء. الآغا أمامه. زأر محمد: "يا حاج. أفرغها، وعدّها."

أفرغ الحاج الذهبيات في الوسط، وتلامعت بهدوء تحت الضوء. عدّها. كانت خمسمئة ذهبية بالضبط.

محمد مرة أخرى: "آغا. لا تطولها."

دخل الآغا إلى الغرفة من جديد. والحاج خلفه. أخرج كيسين وأعطاهما له.

سأل محمد: "هل الأمر تمام؟"

الآغا: "تمام يا بني"

أفرغ الحاج الذهبيات، وعدّها. كانت الألف والثلاثمئة كاملة. ملأها كلها بالكيس.

قال محمد: "يا حاج، أعد للآغا مئة! لعله يحتاج شيئاً هذه الأيام."

عدّ الحاج مئة ذهبية دون رغبة، ووضعها في الوسط. وخرج ذاهباً.

قال محمد: "يا آغا، يقولون إنك رجل ذكي جداً... حقيقة إنك ذكي. آه لو أن صديقاً مثلك لي. لا تؤاخذنا من أجل النقود نحن فرارية جدد. وتلزمنا النقود"

تحول الآغا إلى حجر، ولم يستطع فتح فمه.

قال التشغرجوي: "بالسلامة" وخرج. كان الحاج ينتظر عند الباب. قفزوا من فوق السور، وتوجهوا نحو المقبرة.

كانت الشمس تشرق. لم يصعدوا إلى الجبل، وبقوا في السهل.

التشغرجوي: "لنمش. لنذهب إلى مجرى السيل، ولنبق هناك وسط الدغلات. ما قولك يا حاج؟"

"فتوتي أعرف."

وصلوا إلى مجرى السيل. كانوا قد تعبوا. امتلأت أغصان الأشجار الأفقية بأزهار ورديّة، وتفتحت الخطمية بأزهار بنفسجية. آلاف النملات ذات الأجنحة الصفراء اللماعة حطت على الأزهار. تهب ريح معتدلة من الأعالي، من الجبال جالبة معها رائحة الصنوبر والعشب اليابس والماء والخريف.

"علينا أن نبقى مساء هذا اليوم هنا."

الحاج: "لا سبيل آخر لدينا."

تتلامع حصى مجرى السيل. ملأت الشمس المجرى بالضوء، وهو يلمع. عبروا إلى الطرف الآخر من مجرى السيل، ووصلوا إلى شجيرات خطمية مكورة قوية، وجلسوا.

سأل التشغرجوي: "هل جعنا يا حاج؟"

الحاج: "جعنا"

أخرجوا زوادتهم، وبدؤوا يأكلون ببطء. بعد الطعام، أسند الراعي ظهره إلى شجرة، وأخرج نايه، وبدأ العزف. كان شارداً. كأن العالم كله من حوله قد هُدم، وزال. كأن محمداً والحاج يستمعان ولايستمعان. ولم يكونا خائفين من صوت الناي. البندقية في حضن محمد. يمسح على

أخمصها باستمرار. والحاج يدخن سيجارة.

عزف الراعي حتى العصر. وهما بقيا يفكران. عبر سرب طيور من فوقهم. إنها طيور متشابكة سوداء فاحمة. نهض محمد ذات لحظة. كان وجهه يبرق. تنبعث من كل جزء من أجزائه موجة فرح تمتد حوله.

قال ضاحكاً: "يا حاج، يا حاج!"

رفع الحاج رأسه. عيناه تطفحان بالأسئلة.

"يا حاج! ألف ومئتا ذهبية."

الحاج: "موجودة."

"نقود كثيرة. إنها ثروة."

"نعم يا فتوتي."

"يا حاج! عشر أو خمس عشرة قرية من قرى سفح الجبل..."

"لم أفهم ما قلته يا فتوتي."

"كسبنا عدواً كبيراً يا حاج! علينا أن نحصل على صديق كبير. أكبر منه. قبل أن نعطي الجاويش حسن ما يستحقه..."

"فهمت يا سيدي."

"لننطلق في طريق تلك القرية التي هناك في الأعلى عند الغروب. ما اسم هذه القرية يا حاج؟"

"لا أعرف يا فتوتي. لم أذهب إليها أبداً."

"بعد الآن ستغدو هذه القرى ملعب خيلنا يا حاج."

عند الغروب نهضوا، وحملوا أغراضهم، وانطلقوا في الطريق. مع دخول القرية، وقع في طريقهم رجل مسنٌ. توقفوا.

قال التشغرجوي: "أنا الفتوة محمد التشغرجوي ابن الفتوة أحمد

التشغرجوي. أرنا بيت الوكيل."

ارتعب الرجل حين سمع اسم التشغرجوي، وانطلق أمامهم، وأخذهم إلى بيت المختار. قابلهم المختار مندهشاً.

"أنا التشغرجوي."

قال المختار مرتبكاً: "تفضل يا فتوتي! أهلاً بك يا فتوتي. يا بن فتوتنا أحمد. بعد موت فتوتنا، جعلنا الأغوات والبيكوات وأعوانهم من الفتوات نبصق دماً. فرحنا حين سمعنا بك."

كان يتكلم وهو يمد لهم الفرش والبسط والمخدات. جلسوا. جلس مقابلهم.

"بارك الله غزوتك. سمعنا ما عملته بذاك الكافر. عيّد القرويون كلهم. قلنا إن فتوتنا أحمد راح، ولكن مكانه لم يخلُ."

جاءت القهوة، وجاء بعدها الطعام، ثم القهوة من جديد.

المختار: "هل لفتوتنا أوامر؟ هل هنالك طلب؟ أرسلت خدمنا خارج القرية للمراقبة. لئلا يقع في قلبكم شك. سيأتون لإخبارنا لو صدرت تكة. هل لفتوتي أمر؟"

حكى التشغرجوي: "كم عدد المخطوبين والعرائس الفقراء في القرية؟ كم عدد الشبان الخاطبين غير القادرين على الزواج لفقرهم؟ أريدهم منك."

بدأت أطراف ثوب المختار تقرع أجراساً من الفرح.

"على رأسي يا فتوتي، على رأسي. سلمت يا فتوتي. الفتوة أحمد أيضاً كان هكذا."

نادى زوجته وأحد القرويين: "تعال يا محمود، وأنتِ أيضاً

ياخدوج. بنت علي الأصفر واحدة، وبنت عثمان اثنتان... وولي بن عائشة واحد، وابن ضرمش المقسم اثنان.."

"نسيت ابن الفتوة المجنون. ماذا لديه؟"

قال المختار: "نعم، نسيت. يا فتوتي، أربع عشرة فتاة فقيرة، وسبعة شبان فقراء. إنهم ينتظرون عزاباً من الفقر. ينتظرون مرادهم. ستخضّر يدك..."

التشغرجوي: "ليأتوا!"

خلال نصف ساعة، اكتمل عدد البنات الأربع عشرة، والشبان السبعة. انحنى الفتوة على أذن الحاج، وهمس:

"للبنات بداية. لكل واحدة عشر ذهبيات."

ارتجفت يدا الحاج. نهض على قدميه. لم يرفع الفتوة رأسه ولو مرة واحدة لينظر إلى الفتيات الواقفات أمامه. سحب الحاج أحد الأكياس من حقيبته، وفتح فمه.

"هذه من أجل جهازكن يا بنات. هذا ما رآه فتوتنا مناسباً. الفتوة يعني الأب..."

عدّ في كفٍّ كلٍ من البنات الأربع عشرة: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...لم يُسمع سوى رنين الذهب فترة. بعد ذلك خرجت الفتيات...

قال الفتوة للحاج: "قل للشباب أن يجلسوا. لا يؤاخذونا. هديتنا ليست بقدّ المقام. لا يؤاخذونا."

الحاج: "الفتوة يريدكم أن تجلسوا."

انحنى الفتوة على أذن الحاج: "بعد أن يجلسوا، ونتحادث، تضع في جيب كل منهم خمس عشرة ذهبية في الخارج. ممكن؟"

"فهمت يا فتوتي."

بدأ الحديث، وبدأت الشكاوى من الحكومة والجابي، وبدأوا يشرحون عن معاناتهم من المفارز. صَمَتَ محمد، واستمع إليهم من دون أن يتكلم كحجر. جاء القرويون. قرويون آخرون... وتحدثوا..

بعد ذلك أشار الحاج بإشارة. خرج الشبان. وضع الحاج النقود في جيب كل منهم بهدوء.

"هيا، الله يسهل عليكم."

دبت الحياة في القرية. تنزل القرية ثم تنهض. تصدُرُ ضحكة أو صوت من كل بيت. ثمة تجوال من بيت إلى بيت، وأحاديث عن الفتوة. من رأى يصف الفتوة لمن لم يرَ. دب فيهم فضول شديد، واندفعوا بكل ما أوتوا للدخول إلى بيت المختار.

"الفتوة: "أكلٌّ شيء على ما يرام يا حاج؟"

"على ما يرام يا فتوتي."

"عليَّ أن أتوضأ، وأصلّي."

دُهش الحاج. لم يسمع على لسان التشغرجوي حديثَ الصلاة ولو مرة واحدة. فكر بعد ذلك، وقال لنفسه: "واخ منك يا يزيد، واخ! سيقلب المنطقة رأساً على عقب."

صرخ: "هاتوا إبريقاً لفتوتي. تأخرت صلاته، ليصلها قضاء."

توضأ التشغرجوي، ووقف في الصلاة. يتابع الحاج بدقة أداءه للصلاة. كان محمد يقيم الصلاة وفق أركانها وأصولها. واخ من أمه. كأن ابن الناس هذا إمام من أربعين سنة. بعد أن سلّم على يمينه ويساره، نهض، وبدأ يتحزّم بأغراضه.

انحنى على أذن الحاج، وقال: "يا حاج، خذ دليلاً من هنا للقرى

الأخرى. علينا أن ننهي شغلنا خلال خمسة أو ستة أيام."

انطلقوا في الطريق قبل ساعة من منتصف الليل.

خلال خمسة أو ستة أيام تجولوا على اثنتي عشرة قرية. جهزوا الفتيات، ودفعوا المكالات للشبان، وثمن الدواء للمرضى، وثمن الخبز للفقراء.

مساء اليوم السادس كانوا على سفح جبل الأصابع الخمسة المطل على آيدن.

سأل الفتوة: "كم بقي يا حاج؟"

"سبعون صفراء يا فتوتي. لم يبق شيئاً. ماذا سنفعل الآن؟ هل التجوال ممكن بهذه النقود القليلة؟"

"لا تهتم يا حاج، سنجد مصطفى آغا آخر."

"أيوجد؟"

"العالم ممتلىء بمصطفيات آغوات."

"ولكنه عمل صعب، وفيه بلية. مصطفى آغا أول، ومصطفى آغا ثان، ومصطفى آغا عاشر... من الصعب النهوض بهذا العبء. سيصعب العدو."

ابتسم التشغرجوي: "ولكن لكل عشر قرى مصطفى آغا واحد. من أفيد، الناس أم البيك؟"

بينما كان الحاج يفتح فمه ليقول: "الناس"، نظر إليه محمد بغضب، فتعثّر الكلام في فمه. أدرك أنه تجاوز حدوده، فقطع كلامه قائلاً: "فتوتي يعرف"

انتشر خبر تقديم التشغرجوي "الجهازات" للفقيرات المخطوبات،

والمساعدات للفقراء من القرى الاثنتي عشرة كريح فرح من سفوح الجبل إلى ســهل آيدن وأودمش، وإلى رُحّل منطقــة قــارنجلي، ووصل حــتى إزمير. التشغرجوي هو الفتوة الوحيد الذي تصرف على هذا النحو خلال السنوات الأخيرة. إضافة إلى هذا، فقد انتشر خبر أنه يصلي، وأنه ولي من أولياء الله، وأن الرصاص لا يؤثر فيه. بعد ذلك، انتشر خبر إحراقه تسعة أرناؤوطيين أحياء لممارستهم الفتوة باسم التشغرجوي مما نشر الذعر في كل الجهات.

كان التشغرجوي يتلقى يومياً ردود فعل الناس إزاء تقديم جهازات العرائس، وإحراق الأرناؤوطيين التسعة، والصلاة، ويراقب نفسه ومن حوله.

في أحد الأيام، قال: "يا حاج، هل أعجبك ما حدث؟"

ضحك الحاج: "لم يأت إلى هذه الجبال فتوة يفوقك. ليكن الخضر بعونك."

"هل الأمور على ما يرام يا حاج؟"

"على ما يرام يا فتوتي."

"ألا تعتقد أن دور الجاويش حسن قد جاء؟"

"جاء يا فتوتي."

"أنتركه يظلم الناس أكثر؟"

"فتوتي أدرى."

"حسنٌ، لنبدأ العمل. يكفي هذا الظلم الذي يظلمه منذ سنوات، ويزيد. بكى الناس دماً تحت يديه أصلاً"

"حرام عليه العيش ليوم واحد يا فتوتي."

-٦-

في مكان بين أودمش وقيمقجي. مقبرة. التشغرجوي كامن. قضى الجاويش حسن والتشغرجوي الليلة الماضية في القرية نفسها، وتحت سقف واحد. يروون الأمر على النحو التالي: التشغرجوي يطارد الجاويش حسن كل يوم. وبالطبع الجاويش حسن أيضاً يطارده. في أثناء استراحة التشغرجوي في بيت المختار، جاء الخبر:

"جاء الجاويش حسن إلى القرية."

يقول التشغرجوي لصاحب البيت: "ادع الجاويش حسن إلى البيت يا آغا. لينزلوا هنا هذه الليلة."

يضطرب المختار. كيف هذا العمل؟ الفتوة والجاويش في بيت واحد! عدوان حتى الصميم... يرتمي على قدمي الفتوة ويديه:

"لا تفعلها يا فتوة! لئلا يلتاث بيتي بالدم."

التشغرجوي: "اذهب أنت، وناده يا آغا. لن أفعل شيئاً. أنا أنزل إلى الطابق السفلي، وأمضي الليل حتى الصباح. وترسل العائلة والأولاد إلى الطابق السفلي رهائن. إذا حدث شيء..."

يفهم الآغا.

التشغرجوي: "صباحاً أنهضُ باكراً، وأخرجُ من البيت، وأذهبُ

إلى المقبرة التي على طريق قيمقجي. وقل له: ذهب التشغرجوي إلى قيمقجي، ليلحق بي. فهمت؟"

ماذا يفعل إن لم يفهم؟ يذهب، ويدعو الجاويش حسن. يأتي الجاويش حسن إلى البيت. وهكذا يقضي التشغرجوي الليل في الطابق السفلي، والجاويش حسن في الطابق العلوي. قلب المختار يذهب، ويأتي خشية وقوع شيء، ولكن شيئاً لم يحدث. يخرج التشغرجوي عند بزوغ الشفق الأحمر، ويصل إلى المقبرة، وينصب كمينه.

ثمة ضابط شاب مع الجاويش حسن يدعى الملازم حسنو أفندي. كان شاباً شهماً وكريماً. تجول في مطاردة الفتوات، وحقق نجاحات. وبحسب الروايات، فإنه كان زميل التشغرجوي في الصف نفسه في المدرسة الابتدائية.

كل شيء جرى كما خطط له التشغرجوي. حسنو أفندي والجاويش حسن في المقدمة، والدرك في الخلف... كل منهم يركب حصاناً. يصلون، ويدخلون تحت السلاح بالضبط.

يصرخ التشغرجوي الكامن: "يا جاويش حسن، يا جاويش حسن، أنا التشغرجوي الذي تبحث عنه. تفضل هذه من أجل دم أبي.. وهذه من أجل ما فعلته بأمي.. ولا زوج القحبة، أسود الدين!"

بعد ذلك، إطلاق نار. يسقط الجاويش حسن من حيث هو عند حافر الحصان. يبدأ حسنو أفندي هذه المرة بإطلاق النار، ويتجه بحصانه نحو التشغرجوي.

التشغرجوي: "لا تأتِ يا حسنو أفندي. سيؤسف عليك. بيننا خبز وملح. لا تأتِ."

حسنو أفندي لا يصغي.

يقول الفتوة: "يا راعي، من فخده."

يصوب الراعي على فخذه، ويطلق. الرصاصة التي دخلت في فخذه، خرجت من بطنه. يسقط حسنو أفندي أيضاً. لدى الجاويش حسن بندقية الفتوة أحمد والد الفتوة محمد المطعمة بالصدف. أخذها يوم قتله. كان همٌّ محمد أن يأخذ تلك البندقية من الجاويش حسن، ويقدمها لأمه. البندقية ملقية في طرف، والجاويش حسن في طرف. لسبب ما لا يستطيع التشغرجوي الوصول إلى الطريق، ويأخذ بندقية أبيه. وهذه تبقى غصة في قلبه حتى مماته.

بعد هذا يصير الفتوة التشغرجوي كما يجب. بعد هذا تعطي الحكومة اهتماما كبيراً للتشغرجوي، وترسل خلفه أمهر ضباط الملاحقة.

في أحد الأيام تتلقى المفارز خبر وجود التشغرجوي في جبل بوظ. وترسل الدوريات المتوفرة في تلك الناحية كلها بقيادة حافظ إلهامي. وقد فتت التشغرجوي قوات حافظ إلهامي. وانتشر هذا أيضاً بين الناس. يتنامى صيت التشغرجوي باستمرار. ويغدو هذا خوفاً ومحبةً عند القرويين، ويغدو خوفاً فقط عند الدوريات...

التشغرجوي: "يا حاج!"

"أمرك يا فتوتي"

"لن يستمر هذا.. لا يمكن أن ندخل مجابهة كل يوم، كل يوم. رصاصة مصادفة..."

"صحيح يا فتوتي."

"علينا ألا نجابه مفرزة في أي وقت."

"ماذا نفعل يا فتوتي؟"

"لنجد طريقة. فكر يا حاج! هذا لا يستمر هكذا."

لم يدخل النوم إلى عين الحاج ولا إلى عين الفتوة في خيمة الرحّل تلك الليلة. في الصباح الباكر جاء الحاج إلى الفتوة.

الفتوة: "احك يا حاج!"

وجه الحاج ضاحك.

"ليحك فتوتي."

الفتوة متجمد، ووجهه المدور المكتنز متجمد.

"لا بد من وجود عدة عصابات للفتوة محمد التشغرجوي"

"هذه قناعتي أيضاً."

في هذه الأثناء دخل إلى العصابة عدة أشخاص موثوقين. وهؤلاء أشخاص شهوم: أحمد ابن الهرماني. محمد العظيم، مرجان العربي، وعلي الأسود جندي فار هرب من اليمن. العصابة كبيرة العدد. وضع التشغرجوي موضع التنفيذ ما فكر فيه أولاً. أسس عصابة جديدة على رأسها علي الأسود. غير هذا أسس عصابة رديفة فيما بعد. وكان على رأسها الفتوة الأكتع. وكان هنالك شاب فتي، حتى يمكن القول، إنه ولد يدعى عثمان الصغير. صار يعد التشغرجوي مرتاحاً. أينما ذهبت، ومهما فعلت يعد التشغرجوي هناك. كانت العصابات الرديفة تغطي على التشغرجوي. وليلعّب التشغرجوي حصانه كما يريد.

كان ثمة بلية أخرى. كانت الجبال تفرخ عصابات أخرى مستفيدة من ضعف الحكومة. إنها عصابات محمد الشيخ وحسين التشاملجوي، وعصابات أخرى صغيرة. وهذه عدوة للتشغرجوي. بعضها تعاديه نتيجة حدث سابق صغير، وبعضها لأنها عدوة الوجهاء والأغوات المؤيدين

للتشغرجوي، وبعضها لا تتحمله لأسباب أخرى مختلفة.

يبدأ الصراع... الفرارية من جهة، والمفارز من جهة أخرى.

-٧-

جهزت تنظيمات التشغرجوي كلها. وأماكن نومه في حالة جيدة. والنقود تنهال عليه من هنا وهناك. وهذا تناقض في مصالح الأغوات والوجهاء.الوجيه أو الآغا صاحب العصابة القوية في الجبل هو الوجيه أو الآغا القوي في المدينة.

إنهم في خيام الرحل. صحا التشغرجوي لنفسه . وازدادت جرأته. إنه يعرف نفسه. ولأن الحجر في موضعها قنطار فلا يفتح فمه أبداً. ولا يتكلم على الطالع والنازل.

"ياحاج"

"أمرك يافتوتي"

"الأمور على ما يرام. والمآوي جاهزة. انه وقت إخفاء أنفسنا."

"وقته يافتوتي."

"لامجابهة للمفارز."

"لامجابهة يافتوتي."

في أثناء حديثهما على هذا النحو جلب المراقب الذي في الأسفل راعياً يتصبب منه العرق دماً. الراعي يرتجف:

"يا فتوتي! عصابة تشولاق تجابه مفرزة قرب بوهتشة. طُوقِت.

وضعها سيء. يبدو أن عدداً منهم قد أصيب..."

"يا حاج! اقض حاجة المراسل، ولنذهب. لنلحق بهم. سيكونون في وضع سيء. ما قولك؟"

"فتوتي أدرى."

"علينا أن نلحق بهم."

لعل السرعة أحد أهم جوانب قوة التشغرجوي وعصابته. إذا تضايقوا، فيصلوا في خمس عشرة دقيقة إلى المكان الذي يتطلب منهم الوصول إليه ساعة. لحقوا إلى حيث عصابة تشولاق المطوقة، ومازالت المواجهة مستمرة. بلغ التشغرجوي في الطريق أن أفراد العصابة كلهم قد أصيبوا، وأن عثمان الصغير صامد أمام مفرزة ضخمة العدد، ومستمر في مواجهتها.

حين اقترب، صرخ: "عثمان لحقت بك لا تستسلم."

كان الجناح الخلفي للمفرزة مكشوفاً. هاجمه فجأة. وخلال وقت قصير لم يبق أحد من المفرزة. أصيب أفرادها كلهم. قائد المفرزة ملازم يدعى مصطفى أفندي، نزل مع نفرين بقيا معه إلى الأسفل نحو الوادي من أجل أن ينقذ نفسه. كان قد أفلت. بقي التشغرجوي في الأعلى. ولكن عثمان الصغير فجأة انتصب أمامه.

"استسلم!"

استسلم مصطفى أفندي صاغراً. أخذهم عثمان الصغير إلى الفتوة. كان التشغرجوي عدواً لدوداً للدوريات، وغاضباً منها.

أمر الحاج:"اقتلوا هؤلاء." بعد ذلك، التفت إلى مصطفى أفندي،قال: "ولاه عديم الناموس. كيف أقدمت على قتل شهومي؟ هل

يوجد أمثالك؟ احك يا بن الكلب! احك يا من تربى في حضن عاهرة!"

أجاب مصطفى أفندي جواباً لم يكن متوقعاً: "أنت من تربى في حضن عاهرة."

لم يكن التشغرجوي يتوقع جواباً كهذا. دهش، وارتبك.

"من؟"

"أنت من تربى في حضن عاهرة يا تشغرجوي" ضاغطاً على كل كلمة مما يقوله.

"واخ يا قواد!"

"كنت أعتقد أنك رجل. نظرت إلى شهرتك، وأفعالك فاعتقدت أنك فتوة. وجدت أنك لست حتى مجرد شخص عادي. الرجل لا يهين الأسير الواقع بين يديه. إما أن يقتله أو يطلقه. هل فهمت؟ يا راضع الحليب الفاسد..."

كان التشغرجوي قد تنكب سلاحه، فأنزله إثر سماع هذه الكلمات...

"يا حاج! مصطفى أفندي على حق. إنه رجل شهم. لم أرَ رجلاً بهذه الشهامة في الدوريات. أنا أمنحه روحه. اسلخوا جلد قدميه. اسلخوه كي لا يأتي لملاحقتنا مرة أخرى."

مددوا مصطفى أفندي هناك. أخرجوا خناجرهم الحادة، وبدؤوا بسلخ جلد قدميه. لم تكن تصدر أنّة عن مصطفى أفندي. إنه لايصرخ أو يتوسل. إنه كالميت... غدا وجهه أصفر. الدم يتدفق من قدميه. تجمع الدم في حفرة حجرية.

تجمد التشغرجوي. هز رأسه.

قال: "دعوه. دعوا مصطفى أفندي." التفت بعد ذلك إلى الحاج: "أي رجال شهوم ومقدامين يوجدون في المدن! يلزمنا رجال من أمثال مصطفى أفندي هذا. لا مناص للعثماني، لا مناص.."

زالت عصابة تشولاق. ثمة ضرورة لواحدة مثلها. ولدى العثمانيين رجال أمثال مصطفى أفندي. لا بد من التيقظ لهم.

اشتعلت النار في الجبل. رؤوس أشجار الصنوبر منارة. ويدور خروف على الموقد. التشغرجوي متعب. إنه متعب من الفكرة.

"من يخطر ببالك يا حاج"

"لا أحد، أو..."

"أو ماذا يا حاج؟"

"الآن موجود محمد بوصلوأوغلو، وقد خرج من السجن للتو. إنه يجلس في القرية مع رجاله."

"بعد ذلك؟"

"ماذا يقول فتوتي؟"

"إنه رجل شهم. أتتوقع أنه سيقبل؟ هل يحترمنا؟"

"ننظر في الأمر إن شاء يا فتوتي."

"لننظر إذا كان الأمر على هذا النحو، فلننزل إلى السهل فوراً هذه الليلة. أرسل رجلين إلى بوصلوأوغلو"

كان بوصلوأوغلو فتوة قبل أن يدخل السجن. كان شاباً وشهماً. اضطر للاستسلام للدوريات بسبب شهامته فقط، لأنه لم يترك أصدقاءه الجرحى، ويهرب. نام ثلاث سنوات، وخرج للتو. قصته هي: أوقعتهم الدوريات في كمين. منذ اللحظة الأولى أصيب رجلان كانا بجواره.

حملهما بوصلوأوغلو، وعمل على إدارة المجابهة في آن واحد. بعد ذلك، وصل إلى حالة تضايق فيها. إذا ترك صديقيه يمكنه الهرب. قالا له: "اذهب، وانقذ رأسك، نحن كيفما كان فقد احترقنا. وهذا ما أثار مشاعر البوصلو. "الفتوة لا يترك أصدقاءه ويذهب في يوم عصيب. هذا لا يليق بالشهامة. كلنا معاً." واستسلم للدورية عندما انتهى رصاصه. بوصلوأوغلو رجل كهذا. إنه ماهر بالتصويب وشهم. التشغرجوي يعرف هذا كله. ولا بد أنه سيصعد إلى الجبل قريباً. الحصول عليه، وعلى العصابة مكسب كبير، وإلا فإنه سيكون منافساً. وهو منافس خطير.

قال الرجلان لبوصلوأوغلو: "أرسلنا إليك الفتوة. إنه يريدك. ينتظر في القمة."

لم يكن بوصلوأوغلو يتوقع دعوة كهذه. لم يكن التشغرجوي يحبه. ما السبب يا ترى؟ عدم ذهابه غير ممكن. فهذا معيب بحسب تقاليد الفتوة، وهو جبن.

قال الرجلان: "يريد الفتوة أن تأتي مع رجالك."

هذا يعني أنه ليس ثمة ما يخيف. لا يريده وحيداً. أرسلَ خبراً لرجاله. تحادثوا. قرروا الذهاب.

قال للرجلين: "اذهبا، وأبلغا الفتوة. إننا قادمون."

إرسال الرجلين في المقدمة، ولحاقهما يشير إلى أنهم يثقون بالتشغرجوي من جهة، ويتحدون من جهةأخرى.

قابل التشغرجوي بوصلوأوغلو بوجه بشوش، ومودة. جلسوا. وقع مكان بوصلوأوغلو على يسار التشغرجوي. وضع البندقية في حضنه، وفوهتها نحو التشغرجوي. انتبه التشغرجوي إلى هذا فوراً.

قال: "ما هذا يا بوصلوأوغلو الفتوة؟ أنا دعوتك إلى هنا على أنك صديق. لأن عملاً لدينا يمكن أن نعمله معاً. أنت وجهت فوهة بندقيتك نحوي فوراً. لم أكن أتوقع هذا منك يا بوصلوأوغلو الفتوة."

كان بوصلوأوغلو قد فعل هذا قصداً. فهو يعني: "إذا كنت أنت على ما أنت، فأنا أيضاً لي شأني." ويعني: "اعرف ما سيحصل إذا فعلت شيئاً."

"لا تؤاخذني يا فتوة. لم انتبه."

خيم جو بارد في الوسط، ولكن التشغرجوي لم يتغير. لم يتغير، ولكن شعوراً بالسوء دب في قلبه. أخذ التفكيرُ التشغرجوي. آه لو أنه لم يدعه. ماذا علينا أن نفعل الآن؟

"ما عليك. تحدث أمور كهذه. لدينا أعمال أكبر. لن نبحث في أمور كهذه. إنهم يظلمون الناس يا فتوة. لهذا السبب دعوتك. الأرناؤوط والأغوات والوجهاء يظلمون. والروم والعثمانيون يظلمون. أنا دعوتك لهذا السبب."

بينما كانا يتحدثان على هذا النحو بدأ يتقاطر القرويون. القرويون يشتكون. كل منهم جرّة هموم. ما الذي لم يشتكوا منه.

بعد أن ذهب القرويون، قال التشغرجوي:

"هذا يجعلني أقول لك: لنتحد! ما قولك؟"

ردّ بوصلوأوغلو وقد فاضت مشاعره: "لنتحد يا فتوة!"

"أنا أكبر منك. كن رجلي!"

"ممكن يا فتوة. ولكن لي شرط."

"قله."

"يمكنني متى شئت، وأينما شئت أن آخذ رجالي، وأنسحب."

"موافق يا فتوة."

قبّلَ بوصلو أوغلو يد التشغرجوي، وصار رجله.

نهضوا، وانطلقوا في الطريق. في ليلة واحدة قتلوا عدة آغوات أرناؤوط كان قد اشتكى منهم القرويون. تختلف الروايات حول هذه الحادثة، وتتقاطع. يقول البعض إن بوصلوأوغلو والتشغرجوي قتلا عشرين أرناؤوطياً وثلاثة شراكس صادفوهم في الطريق، أو وجدوهم في القرى متعرفين إليهم من لهجاتهم وأسمائهم.

"من أنت؟"

"راعي."

"احك، احك..."

"كان لدي عمل. كنت ذاهباً إلى أودمش. يوجد هناك قطيع..."

"هذا أرناؤوطي يا فتوتي."

"اقتلوه.."

وهكذا قتلوا أربعين بريئاً.

وصلوا إلى مزرعة. صاحب المزرعة عبد مطيع بين يدي التشغرجوي كأي صاحب مزرعة.

قال التشغرجوي: "يا آغا، قام الرجال بأعمال كبيرة في الطريق. يجب أن تقام لهم وليمة كبيرة. ويجب أن يُقدَم لهم عرق حتى لايستطيعون الشرب."

ردّ الآغا قائلاً: "على رأسي يا فتوة."

كان الوقت ليلاً، والجو مظلماً. فُتحت مائدة الشرب. الفتوات

يشربون بقدر ما يستطيعون، ويرقصون رقصات الفتوة. يُعزف على الطنبور، وتغنى الأغاني. التشغرجوي لا يشرب. استغل الفوضى لحظة، وخرج. كان الحاج في الخارج.

"يا حاج، قل للراعي ألا يشرب. سننام أنا وأنت وبوصلوأوغلو في غرفة واحدة. هل فهمت؟ لا أحد يطلق النار قبل أن أُطلق أنا."

"فهمت."

دخل بعد ذلك، وصلّى.

ثمل بوصلوأوغلو ورجاله وبقية الفتوات حتى غابوا عن وعيهم.

"دعونا ننم."

نهض بوصلوأوغلو متمايلاً، وذهب إلى الفراش. نام. والرجال أيضاً هكذا. ذهب التشغرجوي والحاج مصطفى ومحمد الراعي إلى الغرفة ذاتها. خلعوا ثيابهم، واضطجعوا.

لم يكن التشغرجوي نائماً. ثمة قلق كبير في قلبه. أيجب أن يُقتل بوصلو أوغلو؟ إنه رجل شهم ومقدام ووسيم ممشوق القدّ. ولكن هنالك قضية توجيه فوهة البندقية نحوه. سيقتله إن لم يمت، سيقتله بالتأكيد. يؤسف عليه. يستمع إلى نَفَسِهِ ونَفَسِ رجاله. كانوا قد ناموا. كل منهم يغط في ثبات عميق. نهض متردداً. الحاج والراعي متوفزان أيضاً. نهضا. أسند فوهة البندقية على رأس بوصلوأوغلو، وضغط على الزناد. وهكذا فعل الآخرون أيضاً.

كان الوقت قريب الصبح. دخّن التشغرجوي سيجارة وراء أخرى أمام جثة بوصلوأوغلو. ذرع الغرفة حتى الصباح. كانت عيناه مغرورقتين.

قال: "انظر إلى رقبة بوصلو أوغلو هذا... إنها كغصن... أيكسر شهم كهذا؟ ولكن لا مناص، كان سيقتلني."

جلس التشغرجوي- الفتوة التشغرجوي- المتحجر القلب عند رأس بوصلوأوغلو، وبكى. إنه فتوة يبكي أمام رجاله. بعد ذلك، غسل يديه ووجهه، وتوضأ، ووقف للصلاة. لم يقم صلاته كما يجب.

طلب صاحب المزرعة ذات لحظة.

قال: "يا حاج، اعط الآغا مئة ذهبية."

ارتبك الآغا.

"عليك أن تقيم جنازة بشيوخ وقراءة قرآن تليق بشأن بوصلوأوغلو وشهرته، وتعدُّ له قبراً بمئة ليرة."

بعد خروجهم من المزرعة، ساروا في الطريق مسافة طويلة، ولم يتحدث التشغرجوي فترة طويلة. كان في وضع الحداد. وجهه شاحب جداً. رفع رأسه ذات لحظة.

قال: "يا حاج، آه لو أنه هو الذي أطلق النار علي."

كان التشغرجوي يسلب الأغنياء، ويحرق المعامل، ويقتل من يأتي أمامه. غدت الحكومة كأنها ممحوة من هناك. كان صاحب الصراع أو المجابهة، أو المظلوم، أو الفقير، أو خاطف الفتاة لايذهب إلى الحكومة، بل إلى التشغرجوي. كان التشغرجوي المحكمة، والمالية والطبيب والدواء.

كان والي إزمير في تلك الأثناء كامل باشا. وكامل باشا هذا رجل دولة يعرف كيف يعمل. يرى حال التشغرجوي هذه، وزوال الحكومة من هناك فيحزن. يرسل أفضل رجاله لمطاردة التشغرجوي. وهؤلاء إما أنهم لا يواجهون التشغرجوي أبداً، أو إذا تواجهوا تكون هذه المواجهة بإرادة التشغرجوي. وعندما يحضّر التشغرجوي للمواجهة فيحضّرها بحسب وضعه، ويتغلب دائماً على قوات الحكومة وينهكها.

تدور مختلف الأحابيل. وتنتشر ألف رواية ورواية، وألف ادعاء وادعاء. يقال إن سعيد باشا ابن كامل باشا يهتمم بالتشغرجوي، ويأخذ نقوداً منه. وتطرح كيفية تعارف التشغرجوي على سعيد باشا واتحادهما. في تلك الأثناء كان في إزمير أسرة إنكليزية تدعى "فيتول". وكانت هذه الأسرة الإنكليزية هي أول من أدخل رأس مالٍ أجنبيٍ إلى تركيا. وإلى

جانب الأعمال المختلفة التي تقوم بها تلك الأسرة كانت تعمل بتجارة بصل الزنبق. كانت تجمع البصل من الجبال. لهذا السبب كان رجال أسرة فيتول يتجولون في الجبال. وبحسب البعض فإن هذا ما أدى إلى إقامة علاقة بين آل فيتول والتشغرجوي.

ومن حقائق تلك الفترة أيضاً شهرة التشغرجوي في أوربا، وخاصة في لندن. كانت جرائد لندن تروي مغامرات التشغرجوي، وتكتب بأن مجلس العموم يهتم به. وبهذا الجانب تعد هذه القضية غير عادية بالنسبة لأواخر عهد العثمانيين. في إزمير التشغرجوي رجل آل فيتول، بعد ذلك تهتم جرائد لندن إلى هذا الحد بفراري في تركيا!

هذا التوضيح هو أمر من المهم التوقف عنده. يمكن لمؤرخينا أن يربطوا هذا بالسياسة الإنكليزية التوسعية حينئذ، وتقسيم الإمبراطورية العثمانية. والتشغرجوي إما أنه فراري كما نعرفه أو أنه أداة حصل على دعم الإنكليز. ويمكن أن يكون الفرارية في الأناضول، والفتوة في منطقة إيجة موضع بحث وشرح يجذب الاهتمام كثيراً. الفرارية في الأناضول كلهم رجالاً للناس كانوا أو للأشراف أو الحكومة فلن يكونوا كذلك مئة بالمئة. يمكن أن تكون ثمة مؤامرات خارجية على هؤلاء.

مهما يكن فقد تضايق كامل باشا. ماذا كان عليه أن يفعل؟ لا يمكن أن يتغلب عليه بالقوة. عليه أن يحصل على عفو إن قبل. هذه الفكرة فكرة جيدة. تقدم بطلبات إلى هنا وهناك، وتحدث مع البعض، وراجع البعض، وأعطى قراره. سيُعفى عن التشغرجوي. ولكن التشغرجوي هل يقبل بهذا؟ لا بد أن يعرف هذا.

كان يصل إلى مسامع التشغرجوي هذا كله، وبحث كامل باشا

إمكانية العفو عنه يوماً بيوم. يجب ألا يكون التشغرجوي مطارداً منذ البداية. أُخرج إلى الجبل قسراً. دفعوه إلى هذا الطريق بالقوة. فرح يوم سمع بخبر العفو... نادى الحاج.

"كم لدينا من النقود يا حاج؟"

"أربعة آلاف يا فتوتي."

"إنها كثيرة، أليس كذلك يا حاج؟"

كان الحاج بخيلاً. لم يكن موافقاً على إطلاق رصاصة من دون هدف، أو توزيع نقود على القرويين.

قال وشفتاه ترتجفان: "كثيرة يا فتوتي."

"اذهب يا حاج، ووزع ألفين على القرويين الفقراء هناك في الأسفل."

"سننزل إلى السهل قريباً. أممكن هذا من دون خمسة قروش؟ أممكن هذا يا فتوتي؟"

قال التشغرجوي غاضباً: "ممكن! أنت وزعها، وعد. نعمل مداهمة أو اثنتين، ونجمع النقود!.."

لفرحه كان يهيم في الجبال. كم هو جيد النزول إلى السهل بعد أن صار محمد التشغرجوي فتوة، والعيش براحة. ليعش براحة! وهل هذا ممكن؟ إذا قبل كامل باشا بالشروط فممكن. كم سيكون هذا جميلاً.

وجه التشغرجوي يطفح بالفرح رغم عدم إظهاره أية مشاعر. إنه واضح كأنه ملموس. لم يكن رجاله مؤيدين للنزول إلى السهل. من الذي سيحترمهم في السهل؟ وكيف سيعيشون؟ سيكونون وراء المحاريث مرة أخرى، وضرائب مرة أخرى، وبلية أخرى، والحكومة من جديد.. هذا

العمل غير سليم. ولكن الفتوة إذا أراد... لا مناص. والجبل من دون فتوة يغدو زنزانة لهم. ومن لم يطع الفتوة يطلق عليه النار.

أرسل المستر فيتول بوساطة أحد رجاله خبراً للتشغرجوي من أجل أن ينزل إلى السهل. وقال التشغرجوي انه سيلتقي هيئة لمناقشة شروط النزول. وعينت الحكومة المستر فيتول، وقائمقام أودمش، وعارف آغا أحد الوجهاء لمناقشة التشغرجوي بشروط النزول.

على رأس شروط التشغرجوي تأتي كفالة المستر فيتول له إزاء الدولة. قَبِلَ المستر فيتول الكفالة. وكان ثمة شرطان آخران في وكالة المستر فيتول. وأعلم التشغرجوي بهما أيضاً. هذان الشرطان يستحقان أخذهما بعين الاعتبار. سيعفى تماماً عن التشغرجوي وأعوانه، ولن يبقى عليه أي جرم لأي سبب. وسيحافظ التشغرجوي ورجاله على أسلحتهم. وتسكن العصابة في قرية أقتشةأوفا التابعة لقضاء تشينة، ولن يأتي إلى تلك القرية أو جوارها أي منسوب حكومي من درك أو جباة. التشغرجوي سيجمع الضرائب ويسلمها للحكومة. سيكون الظهور في السهل في بيرغي. لا أحد يصدر العفو غير السلطان، لن يقبل أي شكل آخر من أشكال العفو.

تحدث التشغرجوي مطولاً للهيئة القادمة. وقدم شروطه. وتحدث كامل باشا مع اسطنبول. أصدر السلطان العفو عن التشغرجوي. قبلت الشروط كلها. فوق هذا تم تعيينه قائداً ريفياً. وسيعطى معاشاً شهرياً خمس ذهبيات مقابل هذه الوظيفة. كما سيعطى لكل من معاونيه ثلاث ذهبيات في الشهر.

صباح أحد الأيام جاء التشغرجوي مع أعوانه إلى بيرغي. وضع

الفتوة رجال عصابته على الطرقات وحول دار الحكومة. وصعد إلى دار الحكومة. وهناك قرأ حسن باشا قرار العفو. التشغرجوي مسرور من هذا. نزل، وأخذ عصاباته، وخرج من بيرغي.

كان منتشياً. التشغرجوي على حصانه في المقدمة، والعصابة كلها تردد أغنيات الفتوات. يحثون خطى خيولهم. بقوا في أودمش ليلة، وانطلقوا في الطريق. كانوا متجهين نحو يني بازار. التشغرجوي يعرف يني بازارِ من طفولته. ولم يذهب إليها مرة أخرى. لماذا كان ذاهباً إلى يني بازارِ؟ سيذهب لمجرد الظهور فيها... كان انفعاله كبيراً إلى حد أنه يريد أن يتجول في مدن منطقة إيجة كلها لو أفلت الحذر. كانوا سيعبرون إزمير، آيدن، برغاما، مانيسا... على ظهور خيولهم وفي أحضانهم بنادقهم المطعمة بالفضة والمزخرفة الأعقاب... وكان الناس سيتدفقون في الطرقات لأن التشغرجوي قادم. وستغصُّ الشوارع بالناس كأن الصدر الأعظم قادم. ولكن الحكومة يمكن ألا تلتزم بعهدها رغم العفو... كان هنالك في إزمير وآيدن والمدن الأخرى فتوات كثيرون لم يستطيعوا التغلب عليه، وغدر بهم، وماتوا..

قوبل بشكل لم يرَ له مثيل في بيرغة وأودمش. نزل الناس جميعاً أطفالاً وأولاداً، رجالاً ونساءً إلى الشوارع من أجل رؤيته. جاء قرويون من قرى بعيدة، ونزل من الجبال رحّل من أجل أن يروه. كانت يني بازارِ ملاذ الشهوم. كما كانت ملعب خيله أيضاً. أكثر العرائس اللواتي جهزهن من قرى يني بازارِ، وأكثر الفقراء الذين أشبعهم من يني بازارِ. أفضل استقبال له سيكون في يني بازارِ. ستغدو يني بازارِ عرساً وعيداً، لأن الفتوات سيأتون.

كانوا يقتربون من يني بازارِ، ولم يكن هنالك من مستقبل أو صوت. التشغرجوي مندهش. ومقابل هذا ثمة ارتباك وشبه قيامة في يني بازارِ. أحد الرعاة الذين رأوا التشغرجوي قادماً إلى يني بازارِ عبر من الجبال وشقوقها، وجاء إلى يني بازارِ:

"رأيت التشغرجوي في الطريق. الجميع يركبون الخيل. كان قادماً إلى هنا. لا بد أن نيته سيئة"

ماذا يعني أن نيته سيئة؟ بالطبع إذا جاء فتوة كالتشغرجوي في وضح النهار داخلاً بلدة وهو يهز بذراعيه فإن نيته سيئة. الناس المرتبكون اجتمعوا بداية في الساحة أمام دائرة الدرك. بعد ذلك لم يجدوا أملاً لدى الدرك فتفرقوا. كل منهم دخل بيته، وأغلق مزلاج بابه. دخل الدرك إلى المخفر، وملأ الموظفون إحدى الغرف، وأقفلوا عليهم الباب. وإذ بحقيقة الأمر أن إزمير لم تُعْلِمْ يني بازارِ بأن التشغرجوي نزل إلى السهل.

دخل التشغرجوي إلى يني بازارِ بعيد الظهر. تزداد دهشته مع اقترابه من البلدة. ليس ثمة تكّة.

"ما هذا يا حاج؟ ماذا حدث ليني بازارِ؟ هل هاجر أهلها؟"

"لا أعرف يا فتوتي. دهشت."

"ماذا حدث برأيك؟"

"لا يوجد أحد يا فتوتي. كأن البلدة كلها ماتت..."

دخلوا إلى البلدة. وصلوا إلى وسطها، وانتصبوا هكذا في الساحة كأنهم وسط مدينة خاوية. ثمة كلب أو اثنان يندسان من طرف الشارع إلى طرفه الآخر رواحاً ومجيئاً يشمشمان الأرض. ثمة قط قفز

على جدار الحوش داخلاً إلى فسحة الدار.

"ماذا حدث؟"

"والله لم يدرك عقلي هذا يا فتوة؟"

لنذهب إلى دائرة الدرك."

ذهبوا. نزل محمد الراعي عن حصانه، وقرع باب المخفر. لانبس. انتظروا.

"لا يوجد أحد يا فتوة."

وصلوا إلى دار الحكومة. هناك أيضاً لا يوجد أحد. توتر التشغرجوي، وحنق قليلاً. لم يرَ أو يسمع شيئاً كهذا. البلدة كلها زالت.

دخل الفتوة في المقدمة، وعصابته خلفه زقاقاً أو اثنين، وخرج.

"قل شيئاً يا حاج."

"ماذا أقول يا فتوة."

أمضوا فترة على الخيول والسكاكين لا تفتح أفواههم. بعد ذلك رفع التشغرجوي رأسه: "أنذهب يا حاج؟"

"لنذهب، ولكن ماذا يعني هذا يا فتوتي؟"

وبينما كانوا يتحدثون في أمر الذهاب ظهر في الطرف الآخر أحد مآويه، وهو مصطفيعلي. أشرق وجه الفتوة المظلم. صرخ: "تعال يا مصطفى علي، تعال. ما هذه الحال؟ ماذا حدث ليني بازارِ؟"

جاء مصطفى علي، ووقف أمام الفتوة. وجهه شديد الصفرة. لم يتكلم. لم يستطع قول حتى أهلاً وسهلاً.

"هل يوجد أمر يا مصطفى؟ هل وقعت مصيبة؟"

"لا يا فتوتي."

"ما هذا إذن؟"

"أنت..."

"احك يا ملعون الدين.."

"أنت.. أنت.."

"احك، احك ولاه.."

"لأنك قادم.. هربوا واختبأوا."

"أين؟"

"أكثرهم في بيوتهم. وبعضهم هرب إلى السهل."

"وأنت أين كنت؟"

"نحن أيضاً، والموظفون دخلنا إلى إحدى غرف دار الحكومة."

"والدرك؟"

"هم أيضاً دخلوا إلى المخفر، وأغلقوا المزلاج من الداخل."

"سرّ هذا الفتوة."

"أرأيت ما فعلناه يا حاج؟"

كان الحاج يضحك باستمرار.

"اذهب يا مصطفى وقل للدرك أن يخرجوا. نحن جئنا ضيوفاً. أهكذا يقابل الضيوف عندكم؟"

ذهب مصطفى علي وشرح الأمر للدرك. في هذه الأثناء جاء جواب سؤالهم عن وضع التشغرجوي من إزميير. وفجأة تدفق الموظفون والدرك والناس إلى الشوارع. وغدا فرح كبير بعد خوف كبير. وخلال ساعة امتلأت يني بازارِ بالناس. غصت شوارع البلدة بالناس، وطفحت.

بعد أن بقي التشغرجوي ليلة في يني بازارِ ذهب إلى القرية.

-٩-

ذاعت شهرة التشغرجوي من جهة، وثأره لأبيه من جهة أخرى. بعد ذلك أنقذ نفسه من الفتوة التي دُفِعَ إليها بالقوة رغم عدم محبته لها. وكيف هذا؟ بأن يكون قائداً ريفياً من قادة السلطان! ويبقى أعوانه بجواره يفعل ما يشاء.

التشغرجوي رجل يعرف كيف يفكر. فلم يعتمد على التفاخر بإمكانياته وقوته ليمس شعرة شخص واحد. كان يعيش بحاله كأي مواطن منذ نزل إلى السهل. يتدرب على التصويب دائماً ليس من أجل الفضول، بل للحاجة. فقد طور تصويبه إلى حد أنه يمكن أن يصيب ما يمكن لعينه أن تراه مهما كان صغيراً. لم يكن يرغب بالصعود مرة أخرى إلى الجبل. ولكن ماذا لو حل يوم، واضطر للصعود؟.. هذا ليس أمراً مستحيل الحدوث. ومن المعروف أن فتوة فاقداً مهارته يمكن اصطياده كالحجل إذا صعد إلى الجبل. كان يطور مهارته بالتصويب مهما كلفه الأمر رغم قراره بعدم الصعود إلى الجبل مرة أخرى. يمكن أن يحدث ما هو غير متوقع...

اشترى الحقل الذي أمام بيته. وبدأ بإعداد بستان. تزوج. زوجته إراظ هي الخاصة بين النساء.

كانوا يقولون في تلك النواحي عن إراظ: "إمرة كالفتوات. إنها زوجة التشغرجوي بالضبط." وفي الحقيقة أنها كانت كالرجال. ترتجف عند عملها عملاً لفتوتها. أخذت على عاتقها عمل الكرم والبستان والبيت كله.

الناس لا يدعون الفتوة الذي لا يريد أن يتدخل بأي شيء براحته. المشتكون يتدفقون إلى بابه كل يوم دون استثناء. الآغا الفلاني أخذ حقلي، فلان لا يزوجني ابنته لأنني فقير، الدرك فعلوا معي كذا وكذا... أنا رجل فقير يا فتوة، فلان قتل ابني الوحيد دون أي سبب.

لم يتدخل بهذه الأمور فترة. تغلب على نفسه. بعد ذلك، نظروا وإذ بالتشغرجوية تنتهي تدريجياً...

"ألست فتوة؟ ألست لنا؟ الظلم يا فتوة، الظلم. عندما يغدو الفتوة فتوةً فيكون فتوة في الجبل وفي السهل أيضاً! أنت فتوة..."

"أنا امرأة أرملة يا فتوة. ابني ذهب إلى اليمن ولم يعد. أخذ آغا القرية خليل الأقرع حقلنا من يدنا. بقينا مع كنّتي وأحفادي جياعاً وعراة في الوسط. ذهبتُ إلى الحكومة يا فتوة. لدى خليل الأقرع نقود، يدفع الرشوة. وهل يمكن مواجهته؟ تجرجرت على أبواب الحكومة. قبّلت أيديهم وأقدامهم يا فتوة. قلت لهم خذوا حقل أيتامي وردوه لي. إنه لأيتام اليمن. قلت لهم ألستم الحكومة؟ أخذتم أباهم، ووضعتموه في صحراء اليمن، وجئتم. أقول هذا منذ سنوات. أثّر هذا بالحجر يا فتوتي، ولم يؤثر في الحكومة. إنها حفنة تراب، وكسرة خبز... نحن محتاجون يا فتوتي. قلت: لا أحد لي غيرك، أنت يافتوتي! إذا لم تكن دواء لهمي ماذا أفعل أنا يا فتوتي؟ إذا لم تكن هذا أنت، سأربط حجراً برقبتي

وأرمي نفسي في الماء. أموت وأخلص يافتوتي بعد ذاك الذي بقي في صحراء اليمن، وبعد أن ذهب حقلي، وبعد أن جاع أحفادي؟ أقول لك هذا يا فتوتي، لماذا صرت فتوة؟ إذا لم تحصّل حق الفقير..الفتوة يعني حق الفقير. هكذا رأينا الفتوة، وهكذا نعرفه. سأجلب غداً أيتام اليمن يا فتوة، وألقيهم على بابك. على الفتوة أن يعرف الفتوة حق المعرفة، وأن تعرف الحكومة الحكم. وهل الفتوة هي سحب البندقية، وقتل الرجال في الجبل؟ خذ حقلنا من خليل الأقرع يا فتوة، أو جدْ لنا وسيلة نعيش منها . إما أن تكون فتوة وتقوم بواجبات الفتوة، أو ضع غطاء رأس إراظ على رأسك.. أفهمت يا فتوة؟"

يسترد التشغرجوي حقل المرأة من خليل الأقرع.

مع الزمن يحل التشغرجوي محل محاكم العثمانيين. غرق بالعمل. الحكومة والقصر يتوجسان من هذا. وهذا ما يقال في الوسط، ويقال في القصر.. زادها هذا التشغرجوي...يجب أن توجد طريقة لإنهاء أمره.

لم يرق تصرف التشغرجوي هذا للأغوات والوجهاء المتضررين منه. وهل تغدو حكومة داخل حكومة؟ هذا غير ممكن، ولكن ما الذي ستفعله الحكومة؟ سيبقى الأمر هكذا حتى تجد طريقة. كيفما يكون فإنها ستجد طريقة يوماً ، وستزول محكمة التشغرجوي. لا صبر لدى الوجهاء المتضررين. السكين تحزُّ على اللحم. ولهؤلاء أيضاً حلولهم، وهي حلول معهودة.

من يوجد من الفتوات القدامى؟ أي فتوة لا يطيق التشغرجوي، ويعاديه؟ من يمكن أن يكون عدواً له؟ من الذي لا يخاف منه؟ ألا يوجد رجال؟

حرضوا حسين التشاملجوي. جمع التشاملجوي عدة فرارية

معادين للتشغرجوي، وصعد إلى الجبل. وأول عمل يقوم به هو قتل أخت التشغرجوي وابنها. يرسل خبراً للتشغرجوي: "نحن في المكان الفلاني، إذا كان يوجد قليل من رجولة في قلبه، فليأت إلينا."

ضرب التشاملجوي عصفورين بحجر واحد. الأول أنه أزال شخصين من دم التشغرجوي، والثاني دفع التشغرجوي للحاق به. إحدى أهم تقاليد الفتوة، ولعله التقليد الأول، هو الهروب، وإجبار العدو على المطاردة، ونصب كمين للمطارد، وإزالته.

"ما قولك بهذا الأمر يا حاج؟"

"ماذا يُقال يا فتوتي؟ لن نذهب وراء التشاملجوي. إذا ذهبنا نكون قد فعلنا ما يريد. وهكذا نقع في فخه بأرجلنا. هذا أمر واضح."

"ولكن أختي؟ أختي المقتولة؟"

"نحن نفعل شيئاً يجعله يطاردنا. نعرف أنه لا يمكن الذهاب خلف فراري. لا يمكن الذهاب مهما كان السبب. وخاصة أنك تعرف أي كلب ابن كلب هذا التشاملجوي. سيزيلنا من هنا، ويغدو الفتوة الوحيد في المنطقة. لا يمكننا السقوط في هذا. ليفعل ما يريد."

كان التشغرجوي متردداً، لايعرف ما سيفعله. سيقولون: انظروا إلى هذا التشغرجوي السافل! التشاملجوي قتل أخته وابنها، وأبلغه بمكانه، وانتظره، ولم يذهب إليه... وإذا لاحقه فهذا يعني أنه خرق التقليد، وهو التقليد الذي ارتبط به ارتباطاً وثيقاً. ولعله يصاب بطلق ناري. لم يدخل النوم إلى عينيه في تلك الليلة.

جاء مراسل آخر صباحاً: "أرسلني حسين التشاملجوي يا فتوة. وقال لي إنه ينتظر منذ يومين. يجب ألا يختبىء هكذا. إذا كان فتوة،

فليقف موقف الفتوة. عليه ألا يهين الفتوة."

طار صواب التشغرجوي من هذا الخبر. كان كالشمل من غضبه. لا يعرف ما فعله، وما قاله. نادى الحاج مصطفى: "ليجهز الرجال أنفسهم يا حاج. الانتظار أكثر، ولو ساعة، يغدو سفالة."

"ولكن يا فتوتي..."

"لا أريد كلاماً زائداً يا حاج. أرسلوا خبراً للدوريات أيضاً. لتأت معنا أيضاً."

"أنت أعرف يا فتوة..."

هذه هي المرة الأولى... إنها المرة الأولى التي يقوم فيها التشغرجوي بعملٍ مدفوعاً بالعاطفة. إنها المرة الأولى التي تتغلب فيها عاطفته على عقله. ثمة شعور بالانسحاق في الداخل. ثمة خوف. إنه ذاهب مباشرة إلى الموت، وهذا ما قبله...

جهز الرجال أنفسهم. ثمة مفرزة في تلك المنطقة في وضع المطاردة. أتت أيضاً. انطلقوا في الطريق ذات ليلة. أخذ التشغرجوي كميناً بعين الاعتبار. دفع الدورية إلى الأمام كي لا يقع في الكمين فجأة. إنه ورجاله خلفها وبحذائها بالضبط. ولكن التشاملجوي لم ينصب كميناً. كان ينتظر خصمه بين الصخور في سفح شقٍّ جبلي. إذا دخل التشغرجوي إلى الشق، فهذا يعني أنه وقع في راحة يد التشاملجوي، ولن يخرج من هناك. شعر التشغرجوي بهذا. دفع بالمفرزة عبر الشق أولاً. انتظر. في تلك الأثناء كان أحد الأغوات صديق التشغرجوي، وعدو التشاملجوي قد أرسل ثلاثين متطوعاً انضموا إلى التشغرجوي. بدأ الاشتباك.

المفرزة من الأسفل، والتشغرجوي من جنب. انحصر التشاملجوي قليلاً. لم يكن التشاملجوي يطلق النار على المفرزة أو يقتل أحداً من أفرادها. عندما انحصر قليلاً بدأ يطلق قليلاً من الرصاص لتمرير الوقت. اقتربت إحدى العصابتين من الأخرى كثيراً. كلاهما متمترستان. سيقع ما يقع لمن يظهر منه ولو مقدار إظفر. كلٌ منهما يستفز الآخر، ويشتم بأقذع الشتائم من أجل استهداف الآخر.

"كنت أعتقد أن التشغرجوي رجلاً. جاء دافعاً أمامه مفرزة. لو أنك جلبت معك امرأتك أيضاً."

"التشاملجوي ابن القحبة والقواد صار فتوة أيضاً. صار رجلاً! اظهر منك ولو مقدار إظفر يا فرخ القواد. ها أنت تحتمي بالصخور. إظهر لنرى."

ينتصر صاحب الأعصاب الأقوى. إذا غضب أحد، وانكشف ولو قليلاً، سيصاب بالرصاصة.

في الغداة لحقت بهم دورية كبيرة. حوصر التشاملجوي من الخلف أيضاً. لم يكن عنده أمل. الدائرة تضيق والشتائم لا تتوقف.

في هذه الأثناء لم يحتمل رجل التشغرجوي الشاب عثمان الصغير الشتائم، فنهض، وبدأ يطلق على التشاملجوي. إنه يصيب العصفور في عينه، فهل يفوته؟ ويقلب عثمانَ الصغير برصاصة.

يقول الحاج: "ألم أقل هذا يا فتوة؟"

كان عثمان الصغير بؤبؤ عين الفتوة، وأكثر رجاله شهامة. الفتوة مجروح. ارتبطت يداه ورجلاه إزاء هذا الموت، وخمد وجهه. لم يستطع مهاجمة التشاملجوي إلى هذا الحد. وعندما حلَّ الليل، انسحب

التشاملجوي ذاهباً.

المراسل القادم صباحاً: "أيها الفتوة التشغرجوي! التشاملجوي ينتظرك في المكان الفلاني. يقول إذا كان يحتمل الخوف قليلاً، فليأتِ. ولكن هذه المرّة من دون مفرزة... وحده.. لنتحاسب."

يقول الحاج مصطفى: "غير ممكن يا فتوة. أنت لست وحيداً بهذا الأمر. يوجد رجال."

الفتوة صامت.

يقول: "لنعد يا حاج. لا مناص. أنا أخطأت. وهذا كلفنا عثمان الصغير."

-١٠-

امتلأت الجبال بالفرارية بعد نزول التشغرجوي من الجبل. هنالك ثلاثون أو أربعون عصابة، وحوالي مئة أو مئة وخمسين فرارياً. ولكن التشغرجوي أكثرهم بلية. وهذه العصابات تعادي إحداها الأخرى دائماً. التشاملجوي هو رجل صادق بيك ابن الحاج علي باشا. والتشغرجوي رجل سعيد باشا ابن كامل باشا، وفيتول. وبسبب صراع المصالح مع الوجهاء الآخرين، فإن أبناء الحاج علي باشا أعداء كامل باشا، وبالتالي التشغرجوي.

لا يمكن لتشغرجوي السهل أن ينظّف تشاملجوي الجبل طالما الأمر هكذا. يجب إنزال التشاملجوي إلى السهل. وهذا ما يؤمنونه من القصر. سيعينون التشاملجوي قائداً ريفياً كالتشغرجوي. وسيُستقبل بصخب في دار الحكومة في آيدن.

التشغرجوي يعلم هذا يوماً بيوم. دب التململ في قلبه. تشخص أمامه الجبال التي يخاف منها ولا يحبها. لا مناص.

ينادي الحاج: "يا حاج!"

"أمرك يا فتوتي."

"لاح الطريق أمامنا يا حاج."

الحاج مسرور. فرح الرجال المسلحون الجالسون والسائمين أيضاً. سيقتلون، وينهبون البيوت من جديد. سيخيفون الأغوات والوجهاء والأغنياء من جديد. وسيعاندون الأغوات والوجهاء والأغنياء، ويتحولون إلى سيوف مسلطة على رؤوسهم من جديد، بعد أن كانوا عبيداً لهم.

"يا حاج!"

"أمرك يا فتوتي."

"غداً سينزل التشاملجوي إلى السهل في دار حكومة آيدن. بعد ذلك سيذهب إلى قريته. سننصب له كمينا في الطريق. لا توجد طريقة أخرى. سيسقط في كميننا... سننظفه. وليفرح الحاج علي باشا."

ضحك الحاج مصطفى.

قال: "ليفرح يا فتوتي. ونرسل له رأس التشاملجوي هديةً."

اصطفوا في الطريق. يوم الكمين، كمنوا في المكان المقرر: "سيكون هذا العمل هو الأفضل يا حاج مصطفى. السافل التشاملجوي..."

منذ سماع محمد الراعي نبأ الصعود إلى الجبل تناول نايه، وبدأ يعزف دائماً. يردد الأغاني. كان في نوبة حمى الفرح. هذا الرجل الضخم الشبيه بشجرة ضخمة ذات أغصان وفروع غدا كطفل في السابعة من عمره. امتلأ بالفرح، وفاض. إنه لا يتكلم، ولكن لسان حاله يبوح بالكلام.

الفتوة: "دعوا الراعي يطلق على التشاملجوي. لن يطلق النار على التشاملجوي أحدٌ غير الراعي."

تقطب وجه الحاج.

قال: "غير ممكن يا فتوتي. شيء كهذا غير ممكن. علينا أن نطلق معاً على التشاملجوي."

غضب الفتوة: "سيحدث ما أقول يا حاج."

"فتوتي أعرف."

تململ الراعي في مكمنه. إنه كطفل لم يستطع أن يبقى في مكانه. يلعب بعقب بندقيته دون توقف.

ظهر حسين التشاملجوي بعيداً، هو في المقدمة وعصابته خلفه. الخيول تثير الغبار. حبس الجميع أنفاسهم بانتظار الراعي. ليسقط التشاملجوي في الكمين تماماً، وليضغط الراعي على الزناد. سيقع التشاملجوي كأجاصة.

كان التشاملجوي قادماً وهو يضحك. لم يستطع الراعي الاحتمال. العين على الشعيبة والشعيرة. أفرغها. كان الراعي واثقاً من نفسه. ولكن حدث ما حدث. وبدل أن يسقط التشاملجوي عندما فرّ حصانه، رمى بنفسه كالصاعقة نحو الدغل على جانب الطريق. كان يشتم باستمرار، ويطلق النار على الكامنين.

صرخ الحاج: "لتعم عيناك يا راعي. لماذا تسرعت هكذا؟"

قتل التشغرجوي والآخرون ثلاثةً من أصحاب التشاملجوي. بدأ اشتباك جديد. الراعي يذوب نفسه غضباً. يقتله عدم استطاعته قتل التشاملجوي من الطلقة الأولى بعد أن تُرك له. لم يستطع الاحتمال. خرج من مكمنه وتقدم مسرعاً، وقفز نحو التشاملجوي. نسي كل شيء. يريد الوصول إلى التشاملجوي، والإمساك به، والانهيار فوقه، وخنقه. زاغت عيناه.

"لا تذهب يا راعي! تمدد يا راعي!"

انهار الراعي كشجرة دلب ذات أغصان وفروع أثناء ركضه.

قال: "واخ يا أمي، واخ يا أمي!"

استمر الاشتباك مدة طويلة. مات أفراد عصابة التشاملجوي، وأزيل الجرحى عن الوجود. ولكن المطلوب لم يتحقق. استفاد التشاملجوي من ظلام الليل، وهرب، وأنقذ.

صار هذا العمل وموت الراعي حجراً على قلب التشغرجوي. بعد هذه الحادثة، صعد التشغرجوي إلى الجبل من جديد رغم عدم رغبته بهذا. غدا التشغرجوي لا يطاق في صعوده الثاني هذا إلى الجبل. الوجهاء والأغوات يبكون دماً تحت يده. في هذه الأثناء أرسلت الحكومة سعيد باشا قرة لإنزال عقاب به ليغدو عبرة.

كان سعيد باشا قرة أحد المعتبرين أحداق عيون الجيش. وهو أكثر العسكريين ثقة من قبل القصر. نجح في كل عمل، وأي مهمة. قام بأعمال جليلة في ألبانيا. بعد وصول سعيد باشا قرة إلى إزمير، اعتبر القصر التشغرجوي بحكم غير الموجود. وسعيد باشا قرة كان واثقاً من نفسه. والثقة الكبرى هي التي كانت تمنحها الحكومة لسعيد باشا قرة. جاء سعيد باشا من سالونيك إلى إزمير بفرقة كاملة التجهيزات، وبحسب تعابير اليوم جاء بلواء كامل المعدات. غير هذا، فقد وضعت سرية إزمير للمطاردة بإمرته. لواء وسرية مطاردة وعدد من المفارز... غير هذا فهناك الفرارية المعادون للتشغرجوي... وعندما يجتمع هؤلاء جميعاً يغدون كثيرين بحجم جيش. تحولت الأرض والسماء إلى جنود، أي مُطاردين. وعلى الرغم من كل هذا لم يكن التشغرجوي واقفاً من

دون عـمل. يقـتل عـشرة رجـال هنا، ويداهم خمسـة بيـوت هناك، وفي الناحيـة الأخرى يأخذ الأغنيـاء إلى الجبل. سعيـد باشا الواثق بنفسه يثور غضباً كلما سمع هذه الأحداث التي يقوم بها التشغرجوي، ويتململ غير قـادر على الوقـوف مكانه، ويفـور ويغلي، ويصك بأسنانه. يصـرخ بكل من يراه أمامه.

كان يقول: "أما سمع هذا اللعين بمجيئي؟ ما هذه الجرأة؟ أم أنه لايعرف من أكون؟ أيمكن ألا يعرف؟ من غيـر الممكن ألا يعرف! فراري مثل التشغرجوي لا يعرفني! لا إمكانيـة لهذا. ولا يمكن أن تسمى هذه جرأة. هذا الرجل مجنون بكل معنى الكلمة. إنه مجنون تماماً."

والباشا ليس فطرياً. إنه صاحب تجربة، ويضايق التشـغرجوي. ويطارده. ولكنه ليس أي شخص، إنه التشغرجوي. وهل يمكن وضعه في راحة اليـد؟ يرتكب عـملاً ما اليـوم. يعلم بهذا سعيد باشا، فيـضغط بقواته كلها هناك. يطوق المكان الذي قـام التشغرجوي فيه بعمل ما من الجهات الأربع. تحوّل التشغرجوي إلى طائر، وطار. وينظر الباشا، فيجد أن التـشغرجـوي قد قام بعـمل ما على مسافـة يومين. فرقـة ضخـمة، وسعيد باشا ذو الصيت والشهرة يلعبهم على أصابعه باستمرار. وسعيد باشا لا ييئس. لا نوم أو تراجع، وملاحقة دائمة... سئم التشغرجوي وملّ من مطاردة سعيد باشا المستمرة غير المنتهية. سعيد باشا هذا أكثر مما قـالوا عنه. لديه مـا يمتـدحونه به ويجعله بؤبؤ عين القـصـر. يكتـشف تدريجياً أحابيل التشغرجوي، ويجد في أثره، وكل يوم يقترب منه أكثر. إنه عنيد. بدأ التشغرجوي يخاف.

"لا خــلاص من يد هذا الرجل. وفق هذا المســار لا بد أن يطلق

النار علي، ويصيبني يوماً ما. عليّ أن أجد حلاً لهذا الأمر قبل أن يبتلعني. أو أنني يجب أن أنزل إلى السهل."

يبحث عن سبل النزول إلى السهل، ولكن لا أمل. سعيد باشا خلفه لا يمنحه الثقة. وهو خلفه... في أحد الأيام، وبعد ملاحقات طويلة ومتعبة، يتلقى سعيد باشا خبراً بأن التشغرجوي في جبل التوءمين. جبل التوءمين صخري، وعمودي المنحدرات. ولكن جنوداً كثيرين لدى الباشا. يمكنه محاصرة حتى جبل ضخم. وهناك يمكن أن يطبق الحصار على التشغرجوي. يسحب جنوده إلى جبل التوءمين. وكان التشغرجوي في جبل التوءمين حقيقة. وهو يعلم أن الباشا قادم إليه. يمكنه أن يخرج من جبل التوءمين قبل وصول الباشا بكثير، ويذهب إلى مكان آخر. لا يذهب. وبعد تفكير دام من الصباح حتى الظهيرة، يأخذ أصعب قرار في حياته.

"يا حاج مصطفى!"

"مرني يا فتوتي!"

"زادها سعيد باشا هذا كثيراً، أليس كذلك؟"

"زادها كثيراً يا فتوتي."

"عنيد جداً. يمكن أن نقع في مواقف سيئة جداً يوماً ما."

"يمكن أن نقع يا فتوتي."

"يمكن أن يمحقنا يا حاج."

"إنه قادم بقوة كبيرة."

"هل فهمت يا حاج؟"

"لامناص يافتوة."

"إذن.. جهزوا أنفسكم. سننصب كميناً في الممر السفلي."

الممر الذي سينصبون فيه الكمين صخري وعمودي الانحدار. لايستطيع عبوره حتى الوعل. إنها هاوية. الصخور من طرف الممر عمودية كأنها مقطوعة بالسكين. الباشا مضطر لعبور هذا الممر للذهاب إلى جبل التوءمين. لا يوجد طريق آخر.

يقول الفتوة: "استمعوا إلي جيداً. أنا سأطلق الرصاصة الأولى. لن يطلق أحد رصاصة قبل أن أطلق أنا. إذا أمطرنا الباشا بالرصاص وأصابنا واحداً واحداً، ومتنا لن يضغط أحد منكم على الزناد قبل أن أطلق أنا. هل فهمت يا حاج؟"

"لن يطلق أحد رصاصة قبلك."

بعد ذلك، مترَسَ الفتوة رجاله بين الصخور رجلاً رجلاً. كان يمترسهم بين الصخور بحيث لا يدع مجالاً لمحاصرتهم أو إصابتهم. ولديهم ذخيرة كثيرة. يمكنهم اصطياد جنود سعيد باشا كالحجل.

ظهر الجنود من بعيد. إنهم بحجم جيش. لا تظهر نهايتهم. سعيد باشا في المقدمة منتصبٌ على حصانه. لاعلم له بشيء أبداً. وهل يخطر ببال سعيد باشا أن ينصب له التشغرجوي كميناً بعد هربه منه طيلة شهر كامل دون أن يترك أثراً؟ لا يمكن أن يخطر هذا ببال رجل كسعيد باشا.

كانوا يتقدمون. سعيد باشا قادم إلى مقابل فوهة بندقية التشغرجوي. إذا ضغط التشغرجوي على الزناد سيسقط الباشا عن حصانه كأجاصة. صحا التشغرجوي. إما لأنه خاف أو أنه أشفق على الباشا فلم يضغط الزناد. الباشا يعبر الممر، ويذهب.

بعد نزول الفتوة إلى السهل فيما بعد، روى للمقربين منه الحادثة على النحو التالي:

"جاء سعيد باشا منتصباً على حصانه من الطرف الآخر. إنه رجل جميل. يالشبابه! إنه وسيم وفتيٌّ كغرسة. لم تطاوعني يدي بأي شكل."

لعل هذا صحيح. ولكن جنيّاً كالتشغرجوي، ألا يعرف كم سيكلفه قتل الباشا؟ يعرف. في تلك اللحظة قيّم كل شيء، وتراجع. مهما كان فإن الباشا سار ذاهباً من أمام التشغرجوي وجنوده من خلفه. لا يغير التشغرجوي مكانه. المكان الأكثر أمناً حيث هو. سعيد باشا في راحة يده أينما ذهب. مهما دار، وتجوّل، فإنه سيعود من هذا الممر الضيق.

بالطبع لم يجد سعيد باشا التشغرجوي حيث أبلغوه، فيمر للمرة الثانية من المضيق ذاته، من تحت فوهة سلاح التشغرجوي.

قال التشغرجوي لرجاله: "إذا كان سعيد باشا هذا شهماً وشجاعاً، فلن يطاردني مرّة أخرى. سأكتب له رسالة أخبره فيها أنني نصبت له كميناً، ولم أطلق عليه النار رغم مروره مرتين من تحت سلاحي، وعلى بعد خمسين متراً. إذا كان شهماً...وإذا لم يكن هكذا...عليه أن يسامحنا، لأن هذا سوق أرواح! لن أفكر بعاقبة هذا الأمر مهما كانت."

فعل ما قاله، وكتب رسالة لسعيد باشا. ذكر في الرسالة المكان الذي نصب فيه الكمين، ويوم الكمين، وعلى بعد كم خطوة مرّ الباشا، وأنه يمكنه أن يقتله لو أراد، ولكنه لم يضحِ به، وأن يده لم تطاوعه بالضغط على الزناد، وأنه مر من المكان نفسه في طريق عودته من المطاردة، وبالشكل نفسه من تحت سلاحه. وطلب منه ألا يطارده.

ويضيف أنه سيطلق النار عليه بالتأكيد إذا خرج لمطاردته مرّة أخرى.

يغضب سعيد باشا، ويفور، ويغلي عند تلقيه الرسالة، ولكنه يفكّر أيضاً.

لم يلتق سعيد باشا بالتشغرجوي أبداً رغم مطاردته له مرة أخرى. لم يشتبكا ولو مرّة. في النهاية يستقيل سعيد باشا من قيادة المطاردة وفي قلبه شعور قوي بالألم والهزيمة.

- ١١ -

الجبال ممتلئة بالفرارية. هنالك خليل إبراهيم المحروق، والفتوة ذو النبوت، وفتوات كثيرون، إضافة إلى الفرارية الروم. وهؤلاء أيضاً كثيرون. يخطف الفرارية الروم رجالاً، ويأخذونهم إلى الجبال، ويقبضون عليهم النقود. الحكومة لا تستطيع التغلب عليهم. خطفُهم فلمنكياً بشكل خاص كان عجيباً. يُخطف الرجل إلى الجبل، ويُطالب بخمسة آلاف ذهبية فدية. يضطرب القصر. وتضطرب إزمير. ولأن المخطوف فلمنكي، تدفع الحكومة الخمسة آلاف ذهبية للفرارية. ويخطف الفرارية الأغنياء إلى الجبال روماً كانوا أم أتراكاً، ويطالبون بالنقود. وهؤلاء الذين يُخطفون إلى الجبال هم الذين يلجأ إليهم التشغرجوي، ويحمونه.

يخطف الفرارية الروم هذه المرة بعض الذين يحمون التشغرجوي. ويأخذ الروم من هؤلاء بقدر ما أخذوا من الآخرين بالقرش.

تتصالح العصابات المتحاربة ضدّ الروم. وتضغط الحكومة كثيراً فتمحى العصابات الرومية واحدة واحدة...

بعد ذلك يبدأ التشغرجوي بالعصابات الأخرى. تُخمدُ عصابة إبراهيم المحروق، والعصابات الأخرى. والتشغرجوي ذئب الجبال. يقتل دائماً. يقتل كل من يأتي أمامه. يأتي إلى قريته، ويقتل خالته أخت

أمه. ثم يتوضأ عند جثتها، ويصلي. ويذبح الألبان والشراكس كما تذبح الأغنام. قوة الحكومة لا يمكن أن تتغلب على التشغرجوي الذي محا العصابات الرومية، وأزال غالبية العصابات الأخرى عن الوجود. أسس التشغرجوي شبكة واسعة من الملاجئ عند الروم والأتراك والرحّل. الشعب الفقير يخاف الفتوة الذي نال مساعداته، ويحبه. يصل الشعب إلى حالة يمكن أن يضحي فيها بروحه في سبيل فتوته. هو السيف المسلط على رؤوس الأغوات. لا يستطيع أي آغا أن يأكل حق الفقير.

كلّت الحكومة، وملت. عجزت عن القيام بأي شيء. ترسل أفضل ضباطها، دون جدوى. ماذا يجب أن تفعل؟ مرة أخرى دعوة للعفو عن التشغرجوي. هل يقبل؟

في هذه الأثناء، التشغرجوي عاشق. والبخار ينبعث من رأسه.

"يا حاج!"

"قل يا فتوة!"

"ماذا ستقول إراظ عن هذا الأمر؟"

"لنرسل إليها خبراً. لنرسل إليها خبراً، ولكن هذا سيكون معيباً. عانت من قهرنا كل ما عانته. الزواج فوقها..."

"لعلها تقابل الأمر بشكل حسن."

"لو كنت مكانك لما فعلت شيئاً كهذا."

"إنك ترى يا حاج. حالي ليست حالاً. لو أننا وجدنا رجلاً يمكن أن يخبرها بالأمر بشكل عقلاني، ويرضيها.."

"ماذا لو لم تقبل..."

"نفكر في هذا حينئذ."

"إذا كان الأمر هكذا فلنرسل حاييم الأقرع لإراظ."

الفتوة يطلب حاييم الأقرع. حاييم يهودي. وهو جريء، ومبادر. وهو من أكثر الذين يثق الفتوة باللجوء إليهم. وبعد ذلك فهو أكثر من يحب الفتوة من الرجال.

"أنا أريد الزواج من فاطمة بنت محمد آغا من قرة قايا. اذهب إلى إراظ، وأخبرها، واعرف رأيها بهذا الأمر."

قال حاييم: "أنا لا أستطيع قول هذا لإراظ خانم. هذا غير ممكن. ماذا لو قتلتني..."

"إذا لم تقل لها فأنا سأقتلك."

"حسن إذا كان الأمر هكذا. إذا قمت بهذا العمل، وأرضيت إراظ خانم، فعلى ماذا سأحصل يا فتوة؟"

"هل تريد رشوة؟"

"أريد رشوة يا فتوة."

"انظر يا أقرع، سأعطيك مئة ذهبية ولكنها ليست رشوة، ولكن من أجل جوع عينيك. إذا لم تنجح بهذا العمل فهذا يعني أن رأسك الأقرع قد ذهب."

انطلق حاييم في الطريق فرحاً. خلال يومين ذهب إلى إراظ، وعاد.

"هات المئة ذهبية يا فتوة. قبلت، وفوق هذا صارت مسرورة."

"كيف خدعتها ولاه أقرع؟"

"قلت لها أن الفتوة، وخاصة إذا كان فتوة كفتوتنا يجب ألا يكتفي بإمرأة واحدة. الفتوة، وخاصة الفتوة الشريف يجب أن يكون له امرأتان."

"ماذا قالت؟"

"قالت، إنك مصيب يا حاييم أفندي. لم نفكر بهذا أبداً. اطلع بالمئة ليرة."

أعطى الفتوة حاييم مئة ليرة.

طرق كامل باشا آخر حل ممكن قبل أن يدعو التشغرجوي للعفو. ثمة شخص يدعى أراباكي آغا. إنه مسنٌ. فقد عاقب العصابات التي في كريت والتي لم تستطع الدولة التغلب عليها وجعل منها عبرة للآخرين. طلب الباشا أراباكي.

"يا أراباكي الدولة تريد منك آخر خدمة. إنها تريد التشغرجوي."

قال: "عفوك يا باشا. أنا لا أستطيع قتل رجل شهم كهذا. لاتطاوعني يدي. لا تؤاخذني."

إثر هذا، وعندما لم يستطع أرابكي عمل أي شيء ، غضب كامل باشا، أرسل مرة أخرى كل ما عنده من المفارز المطاردة وأكثر الضباط قيمة. ولكن التشغرجوي غير موجود. جده إذا كنت قد تركته في مكان ما."

سرَّ التشغرجوي كثيراً حين علم أن أراباكي رفض العرض الذي قدمه له كامل باشا، ومن هذا القرب الذي أبداه ذلك الذئب العتيق. ماالذي يجب أن يفعله. أراد أن يذهب إليه ذات مرة إلى إزمير، ويقبل يده، وينزل ضيفاً في بيته، ويأخذ له الهدايا. لم يرضَ الحاج مصطفى بهذا. وقال ان هذا خطير جداً.

"لندعُ أراباكي نحن ونستضيفه."

"أهذا ممكن يا حاج؟ أليس هذا عيباً؟"

"ممكن يا فتوتي. ألا يفكر رجل مثل أراباكي بأن ذهابنا إلى إزمير مخاطرة كبيرة؟"

"صحيح. لنكتب له رسالة حول هذا، وندعه."

دسَّ رسالة في يد أحد رجاله، وأرسله إلى إزمير. وجد الرجل أراباكي في إزمير، وأعطاه الرسالة. أراباكي الذي تلقى الرسالة لابد له من الامتنان.

"اذهبوا، وأخبروا الفتوة بأنني أقبِّله من عينيه. وسأكون في أودمش في اليوم الذي حدده."

كان التشغرجوي يقوم بإجراء الاستعدادات في الجبل من أجل استقبال أراباكي. أمر بنصب خيمة، وجلب أطعمة ومشروبات من إزمير. وزينت جدران الخيمة من الداخل ببسط الرحّل. إنه كحديقة الجنة. في اليوم المحدد، وقف القطار في محطة أودمش. طوق المحطة من أطرافها الأربعة رجال مسلحون بهيئة رعيان. كانت أسلحتهم تحت فرواتهم. كان ثمة غيوم سوداء في السماء. فجأة بدأ يرخ المطر. كان الجو شبه مغطى بغيوم غير محملة بالمطر. الجو في أجمل حالاته. التشغرجوي يدوخ إعجاباً بجو كهذا. في جو كهذا يكون في أكثر حالاته نشوة. بحسب رواية أحد رجاله المسلحين الذين عاشوا إلى هذه الأيام، فإن التشغرجوي لم يقتل أحداً في جو غائم وغير ماطر كهذا. حتى إنه يطلق من عاهد نفسه على قتله من أعدائه الدمويين.

مشى رجلٌ ربع القامة متنكرٌ بهيئة إمام قرية ذي جبّة نحو أراباكي المسنّ النازل من القطار.

قال: "أهلاً بِكَ يا آغا. أرسلني الفتوة. الخيول جاهزة."

ركبوا الخيول المنتظِرة أمام المحطة، وخرجوا خارج أودمش. بعد أن قطعوا مسير نصف ساعة، رمى ذو الجبّة جبّته عنه، ونزل عن الحصان، وانكب على يد أراباكي، وقبلها.

خرجت الأسلحة من تحت الجبّات. دهش أراباكي قال لنفسه: "ياللشهامة، يا للشهامة."

وصلوا إلى الخيمة. وكان في الخيمة كل ما يوجد في إزمير.

أراباكي: "أنت جعلت هذا المكان إزمير يا بني!"

"ماذا نفعل يا والدنا، العيش بطريقة أخرى صعب."

رأى أراباكي في الخيمة العزة والإكرام على مدى ثلاثة أيام. بعد ذلك، استأذن التشغرجوي، وانطلق في طريقه. ولكي يعيش أراباكي سنوات عمره الأخيرة بشكل جيد قدم له مقداراً كبيراً من النقود.

في أثناء حديث التشغرجوي مع أراباكي في الخيمة براحة، ملأ الجنودُ السهولَ والجبالَ باحثين عنه دون كلل أو ملل، ولا يجدونه.

قرويو السهل والجبل، والرحّل يعرفون أين التشغرجوي، وماذا يفعل، ومن يستضيف في الخيمة. وأكثر أفراد المفرزة يعرفون. يعمل القرويون ما بوسعهم لتوجيه المطارِدين في جهات مختلفة. أما المفرزة العارفة بالأمر فلا تقترب من تلك المنطقة. الدرك يضربون القرويين كثيراً ليبوحوا بمكان التشغرجوي، أما القرويون فلا يصدر عنهم نبس. وفي النهاية تحقق ما قاله التشغرجوي. هل السابلة أقوى أم السادة؟ السابلة كانوا أقوى. ليس مطارِدي التشغرجوي فقط، بل الأغوات والوجهاء من أعدائه أيضاً لا يعرفون أين هو. باءت المطاردات المستمرة شهوراً بالفشل، وكلَّ المطاردون، وملّت الحكومة. بقي حل واحد: العفو.

تم اختيار هيئة من معارف التشغرجوي وأصدقائه. الحكومة، والامبراطورية العثمانية بجلالة قدرها سقطت هذه المرة عند قدمي التشغرجوي. وتلقى خبرَ مجيء العفو من القصر مباشرة. وكان يفكر بشروطه.

كان مرتاحاً في الخيمة. لم يعد يخاف من أحد. جلس مع الحاج وحدهما، وقررا الشروط. استعرضا كل الطعنات التي طعن بها الفتوات من الخلف. وفكرا بما يمكن للحكومة أن تقدم عليه من سوء. ودققا بتفاصيل كل شيء. بعد ذلك، كتبا شروطهما على ورقة. سينزلان إلى العلن في حال قبول الحكومة شروطهم. وماذا لو لم تقبل؟ التشغرجوي راضٍ بكل شيء. يكفي أن يعفى عنه، ويتزوج من فاطمة. ولكن الحاج لم يكن في تلك الأفكار. كان يعيش كل شيء ببرودة أعصاب.

"اسمعني يا فتوة. سيخرج قادة المطاردة خارج أودمش. ولن يأتوا إلى أودمش ما دمنا أحياء. لن يدخل إلى قرية أيا صورة أي دركي، أو جابٍ، أو موظف أو من له علاقة بالحكومة. سيعفى عن الرجال المسلحين كلهم، ويربطون برواتب. إذا وقعت واقعة في القرية، وإذا ارتكب أحد المعفو عنهم أمراً ما، فلن تتدخل قوات الحكومة، وسيطلب الأمر منك يا فتوة. هل هذا جيد؟"

"جيد يا حاج."

"لن نترك أسلحتنا. وسنكون مسلحين أينما ذهبنا."

"هذا جيد يا حاج، ولكنهم من الصعب أن يقبلوا بهذا. علينا ألا نضع هذا الشرط."

"لا نضعه فيحاصرون كل واحد منا في مكان، ويقتلونه! كل ما

وقع للفتوات، وقع لهم لأنهم غير مسلحين. غُدر بهم. سُحب منهم سلاحهم، وغُدر بهم."

"إذا قبلوا..."

"لا تغدو طفلاً يا فتوة. القصر سقط عند أقدامنا. لنطلب نحن، ولئلا يعطوا. لمن يطلب وجه، و... ثم إن على العثماني أن يطلق أصدقاءنا المسجونين، والذين نأوي إليهم، ورجالنا المنفيين. إذا كان سيقضى أمر، فليقضَ بالكامل. ولتعط الحكومة خرجية لهؤلاء أيضاً."

"لتعطِ يا مصطفى."

"عندي فكرة أخرى أيضاً."

"ماهي تلك الفكرة أيضاً يا حاج؟ ماذا بقي أكثر من ذلك؟"

"يا فتوة! عندما نرغب بالذهاب إلى أودمش، يخرج من أودمش كل من فيها من الدرك خارج حدودها. ولا يقترب دركي واحد حتى نخرج منها."

"ما فائدة هذا يا حاج؟"

"له فائدة. لم ينزل إلى العلن أي فتوة حتى الآن بهذا الشكل."

"أنت مصيب يا حاج."

قدّموا الشروط للهيئة القادمة. بعد عدة أيام وصل إلى الفتوة خبر قبول الشروط. لا حدود لفرح الفتوة. قبول هذه الشروط من جهة، وفاطمة من جهة ثانية، وعدم اضطراره للصعود إلى الجبل مرة أخرى في أي وقت بسبب هذه الشروط من جهة أخرى...

أرسل التشغرجوي خبراً لمن يأوي عندهم، ولرحّله. جُلبت إليه أفضل الخيول في المنطقة. وارتدوا جميعاً أجدَّ الألبسة من فروقهم إلى

أقدامهم. وانطلقوا في طريق أودمش ذات صباح. تدفق القرويون إلى الطرقات رجالاً ونساءً وشباباً وشيّاباً وأطفالاً. كأن السلطان قادم إلى أودمش.

نشرت جرائد إزمير في ذلك اليوم بلاغاً على النحو التالي. كان بلاغاً عجيباً:

بناءً على طلب المدعو الفتوة محمد التشغرجوي وأصدقائه بالعفو والأمان من حضرات أعضاء الحكومة الذين لا حدود لعنايتهم ورحمتهم، أُعلن بتوقيع حضرة دولة وعناية عزت باشا الذي لا حدود لعطائه العظيم العفو عنهم، وبُشروا بهذا. إن الذين يلجؤون إلى المقامات العلية المملوءة قلوبها بالرحمة والشفقة غير العادية، لا يستفيدون من العفو فقط، بل يشكل هذا المثال دليلاً على كسبهم امتياز باني العالم بالعطف الذي لا ينضب. إن عاقبة الذين سيجرؤون على العبث بأمن واستقرار الدولة ستكون نهايتهم في غاية السوء، لذلك على قطاع الطرق الآخرين أن يستفيدوا من عطف أرباب الدولة بطلب الرجاء والرحمة، وإلا فليعلموا أنهم سيتعرضون لأشدِّ أنواع العذاب.

والي إزمير
كامل

-١٢-

جاء الفتوة إلى القرية. بقي مغلقاً على نفسه الباب عدة أيام. لم يخرج أبداً. ولم يكن يستطيع أحد الدخول إليه. لا أحد يعرف ما يفعله في الداخل. إنه مصاب بحالة ما. الجميع قلقون، ولكن الحاج كان يعرف. وهو أيضاً يخاف فلا يدخل إليه.

بعد ذلك، وذات يوم، لبس الفتوة، وجهز نفسه، وخرج. كان وجهه شاحباً كالرماد. خرج خارج القرية. كان وحيداً.

كل يوم ينطلق إلى السهول مع الشروق، ويتجول فيها وحده دون أكل أو شرب، وفي بعض الأحيان، يضع رأسه بين يديه، ويجلس على حافة خندق هكذا...

غضبت أمه، فقالت: "محمد! ما هذا الوضع الذي تعاني منه يامحمد؟ لم نر مثله. استجمع قواك. لا يكون الرجال هكذا. ولاه، ماهذه الحياة التي ولدتها كلبة؟ احك يا شبيه المجانين..."

وصل الحاج، وقال: "يا فتوة!"

قال الفتوة: "اسحبوا حصاني."

سحبوا حصانه، وقفز عليه.

"لئلا يأتي أحد من ورائي."

قاده بأقصى سرعة. عند الفجر، وصل إلى قرية قايا. ولأن الفتوة وصل، فقد اجتمع الجميع من حوله. نزل ضيفاً في بيت الإمام، وهو أحد معارفه القدماء.

وكان كلامه المباشر: سأستأجر بيتك يا إمام أفندي. ما قولك؟ أنت تنقل إلى بيتك الآخر."

"وهل يمكن الحديث في هذا يا فتوة؟ على رأسي، سأفرغه فوراً."

"خلال يومين."

نهضا ذهب مع الإمام إلى السبيل. كانت الفتيات قد جئن لأخذ الماء. وفاطمة بينهن. شعرها الفاحم القوي يغطي كتفيها. تندس الفتيات ببعضهن بعضاً وهن يشرن نحو الفتوة. كان التشغرجوي عند السبيل كشاب في الثامنة عشرة من عمره!

فجأة صحا التشغرجوي، فهو ذلك التشغرجوي العظيم وبجانبه الإمام، وعند السبيل..

قال للإمام: "مع السلامة يا أفندي" وقفز إلى حصانه.

كان في قلبه لهيب العشق. تعلق بالفتاة حين رآها أول مرة قبل أربعة أشهر. ولم يتخلص من هذا بأي شكل. يكتوي قلبه، ويرتعش جسده كلما رآها. إنها المرة الأولى التي يعيش فيها العشق. كان خجلاً من نفسه. لم يستطع. لم يستطع أن يلقي هذا الأمر عن كاهله بأي شكل.

رغم قبول إراظ، فإن هذا الفراري الذي يخنق الرجل كما يخنق الدجاجة، لم يستطع جعل ضميره يقبل بأي شكل أن يتزوج عليها. كانت إراظ امرأة، وصديقة، ومضحية. وكانت عشقه من أول مرة. ولم تبق بلية

لم تحتملها بسببه.

فور وصوله إلى البيت، ونزوله عن الحصان توجه إلى إراظ.

قال: "لا تؤاخذيني يا إراظ. هذا عمل سيء جداً جداً! لم يحدث، لم أستطع التغلب على نفسي. هذا لا يليق بك."

إراظ: "لا تفكر بهذا يا فتوتي. فتوة مثلك لا تكفيه امرأتين، بل أربعاً. افعل ما يحلو لك. أنا أذهب لأطلبها لك من أبيها إذا أردت."

قال الفتوة: "سلمت يا إراظ، سلمت. لم أستطع التغلب على نفسي."

الفتوة المعتاد على القيام بأي شيء بعد حسابات دقيقة، انهار هنا، وكأن قوته كلها استنفدت. وكان خجلاً من ضعفه إزاء هذا العمل. أرسل رجلاً إلى حاييم الأقرع. جاء حاييم.

"خذ هذه النقود يا حاييم، وانطلق إلى بيت الإمام في قرية قايا. ستذهب إلى إزمير، وتفرش البيت بشكل جميل. ستفرشه بالشكل الأفضل. سأذهب لرؤيته بعد أسبوع."

بعد أسبوع، ركب الفتوة حصانه، وقاده كالريح إلى قرية قايا. النجارون مع حاييم ما زالوا يفرشون البيت.

"على العافية يا حاييم آغا."

"تسلم يا فتوة."

تجول الفتوة على الغرف واحدة واحدة. كان حاييم الأمهر بهذه الأمور. الأغراض في البيت كتلك التي في دار أحد الوجهاء في إزمير.

"أرأيت يا فتوتي، كيف فرشه حاييم؟ حتى بيت نقيب أوغلو

ليس أجمل من هذا. عند حاييم ذوق رفيع. ذوق يا فتوة."

ضحك الفتوة: "دمت يا حاييم."

جاء إلى القرية. جمع عدداً من وجهاء القرية وأغوات القرى المجاورة. أرسل وجاهة إلى والد الفتاة. لم يكن والد الفتاة يحب التشغرجوي. ثم إنه كيف يعطي ابنته لفراري؟

"أمر الله على رأسي، ولكن غير ممكن يا أغوات"

ألحُّوا، وهددوا ولكن الرجل مصرّ. كيف سيفتحون الموضوع للتشغرجوي؟ سيمحق قرية قايا. وسيسحب الفتاة، ويأخذها. ولكن والد الفتاة يعرف أن التشغرجوي لن يأخذ الفتاة دون رضاه حتى ولو مات عشقاً. التشغرجوي رجل مخلص لمبادئه. وأول مبادئه هو عدم المساس بالعرض، والنظر إلى امرأة أحد أو ابنته بسوء. وقد أطلق النار على أغلب رجاله الذين أبدوا أي تصرف سيء إزاء النساء.

جنَّ جنون التشغرجوي حين علم بالخبر. ماذا يمكنه أن يفعل؟ ماالذي يطلع بيده؟ لا يعطي، لا يعطي. جلس وكتب رسالة طويلة لوالد الفتاة. قال له إنه سيقتله، ويحرق القرية. أخذ حاييم الأقرع الرسالة، وذهب. لم يصغِ الرجل حتى لما جاء في تلك الرسالة الحادة. ولكنه خاف على روحه. ففي ذلك اليوم غادر القرية إلى (تره) ومنها إلى إزمير. وأرسل خبراً للتشغرجوي:

"أنا في إزمير. هاهي الفتاة، وهاهي القرية، وها أنت...يمكنك أن تأخذ الفتاة وتحرق القرية. يمكنك أن تفعل ما تشاء. وأنا لن أعود من إزمير إلى القرية. إذا كان الأمر في القوة فليكن. فالجبال لا تحتمل القوة."

انهار التشغرجوي إزاء هذا الخبر. فعل والد الفتاة ما سيفعله. وهكذا انقطع سبيل كل ما هو ممكن، وبقي في قرية قايا لا حول له. لم يفكر أبداً بنتيجة كهذه. صار التشغرجوي في أسوأ حال! أمطر إزمير أيضاً بالرسائل المتتابعة، والتهديدات. ولكن هذا أيضاً لم يفلح. الرجل معاند يقول نوحاً، ولا يقول نبياً.

في النهاية، وصل التشغرجوي إلى قرية قايا، وجمع كل وجهائها، وسجنهم في بيت. وغالبية هؤلاء أقرباء مقربون لوالد الفتاة.

"أبلغوا الآغا كي يأتي. سأسجنكم هنا حتى يأتي الآغا. سأقدم لكم وجبة خبز في اليوم، وماء فقط. وحين أقطع الأمل من مجيئه، أقتلكم واحداً واحداً، وأصعد إلى الجبل."

كتب الأقرباء المسجونون لوالد الفتاة رسائل تفيض بالألم. كانت الرسائل تؤثر بالحجر، ولا تؤثر أدنى تأثير على والد الفتاة. يقولون إنه سيقتلنا، ويحرق القرية بسبب ابنتك...أما هو فينتظر في إزمير."

في أحد الأوقات جاء الأب إلى تره بعد أن لم يستطع الصمود في إزمير. كان التشغرجوي يتحدث بعناد. مجيئه إلى تره يعني: "أنا لاأخاف منك، افعل ما تريد، فلن أعطيك ابنتي، وأنا راضٍ بالموت."

كانت إراظ أكثر الغاضبين من هذا الأمر على مدى أيام وأسابيع. لا تقول شيئاً، ولا تفعل شيئاً. كانت الإهانة التي تعرض لها فتوتها تقتلها. وتكبت كل شيء في قلبها. غدت كخيط الإبرة. حين سمعت بأن الأب جاء إلى تره لم تستطع ضبط نفسها. وضعت في زنارها مسدساً دون أن تخبر أحداً، وسحبت حصاناً، وقفزت عليه، وإلى تره فوراً. طوال الطريق تكلم نفسها، وتفرغ قلبها.

"سأذهب، وأمسك ذلك الكافر من لحيته.. ذلك الخوري! هل رأيت مثل التشغرجوي قط؟ أنا زوجة التشغرجوي. ماذا تعتقدني؟ هل تعتقد أنني ابنتك؟ ليس فتاة واحدة، بل ألف فتاة تُقدم فداء للتشغرجوي. هل رأيت مثل الفتوة مذ صارت الجبال جبالاً. إنك تهرب حيث يجب أن تقبّل النعمة، وتضعها على رأسك، وتفرح. أنا زوجة التشغرجوي. فهمت ياملعون الدين ؟ أنا أعرف ما سأقوله له. ليقع بيدي! أعرف."

جاءت إلى بيت أحد معارفها، وسلمتهم الحصان. كانت ترتجف من غضبها. قال أصحاب البيت: "تفضلي يا إراظ خاتون، ارتاحي قليلاً." لكنها لم تهتم. ذهبت إلى السوق مباشرة. وجدت والد الفتاة في أحد البيوت. جرته إلى إحدى الغرف.

قالت: "انظر إلي يا آغا. أنا امرأة التشغرجوي إراظ. افتح عينيك، وانظر إليّ جيداً! يقال إنك لا تعطي ابنتك للفتوة. عد إلى القرية فوراً، واعطه البنت. أنا لا أسمح لأمثالك أن يهينوا فتوتي. أنا أفرمك فرماً. الفتوة لا يستطيع عمل هذا، أنا أعمله. عد فوراً. يكفي ما فعلته بالفتوة! لا علم للفتوة أو لأحد بمجيئي إلى القرية... هل فهمت؟ لا أريد تصرفَ كفار. ولا تخبر أحداً بمجيئي. أنا لا أسمح لك بجعل ذهبي تبناً. إذا قتلك الفتوة من أجل فتاة فهذه إهانة، أما إذا قتلتك أنا فهذا شرف لي.. هيا إلى القرية.. حضر العرس بنفسك."

خرجت من دون أن تنتظر جوابه. ذهبت إلى حيث حصانها. قفزت عليه. وقادته بسرعة. مع المغيب وصلت إلى آيا صورة.

في اليوم التالي، سُمع بأن والد الفتاة جاء إلى قريته. وقال إنه لن يعترض على أمر الله، وأنه أعطى ابنته للتشغرجوي بكامل رضاه،

وتحرر المسجونون، وهُيئ العرس. وتصالح الحما مع التشغرجوي، وفوق هذا أحبه، وجهز للعرس بنفسه. وكان يفخر بصهره. وجاءت إراظ أيضاً إلى العرس. ودهش الجميع لحال إراظ.

ودخل التشغرجوي إلى الخلوة.

غدا بيت التشغرجوي دار حكومة المنطقة. يُصدر التشغرجوي القرارات، ويمنع الظلم، ويساعد الفقراء، وإذا لم يستطع مساعدتهم فيدفع الأغنياء لمساعدتهم. كان يبني بيتاً جديداً في أيا صورة. وكانت كبيوت السادة الكبيرة.

في هذه الأثناء، زار التشغرجوي جنرال وصحفي إيطاليان. دهشا أمام الفراري الذي ذاعت شهرته في أوربا كلها. كان التشغرجوي ذاك سيداً راقياً ولطيفاً. عندما رأيا أمامهما رجلاً متوسط القامة بحاله وذاته دهشوا أكثر مما هم مندهشون. جاء صحفيون إنكليز وفرنسيون أيضاً. وكان التشغرجوي يباهي كثيراً بهذه الزيارات. وبوساطة رجاله كان يذيع على المنطقة كلها زيارة صحفي فرنسي أو إنكليزي.

عرض شراء مزرعة كبيرة في ميلاس. وسيدفع ثمنها نقداً أيضاً... كان يفكر بالمستقبل، احتمالاً لأي طارئ.

بعد أن نزل التشغرجوي إلى السهل، صعد كل من يوجد من فرارية إلى الجبل، وحين يكون التشغرجوي في الجبل لا يستطيعون الصعود إلى الجبل، وحين يكون في السهل لا يستطيعون البقاء في السهل. لهذا السبب كان أغلب أولئك الفرارية أعداءه. وفتح الفرارية

الصغار هؤلاء هموماً كبيرة على رأسه. كانوا يعذبون الذين يؤوونهم، ويأخذونهم إلى الجبال، ويسلبونهم. ويحدث هذا لأنهم كانوا يؤوون التشغرجوي فقط. لم يكن التشغرجوي يستطيع فعل شيء. لا يستطيع الذهاب وراءهم، ومطاردتهم. لا يمكن الذهاب وراء الهارب. يقتلون إنساناً برصاصة طائشة في كمين. كان الفتوة قلقاً جداً من هذا. فيما بعد حدثت حادثة أخرى أقلقت راحة التشغرجوي. في أحد الأيام ذهب مع أحد وجهاء المنطقة للهو في مطحنة. أكلوا، وشربوا، ولهوا. كان اللاهون كلهم من الرماة. وفي النهاية، انصب الأمر على الرماية.

من سيرمي في البداية؟ التشغرجوي طبعاً. وضعوا بيضة في الهدف. صوب التشغرجوي. كان واثقاً من نفسه. ضغط على الزناد. أججت الرصاصة الغبار من أمام البيضة. مرة أخرى، ومرة أخرى... لم يستطع التشغرجوي إصابة البيضة. غرق وجهه بعرق كالدم، واحمرَّ.

قال الآغا الذي بجواره: "لا بد أن مسدسك عتق يا فتوة."

قال الفتوة: "إنه جديد."

"إذن فأنت لم تستعمله منذ فترة طويلة."

"لم أمسسه منذ شهرين."

الآغا: "تختلف الحال إذا لم تستعمله يوماً واحداً. أنا أرمي يومياً."

سحب مسدسه من خصره، وسدد نحو البيضة. فتت البيضة.

قال الفتوة: "عشت يا آغا، ودمت."

ولكن هذا غدا همّاً على قلبه. وقوع فتوة في هذه الحال يعني موته. أهي الجبال مرة أخرى؟ راحة إلى هذا الحد..نقود وشهرة... وحياة

إنسانية من دون خوف... أمر لذيذ، ولكن الموقع سيضيع. لم يبق طعم للحياة، ولكنه لم يحب الجبال أبداً.

امتلاء الجبال بالفرارية جعل الناس يعافون أرواحهم. كان هؤلاء كلهم أشباه فرارية صغار. لا يمكنهم أن يكونوا كالتشغرجوي... عملهم كله هو سلب الفقراء. وأغلبهم لا يروقون للوجهاء.

قُدِّم عرض حال في أودمش. عرض فيه الناس أنهم يبكون دماً من الفرارية، وأن الأمن قد زال عن الوجود. وطُلب إرسال قائد المطاردة السابق قرة سعيد باشا من جديد. كانت قد صعبت جداً على قائد كقرة سعيد باشا الهزيمة أمام التشغرجوي. كان يعتبر أنه أهين بين جنوده. قبل قيادة المطاردة، وجاء إلى إزمير فوراً.

بدأ العمل بالعفو. سيعفى عن الفرارية في الجبال كلهم إذا استسلموا خلال عشرة أيام، وإلا فإن الحكومة غير عاجزة عن التنكيل بهم. وحقيقة جاء عدد من قطاع الطرق، واستسلموا. زادت هذه الاستسلامات ثقة سعيد باشا بنفسه. عصابة التشغرجوي تتجول مسلّحة منذ إصدار العفو عنها. كانت دولة ضمن دولة. وهذا أمر غير ممكن. إذا أعفي عن التشغرجوي، فيجب أن يتجول أعزل كأي مواطن. ويجب على التشغرجوي أيضاً أن يقبل بهذا. وبحسب الدراسة التي عملها فإن التشغرجوي يمكن أن يقبل بهذا. فقد تزوج، وهو يحب زوجته، ويبني بيتاً، ويشتري مزرعة، ولا يخطر بباله أبداً الصعود إلى الجبل. اعتماداً على هذا، أرسل رسالة إلى التشغرجوي:

بإرادة علية تم تعييني هذه المرة قائد مطاردة الفرارية من جديد. هدف السلطنة إعطاء الأهمية القصوى للتنكيل بالمقصودين بالشكاوى،

ليـغـدو الأمن أفـضـل من أي وقت. واتـخـذت التـدابيـر اللازمـة بـهـذا الخصوص. أما بالنسبة إليكم، فلن يُسمح لكم بالتجوال مسلحين كما أنتم عليه حتى الآن في أثناء تنفيذ هذه التدابير الصارمة، والقيام بالعمليات. لهذا السبب، نبلغكم بضرورة تسليم أسلحتكم للجهة المعلومة صاحبة العطف لكي لا تتعرضون لأي مطاردة.

قائد مطاردة الفرارية
العميد سعيد

لم يدهش التشغرجوي عندما استلم الرسالة. جمع رجاله من حوله، وقرأها عليم.

"لن نسلّم الأسلحة."

"لن نسلّمها يا فتوة."

"يجب أن نسرع، ونصعد إلى الجبل."

"سنصعد يا فتوة."

أطلق الفتوة بصقة من بين أسنانه كرصاصة.

"كان علي أن أقتله مهما كلفني هذا الأمر." وتحدّث كأمه لأول مرة في حياته: "لا تثق بشهامة العثماني حتى لو كان أباك. لتحصل على ما تستحقه يا قرة سعيد!"

كتب هذه الرسالة:

"الرجل لا يعطي السلاح الذي بيده. تعال، وخذه."

محمد التشغرجوي

كان الوقت فجراً. في قمة جبل الأصابع الخمسة، تكاد تظهر أشعة ضوء رفيعة كالإبر. في مكان ما من ذروة الجبل ثمة سحابة بيضاء وحيدة تُشعِر بالبرد. وثمة نجوم براقة تدور وسط الأضواء... خرجوا من القرية. رأس الفتوة مطرق. لا يتحدث. قلبه مليء بالحقد. لماذا لا يتركه مرتاحاً؟ فعل ما بوسعه من الجود للفقراء، وقتل الظالم ومغتصب الحقوق. ماذا يريدون منه؟

قال: "يا حاج. علينا دين، هل تذكره؟"

"لا يا فتوة، لا أعرف أن لأحد ديناً علينا. أعتقد أنه لا يوجد."

"يوجد يا حاج، يوجد."

"ما هو يا فتوة؟"

"أما كان هناك شخص في السجن سمع بأن زوجته تنام مع أخيه.. شخص لا يتكلم أبداً، فاقد صوابه، وتعلق بي عندما خرجنا من السجن... وقد انغمسنا بالأشغال حتى الآن ولم ندفع ديننا."

"علينا أن ندفعه يا فتوة."

"يا حاج!"

"أمرك يا فتوة!"

"إذا فرمت هذين الآن فرماً، فهل أكون قد ظلمت؟"

"ستبارك يدك."

"إنها زوجة سجين.. إنها زوجة طير في قفص. وهي مع أخيه. لنفعل جودة قبل الصعود إلى الجبل... هل تعرف القرية يا حاج؟ وهل تعرف اسم الأخ واسم الزوجة؟ أم نستعلمهما؟"

"أعرفها يا فتوة وهل هذا أمر يُنسى؟"

"إلى هناك فوراً يا حاج!"

دخلوا القرية في فجر اليوم التالي. داهموا بيت الأخ آخذ زوجة المحبوس، وألقوا القبض على المرأة والرجل.

قال الفتوة: "نادوا أهل القرية كلهم."

توزع رجاله المسلحون داخل القرية، وجمعوا القرويين رجالاً ونساءً في ساحة القرية.

قال: "هاتوا جذع شجرة إلى الوسط."

جلبوا. انكمش الرجل والمرأة، وهما يرتجفان. القرويون أيضاً هكذا. ينظرون إلى الفتوة بعيون محملقة. لا يصدر نبس عن أحد. التفت الفتوة إلى القرويين:

"ما هي عقوبة الأخ الذي يفعل الخائسة مع زوجة أخيه الذي في السجن؟ عقوبته عند الله؟"

"ما هي عقوبة المرأة التي تخون زوجها المسجون، والزانية مع أخيه؟"

لا نبس أيضاً.

"يسمع هذا الرجل الذي في السجن، ويجن المسكين. ويغدو جلداً على عظم. ولا يستطيع النظر إلى وجه أحد دون خجل. ما هي عقوبة هذين؟"

غدا القرويون كالحجارة.

"مددوا هذا على جذع الشجرة. أبهاتين الذراعين احتضنت زوجة أخيك؟ اقطعوا ذراعيه من جذريهما."

يقطعون الذراعين المتدين على جذع الشجرة.

المرأة تتوسل. وحين وصلت إلى الجذع قالت وهي شبه مغمى عليها: "لا تفعلها يا فتوتي أنا قربانك وخادمتك."

"امرأة سجين هل تكون هكذا؟ اقطعوا رأسها."

يقطعونه.

الجمع المتجمد ينظر ساهماً، يتجمد عند الميتين كالحجارة.

يقول الفتوة: "حان وقت الصلاة."

يهرع رجاله المسلحون، ويجلبون سجادة صلاة، ويمدونها على العشب. يقف الفتوة بالصلاة. يدعو دعاءه. ينظر القرويون إلى الفتوة تارة، وإلى الميتين المضرجين بالدماء تارة.

بعد أن أقام الفتوة صلاته، جمع رجاله المسلحين من حوله، وانسحب ذاهباً من دون أن يقول كلمة واحدة للقرويين.

صارت حال سعيد باشا في منتهى السوء عندما تلقى الرسالة. كيف يتم هذا؟ يجب عليه أن يقتل هذا التشغرجوي مهما كلف الأمر. بعد قليل يتلقى خبر قتل التشغرجوي ذانيك الشخصين. يجمع سعيد باشا المفارز كلها، ويرسلها إلى القرية التي ارتُكبت فيها الجريمة. يطوق القرية وأطرافها من جهاتها الأربع. كان التشغرجوي قد غدا طيراً وطار. إثر هذا يتجول قرة سعيد باشا على رأس جيش ضخم في المنطقة على مدى أيام. وجِدْ التشغرجوي إن وجدته. كأن الأرض انشقت، وابتلعته. غير موجود، غير موجود، غير موجود! رجال سعيد باشا لا يفرقون بين قروي أو مدني أو بدوي فيمددونهم تحت الضرب. ويضربونهم حتى شفا الموت. ولكن أحداً لا يعطي ولو أصغر رأس خيط عن التشغرجوي. ولا أحد يتكلم. والمتكلمون يدلون على أماكن خاطئة. وهل يتخلى عنه

سعيد باشا بعد أن يركض خلفه، ويتعب؟..

يبحث سعيد باشا عن مآويه. وينظر فلا يجد آغا أو عاملاً مياوماً، أو قروياً أو بدوياً إلا وهو مأوى للتشغرجوي. الجميع يؤوونه. وهكذا غدا من غير الممكن تمييز المأوى الأساسي. مع تعرض الناس للضرب يتحولون إلى مناهضين للدولة. ويغدو وضع التشغرجوي أسلم مع الزمن. جيش عثماني ضخم وقائده الشجاع المغرور في الجبال وبين الصخور خلف رجل واحد...

-١٤-

انزوى الفتوة في الجبل إثر هذه الحادثة. كان مكاناً سليماً. كانت القرية وسط الصخور. وأهل القرى القريبة كباراً وصغاراً يفدون الفتوة بأرواحهم. ولم تر تلك القرى منذ عهدها بالحياة جوداً من فتوة أو حكومة أو آغا كالذي رأته من التشغرجوي. كانوا يدارونه جداً. لايتخذ التشغرجوي أي حيطة عندما يأتي إلى هذه القرى، فيتجول في هذه المناطق وهو يلوح بذراعيه. وإذا قبضت قوات الحكومة على أي شخص من هذه القرى، وعذبته فلا يفتح فمه حتى ولو وصل إلى شفا الموت. وقد حدثت أحداث من هذا النوع كثيرة. فمدد مئات الأشخاص تحت العصا، وسجنوا، ولكن أحداً منهم لم ينطق لسانه باسم التشغرجوي.

في أحد الأيام قبضت إحدى المفارز على أحد أكبر المسنين في قرية، وسألته عن مكان التشغرجوي.

قال الرجل: "لا أعرف" فبدؤوا بضربه. غضب الرجل، وصرخ قائلاً: "هاهو التشغرجوي هناك يا قوادون، هيا اذهبوا إليه ليلعن أمهاتكم جميعاً." ولم يذكر المسنُّ مكان التشغرجوي لأنه يعرفه، بل لأنه غاضب.

"أين؟"

"هنا في هذه الأمكنة. هيا اذهبوا، هيا اذهبوا ليلعن أمهاتكم!"

"أين؟"

"خلف تلك الصخرة."

اتخذت التدابير حول الصخرة فوراً. ولكنه لا يوجد أنس أو جن.

"ماذا يا أبانا؟ ظهر أنك كذاب."

صعب الأمر على المسنّ.

"تعالوا لنذهب إلى القرية. الجميع في القرية يعرف مكانه. الولد الصغير يعرف مكانه. ليدلوكم عليه. ليدلوكم عليه، وأرونا أنفسكم."

ذهبت المفرزة إلى القرية إزاء تحدي المسن هذا. مُدد أهل القرية كلهم من السابعة حتى السبعين تحت العصا.

"التشغرجوي؟"

"لا سمعنا به، ولا نعرفه."

"مددوه!"

ضربٌ حتى يسيل الدم من الفم.

"لا نعرفه..."

"ولم نره..."

حامت المفرزة فوق القرية كزوبعة جهنم، وهدمتها، وأحرقتها على مدى أسبوع. وليس ثمة كلمة أو نبس عن التشغرجوي.

بعد هذا التعذيب الكبير، وعندما كانت المفرزة تغادر القرية، نصب التشغرجوي كميناً، وقتل أفراد المفرزة كلهم.

أغلق الفتوة على نفسه الباب يومين دون أن يخرج. بعد ذلك،

نادى الحاج.

"يجب أن نجنن سعيد باشا هذا، ونهينه، ونخرج من أنفه مارضعه من أمه."

"أنت على حق يا فتوة."

"سنختار خمسين شابا قوياً وشهماً من هذه القرى. يجب أن يكونوا كالجان، ويعيشوا في السهل. هل تستطيع إيجادهم؟"

"أجدهم يا فتوة."

"ماذا سنعمل الآن، أتعرف يا حاج؟"

"احك يا فتوة!"

"سنبقى نحن هنا..شهراً، شهرين، ثلاثة. المكان سليم. لو اجتمع الجيش العثماني كله لما استطاع أن يجدنا."

"لما استطاع أن يجدنا."

"حتى لو وجدنا، فإننا نستطيع إزالة جيش عن الوجود نواجهه هنا. بعد ذلك، يمكننا أن نهرب، وننقذ أنفسنا. لا يمكن لأي جيش أن يصعد إلى هنا أصلاً"

"لا يستطيع الصعود يا فتوة."

"لعلنا نبقى هنا سنة. يجب أن نجنن سعيد باشا، ونجعله يندم على يوم ولدته أمه."

"فهمت يا فتوة."

"والآن يا حاج. الفرارية في الجبال والمهربون في السهول كلهم الآن تشغرجوي. هل فهمت يا حاج؟"

"فهمت يا فتوة."

"استدع الشباب. ليكونوا شجعاناً. إذا ظهر أن أحدهم فاسداً، هذا يعني أننا احترقنا. وصّلْ خبراً لمآوينا في الأسفل والرحّل. ليفعلوا ذلك هم أيضاً. ليكن كل من يحمل سلاحاً منا، وليخبروا سعيد باشا أن كل من يحمل سلاحاً هو التشغرجوي."

اختار الحاج مصطفى الشبان الشجعان من القرى خلال ثلاثة أيام. وأوصل الرجالُ المسلحون التعليمات إلى المآوي، وإلى أودمش وتره وآيدن.

-١٥-

فرح سعيد باشا. ازدادت ثقته بنفسه. صار القرويون جميعاً معه بمن فيهم الذين يقدمون المآوي للتشغرجوي. الجميع يطارد التشغرجوي. إذا تحركت أكمة أو حجر، أو أطلقت بندقية يصل إليه خبرها فوراً. هذا يعني موت التشغرجوي مئة بالمئة. ولأن الناس انقلبوا ضدّه، ويبلغون عنه دائماً فسيقع في الفخ اليوم أو غداً.

وصله خبر ذات يوم. التشغرجوي وجماعته في الجبل.

المخبر: "يقولون في قريتنا... الجميع في قريتنا يقولون إن التشغرجوي جاء إلى رأس النبع. إنه في مخبئه القديم. إنهم يشوون خروفاً. غداً سينزلون إلى السهل، ويداهمون بيتاً. ولكن أحداً لايعرف بيت من. هذه الليلة هم هناك."

أقام التشغرجوي مكامن سليمة في حياة الفرارية. وكان لديه في كل قمة مخابئ سليمة جداً يمكن أن تصمد عدة أيام عندما يتضايق.

سنحت أولى الفرص لقرة سعيد باشا. أبرق إلى إزمير وآيدن أنه تم تحديد موقع التشغرجوي. أرسل المفرزة الأولى، وبعدها الثانية والثالثة. بعد ذلك، أخذ جنوده، وحاصر المكان الذي يوجد فيه التشغرجوي. غطى الجنود الأرض والسماء. وهنالك المتطوعون الأرناؤوط

والشراكس، والفرارية الذين نزلوا إلى السهل، ومتطوعو الوجهاء أعداء التشرجوي.

فجأة بدأ الاشتباك. التشغرجوي المحاصر صامد، ولكن إلى أي حدٍّ يمكنه أن يصمد؟ استمر الاشتباك حوالي ساعتين. بعد ذلك انقطعت أصوات أسلحة التشغرجوي. كان ليلاً وظلاماً.

أصدر سعيد باشا أمره: "تمت إزالة عصابة التشغرجوي. ضيقوا الحصار، وانتظروا إلى الصباح."

بعدئذٍ، أرسل برقية وراء برقية بأن العصابة قد تمت إزالتها. غداً ستجلب الجثث إلى أودمش. انفجر الخبر كقنبلة في إزمير وآيدن والمنطقة كلها، وامتد حتى وصل إلى اسطنبول.

أصبح الصباح. ذهب سعيد باشا نحو الموتى. ذهب، وماذا رأى! ثمة خمسة عشر مهرباً تقريباً وخيولهم وأغراضهم. غدا المهربون كملعقة الرز المثقبة. والخيول أيضاً كذلك. تجمد سعيد باشا فور رؤيته هذا. لم يستطع التكلم. امتطى حصانه بعد ذلك، وذهب إلى أودمش وحده. صار وضعه بائساً.

ينتظر الناس في أودمش جثة التشغرجوي حزانى وفضوليين. حين رأوا جثث المهربين بدل جثة التشغرجوي، بدؤوا بالسخرية من سعيد باشا.

جنَّ جنون سعيد باشا. أينما سمع خبراً عن التشغرجوي، يسحب جنوده، ويهرع إلى هناك. يحاصر التشغرجوي، ويبدأ الاشتباك. يصل إلى الموتى، وينظر، فيجد مهرباً أو عصابة أخرى. وهكذا أزال عشر عصابات فرارية أو مجموعات تهريب. وفي جميع الحالات كان يرسل

البرقيات إلى الأرجاء كلها قائلاً: "تمت إبادة التشغرجوي" وفي جميع الحالات عاد سعيد باشا خجلاً فاشلاً خاوي اليدين. وتصل إليه الأخبار من الأمكنة كلها بأن التشغرجوي هنا وهناك، ويهرع إلى حيث يُبلغ. ماذا سيفعل الباشا لن يفقد الأمل طالما أنه لم يفقد الروح. شك في كل هذه البلاغات، ولكن ماذا يمكنه أن يفعل؟ ماذا لو كان التشغرجوي؟ ماذا لو كان البلاغ صحيحاً؟ إنه يضرب الذين يبلغونه البلاغات الكاذبة، ولكن البلاغات لا تتوقف.

يقول الواشون: "متنا. متنا تحت يدي هذا التشغرجوي. متنا ياباشانا! نفعل ما بيدنا، ونلاحق التشغرجوي خطوة خطوة. إنه يهرب يا باشانا. وبلاغاتنا صحيحة، ولكنه يهرب."

يئس الباشا، وسئم روحه. أدرك من يواجه حينئذ. في النهاية وصل إلى حال لم يعد فيها يهتم لأي بلاغ. يأخذ جنوده، ويتجول على القرى عشوائياً، وعلى غير هدى، ويمدد تحت العصا كل من يأتي أمامه، والقرويين كلهم. صار كل قروي بعين الباشا من رجال التشغرجوي.

لا أحد بما في ذلك أعداء التشغرجوي وقادة المطاردة يقول للباشا إن التشغرجوي قد جاء إلى المكان الفلاني. من يقول هذا، حتى ولو كان صحيحاً، وصادقاً يمدده الباشا تحت العصا جيداً، ثم يسجنه، ويقدمه إلى المحكمة على أنه أحد رجال التشغرجوي. ولو كان كل هؤلاء رجال التشغرجوي لكان عنده طابور. هذا ما يفكر فيه كل رجال الدولة عدا سعيد باشا.

-١٦-

التشغرجوي مستمتع. يجري تدريبات على التصويب يومياً في القرية، ويلهو. ولا تسعه نفسه لفرحه.

"أرأيت سعيد باشا يا حاج؟ كيف حاله؟ كيف طار صوابه؟ صار بائساً، ومعاباً!"

قال الحاج: "ولكنك تنسى شيئاً يا فتوة. علينا أن نجهز هؤلاء الذين فعلوا معنا هذا الجود. ما قولك؟"

"أنا أيضاً أفكر بهذا. يمكننا الآن أن ننزل إلى السهل ونحن نلوح بأيدينا. لا أحد يمكنه أن يغدر بنا. وإذا غدروا بنا فلا يصدقهم سعيد باشا. يمكننا أن ندخل حتى إلى وسط الجيش. أتعرف يا حاج ما علينا فعله؟"

"ماذا سنفعل يا فتوة؟"

"لنعمل عملاً أو اثنين في قرى الجبل هذه، وننزل إلى السهل بعد ذلك. ليأتِ الباشا إلى الجبل. هو لا يأتي ياه، وإذا أتى فلنسلط عليه واحدة أو اثنتين من العصابات المساعدة. لتعمل إحداهما عملاً في مكان ما، والأخرى في مكان آخر في اليوم التالي. ونحن في السهل... لن أكون التشغرجوي إذا لم يجن سعيد باشا! جهزوا أنفسكم."

حضروا أنفسهم بسرعة، وانطلقوا في الطريق. كانت الطرق وعرة وصخرية. كانوا يعبرون من هاوية إلى هاوية. قضوا يوماً وهم يتنقلون متسلقين الصخور. كان الحاج مصطفى مسناً. لا يستطيع احتمال الطريق الطويل.

قال: "متُّ يا فتوة. ماذا لو ذهبنا من الطريق السهل؟"

الفتوة: "مستحيل يا حاج! إذا كان عدوك نملة...."

"ماذا يوجد يا فتوة؟ لا يوجد شيء في الطريق. الوشاة يعملون من دون توقف."

"مستحيل يا حاج. لا أفعل هذا حتى لو قالوا مات سعيد باشا وجنوده كلهم."

الحاج يتململ من دون توقف. يشتم الصخور والفرارية ملء فمه. لم يبق حولٌ عند التشغرجوي أيضاً، ولكنه يكز على أسنانه. والآخرون أيضاً خرجوا من إنسانيتهم.

قبيل نزولهم إلى السهل داهمت عصابة قرة علي قرية، واختطفت ابن الآغا إلى الجبل. لم يكن هنالك اسم قرة علي أو ما شابه ذلك. التشغرجوي داهم، وهو الذي خطف. سحب سعيد باشا جنوده إلى هناك وهو في ذروة الغضب. في اليوم التالي، دوهمت قرية أخرى في الاتجاه العكسي تماماً. ذُبح آغا مع أولاده. أرسل سعيد باشا مفرزة مساعدة إلى هناك.

بعد تعب شديد، نزل التشغرجوي إلى السهل. في إحدى الليالي دخل إلى بلدة تِره، وحلَّ ضيفاً على أحد الأغنياء من الذين يأوي إليهم. بقي هناك حوالي عشرة أيام. وضع عينه على أحد أغنياء تره. كان هذا

الرجل أحد أصحاب مزارع كثيرة. ذات يوم نزل إلى بيته.

"لا تتحركوا!"

كان البيت ممتلئاً بالضيوف.

"أنا التشغرجوي."

قال صاحب البيت: "تفضل يا فتوة!"

الفتوة: "خذنا إلى الخزنة"

وضعه أمامه، وقاده إلى حيث الخزنة. جعله يفتح الخزنة. أخذ الحاج الأكياس. كان يوجد ثلاثة أو أربعة آلاف ذهبية. غادروا البيت فوراً. في هذه الأثناء لم يبق أحد في البلدة لم يسمع بأن البيت قد دوهم. دخل الفتوة فوراً إلى البيت الذي يأوي إليه. عندما علم الجنود والدرك بالأمر ربطوا طرق البلدة كلها ، وانتظروا التشغرجوي على أنه سيمر من هناك.

سمع سعيد باشا بمداهمة البلدة وهو في الجبل، فسحب جنوده إلى تِره، واتخذ إجراءات من أجل الإيقاع بالفتوة.

أما الفتوة الذي بقي في بيت المأوى ثلاثة أيام فقد خرج من البيت، وداهم بيوت الأغنياء التي وقعت في طريقه، وانطلق نحو الجبل. عاد إلى القرية من جديد. ووزع جزءاً من النقود على الشباب الذين خدعوا الباشا وعلى القرويين.

لم يبق في الجبل حتى الفرارية الصغار. خمد الجميع. كان ثمة فراري أو اثنان يعاندان التشغرجوي. أحدهما زيبق النبوتي. كان زيبق النبوتي لا يخشاه.

"علينا أن نزيح هذا النبوتي الكلب يا حاج. أرسل الأولاد

لتعقبه."

جاء المراسل بعد أسبوع. اتخذ التشغرجوي تدابيره. جاء إلى حيث يوجد النبوتي. كان النبوتي يلهو. حاصره. طرح النبوتي أرضاً برصاصة واحدة. ونظف عصابته.

فيما بعد قال: "يا حاج! تعبنا جداً. علينا أن نبتعد عن هذه الأمكنة. علينا أن نرتاح."

ذهبوا عبر الجبال إلى الطرف الآخر، إلى نواحي (موغلا). وهناك سلبوا أحد الأغنياء، وقتلوا عدداً من الشراكس الذين نصبوا لهم الكمائن، ووصلوا إلى أنطاليا. استراحوا حوالي شهر ونصف في جبال أنطاليا. بعد ذلك عادوا إلى أمكنتهم، إلى جبال ماراضان، الأصابع الخمسة ، بابا ، وقرنجلي.

-١٧-

آغـا الرحّل: "أتعرف يا فتـوة ماذا يقـول سعـيـد باشا أينما ذهب؟ التـشغـرجوي يهرب دائـماً، لـم يقف أمـامي ولو مرة واحدة. شـهـامتـه هي الهـرب الدائم. لم يرنـا شجـاعـة الوقـوف أمـامنا ولو مـرة واحدة. إمـا أن يعـطه الله، أو يعطني. يقـول هذا بنفـسـه أينمـا ذهب، ويجـعـل رجـاله يقولونه، وينشرونه أيضاً. وهذا من أجل تخريب مكانتك لدى الناس."

يجب أن يفكر التشغرجوي في هذا الأمر. لماذا يفعل سعيد باشا هذا؟ هل يفـعله مـن أجل استـفـزازه أم الإسـاءة إليـه؟ ويمكن أن يـكون الاحتمالين معاً.

"يا حاج!"

"أمرك يا فتوة!"

"لابد من درسٍ لسعيد باشا هذا."

"كيف يا فتوتي؟"

"يجب أن نتواجه."

"صعب يا فـتوة. هذا مستـحيل. أنا لا يمكن أن أقع في هذا. عند الرجل جنود كالنمل."

"إذا لم نتـواجه يا حـاج، فـهـذا يعني أننا مـوتى من زاوية أخرى.

مواجهته أينما كان تعني تسعين بالمئة موتاً، ولكنها ضرورية."

"أنا لست موجوداً حتى لو كانت النسبة خمسين بالمئة."

"يقطع الرجل عرق الروح فينا. يبرد الناس نحونا. ينشر أننا جبناء. فإذا لم ينطلِ هذا في المرة الأولى والثانية، ولم ينطلِ في المرة الثالثة، فسينطلي في المرة الخامسة. سيؤمن الناس بأننا جبناء."

"أنا غير موجود في هذا يا فتوة. أنا غير موجود مهما كلف الأمر."

"يا حاج!"

طأطأ الحاج رأسه، نحو الأرض.

"لملم نفسك يا حاج. اعرف حدّك وإلا..."

لم يغضب الفتوة هكذا من قبل. فهم الحاج، ولكنه رغم هذا قال غاضباً: "اعمل ما تريد. هاأنت، وهاهم رجالك."

"ماذا يعني هذا؟ احك يا حاج، ما هذا؟"

كان سيذهب الأمر إلى اللعب بالرصاص. الفتوة محتد، أما الحاج فمناور. جلس الحاج على حجر. وضع سلاحه في حضنه.

"ماذا يعني؟"

لم يهن أحد فتوةً على هذا النحو في هذه الجبال. وفوق هذا، فإن الذي يعمل هذا معه هو أقرب أصدقائه. يذرع المكان وهو يقول لنفسه: "ماذا يعني، ماذا يعني؟" أعطى قراره. غدا وجهه كالصخر. جاء، ووقف عند رأس الحاج.

رفع الحاج رأسه، ورأى وجهه المتجمد والمتصلّب كالصخر. انتهى الأمر. إذا لم يمنعه، فسيكون ما يكون. نهض، وخطا خطوتين نحو الفتوة.

قال: "لا تؤاخذني يا فتوة. أقدمت على عمل طفلي. بالغت بجيش قرة سعيد باشا بنظري."

بعد ذلك، وضع بندقيته عند قدمي التشغرجوي. تناول التشغرجوي البندقية من الأرض، وأعادها للحاج مصطفى.

"أنت أيضاً لا تؤاخذني يا حاج. هذه هي الفرارية. لو كان أخوك..."

ابتسم الحاج.

وادي كوشك صخري وصعب. وكان وسط مكان بين جبلين. ويسيل ماء غزير قليلاً بين الجبلين. كان هذا جنونياً. ثمة صخور عظيمة في الجبل المحدب الذي في الطرف المقابل. لا يمكن الوصول إلى هناك ببطن أفعى وجناح طائر. إنها منطقة صخرية عسيرة هكذا.

وصلوا إلى وادي كوشك فجر أحد الأيام. دخلوا إلى بيت يؤوون إليه. يسند البيت ظهره إلى الصخور. يصب الماء أمامه غزيراً نحو الوادي. ثمة صخور وسط الوادي. إنها ضخمة جداً. تشبه الجزر الصغيرة. تتدفق المياه حول الصخور كشلالات. تزبد، وتهدر.

"لن يصدّق سعيد باشا المخبر كائناً من يكون."

"ما العمل؟"

"ارتكاب عمل ما..."

"لنرسل عدة أشخاص إذن."

دوهمت إحدى القرى ليلاً، وذهب الخبر إلى سعيد باشا:

عصابة التشغرجوي داهمت القرية، وتنسحب نحو وادي كوشك."

وقف فارس أمام البيت الذي يؤوون إليه. قفز عن الحصان نازلاً.

غدا الحصان أسودَ فاحماً. كان الفارس مرتبكاً. إنه يخفق.

قال: "خذوني إلى الفتوة." فأخذوه.

"يا فتوتي، يا فتوتي! سعيد باشا، سعيد باشا، اصطحب سعيد باشا ذاك جيشه كله، وهو قادم. ملأ الأرض السماء بالجنود وهو قادم... قرة سعيد باشا.. إنه هو. إنه يضرب كل من يراه في طريقه. يضربه بكل ما أوتي.

كان التشغرجوي فرحاً وباسماً. أشار برأسه أنه فهم. أما الحاج مصطفى فقد أدرك مواجهة أمر جلل. ثمة جيش قادم. وثمة باشا عثماني بحقده كله، وكرامته المجروحة، وشبابه، وجيشه الضخم الذي يترأسه. بضعة أشخاص في مواجهة جيش. جنون... المخرج الوحيد هو عدم الثبات والهرب. سيثقبهم الرصاص كالمصفاة هنا في هذا البيت. وإلى أي حدٍّ... سيفرمون بالرصاص كما يفرم الكباب. جاء إلى أمام الفتوة، ووقف عدة مرات. كان يجب عليه أن يقول شيئاً ما، وأن يثني الفتوة عن عزمه. ولكن الفتوة باسم دائماً، وعلى وجهه تعبير ساخر. لم يجرؤ الحاج على قول شيء.

جاء مراسل آخر: "الجنود على وشك الدخول إلى القرية."

ارتبك الحاج مصطفى مرة أخرى، ولكنه لم يستطع فتح فمه أيضاً. يعرف أنه إذا حرك شفته سيتلقى رصاصة. اتخاذ وجه التشغرجوي حالاً ساخرة كهذه، واتخاذه قراراً بأعمال كبيرة، يعني وصول الظلم إلى حده الأقصى. يقول الحاج لنفسه: "هذه هي نهايتنا إذاً. سيكون ما يكون..."

بدأ الاشتباك فجأة ما بين العصر والمغرب. أول رصاصة أطلقها

التشغرجوي من بعيد، بيّن مكانه.

ولكن كم عدد هؤلاء الجنود! كيف جمعوا كل هذا العدد من الناس هكذا؟ كان ينتظر جنوداً، ولكنه لم ينتظر هذا العدد. دهش لحظة، ولكنه لملم نفسه. لا يوجد حلّ. لابدٌ من الهرب.الحاج مصطفى على حق. ولكن كيف يهرب؟ إذا ألقيت إبرة فلن تسقط على الأرض لكثرة الجنود. أحاط الجنود بالمكان تماماً. لا يمكن الهرب.

يرخ الرصاص كالرمل. يمطر جنود سعيد باشا النار على البيت. وبضعة رجال التشغرجوي سمّروا جنود قرة سعيد باشا في أمكنتهم، لا يدعونهم يخطون خطوة واحدة. ثلاثة أو أربعة آلاف جندي لايستطيعون التحرك من أمكنتهم. ولعل هذه هي المرة الأولى في العالم التي تتوازن فيها قوتان مختلتا التوازن إلى هذا الحدّ، ولعل القلة تتفوق قليلاً، في الحرب.

غرق التشغرجوي ورجاله بالعرق الذي يتصبب منهم دماً. يطلقون الرصاص بجنون، ومن دون توقف، ويبدّلون بنادقهم التي ترتفع حرارتها.

وضع قرة سعيد باشا التشغرجوي- التشغرجوي الحقيقي- تحت مخلبه. إذا ضغط قليلاً سيلفظ التشغرجوي أنفاسه في راحة يده. في تلك الليلة أرسل برقيات إلى إزمير واسطنبول، وإلى أصحاب الشأن، وانتشر خبر حصار التشغرجوي في الأرجاء الأربعة. كان الباشا العثماني المغرور سعيداً. وَقَعَ ملك الجبل في النهاية.

لم يكن باستطاعة التشغرجوي اختراق الطوق. هذا غير ممكن. الجنود المتراصّون صفاً واحداً ذراع أحدهم على ذراع الآخر، شكّلوا طوقاً حول البيت. لعلها خمسون طوقاً... وسعيد باشا يتفقد صلابة الأطواق

آخذاً الموت باعتباره. كان إيمانه مطلقاً. لا يمكن التملص من هذا الطوق. وجه الحاج مصطفى القبيح والمحفّر ازداد سواداً وقبحاً. يميل لون وجهه في ضوء مصباح الكاز الشاحب إلى لون الموت البنفسجي. يلحِّق رصاصاً إلى اليمين واليسار. كأن الذين في الداخل ليسوا بضعة فرارية، بل طابوراً يواجه عسكر قرة سعيد باشا.

سعيد باشا يعرف التشغرجوي أيضاً، ومهما صمدت عصابته، مهما صمدت، فهي تصمد يوماً آخر. بعد ذلك، الأمر معروف: إما أن ينتحر أو يستسلم. ينتظر سعيد باشا نهاية التشغرجوي منفعلاً. الحاج مصطفى ينتظر قرار التشغرجوي. مازال على وجه التشغرجوي تعبير الألم والسخرية والقسوة ذاك. لم يلفظ مجرّد كلمة منذ بداية الاشتباك. لا يتكلم التشغرجوي لحظة اتخاذ القرارات الكبرى والأحداث العظيمة. إنه نوع آخر الآن. كأنه قد تقبل الموت. كأنه يسخر من الموت.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، التفت الفتوة إلى الخلف فجأة. مشى نحو الحاج. طار التعبير السابق من وجهه، واتخذ حالاً جديّة، ولكنه تعبير الجمود كالصخر من جديد.

"نادوا صاحب البيت."

جاء صوت من الطابق السفلي: "أنا هنا يا فتوة."

"تعال، وتدبر لي عشرة أكياس. هل يوجد لديك؟ لابد أن تجدها.."

"موجودة يا فتوة، موجودة."

"يا حاج! أرسل رجلين إلى الخارج، وليجمعا حجارة من مكان قريب."

"حاضر يا فتوتي."

تفتح قليلاً وجه الحاج المتجهم الحاقد الموشك على الموت. بدا ضوء أمل حتى ولو كان بعيداً جداً.

"يجب ألا نملأ الأكياس بالحجارة فقط يا فتوتي. لنملأ نصفها بالحجارة، ونصفها الآخر بالصوف واللحف والفرش وأشياء أخرى، فعندما تسقط في الماء تبدو وكأنها سقوط إنسان."

بعد قليل، كانت هنالك عشرة أكياس مملوءة بالصوف واللحف والفرش حتى أفواهها مصفوفة أحدها بجانب الآخر تنتظر.

الفتوة: "وجهوا أسلحتكم نحو الوادي ومياه الوادي قبل إلقاء الكيس الأول، وكأنكم تحمون الملقي."

وُجهت الأسلحة نحو الوادي والماء. توجه رصاص التشغرجوي فترة من مختلف الجوانب نحو الماء الجاري. سمع هذا سعيد باشا وضباطه. قالوا لأنفسهم: "جنَّ هذا الرجل. يطلق الرصاص على الماء، ولا يطلقه على الجنود." ولكن سبب هذا فهم بعد قليل. أُلقي من النافذة جسم إلى الماء. التفت سعيد باشا وجنوده كلهم إلى الماء الجاري. فجأة، واحد آخر من النافذة... لعل ألف إصابة يتلقاها الجسم الساقط. كل نصف ساعة يُلقى كيس. في أثناء إلقائه، كان يُسمع أحياناً صوت: "احترقـ.....ـت!" ويصدر عن الماء صوت ارتطام. حين ألقوا خمسة أكياس، كان جنود سعيد باشا قد جاؤوا إلى حافة الماء الجاري تاركين ثغرة خلفهم. بعد فاصل قصير، ألقوا خمسة أكياس أخرى. مع إلقاء كل كيس، تطلق آلاف الرصاصات، فيغدو الكيس مثقباً.

انسحب التشغرجوي وأعوانه من طرف الجبل الذي بقي مفتوحاً

من دون أن يشعر سعيد باشا كما تُسحب الشعرة من العجين. أخذوا معهم الرجل الذي آواهم كيلا يعمل له سعيد باشا شيئاً. بقي جنود سعيد باشا يطلقون النار على الماء والأكياس التي فيه في ظلام الليل.

انبلج الصباح. هرع سعيد باشا فرحاً إلى جوار الضحايا. نظر، وإذ ببضعة أكياس ملقاة بجوار الماء. غاصت الأخرى في أعماق الماء. جُنَّ جنونه. كم من مرة خدع فيها التشغرجوي!

انتقل التشغرجوي إلى جبل بابا، وارتاح قليلاً، ثم قال: "يحتاج سعيد باشا إلى رسالة حادة الآن." وأخذ ورقة ومحبرة:

إلى حضرة قرة سعيد باشا قالقان درلي الشهير!

بداية، أحييكم بشكل خاص، وأسأل عن خاطركم. أود أن أقول لكم إن الإنسان يسقط مرة واحدة، ولكن دولتكم سقطتم مئة مرة. بلغني أنكم تقولون عني أشياء غير حقيقية في بعض الأمكنة. هذا لا يليق بكم. تقولون إنه لا يواجهني. ولكن كم من مواجهة مثل هذه المواجهه؟ ها نحن تواجهنا. سنتواجه مرة أخرى عند الضرورة. لئلا يكون عندكم أي شك في هذا. أنا أحبك يا باشا. أنا في جبل بابا. لا تنتظروا أكياساً هناك. سأنتظركم هناك. ثم إن لي رجاءً عندكم يا باشا. عليكم ألا تقتلوا مهربي التبغ الفقراء والفرارية البسطاء على أنهم التشغرجوي. فهذا يصعب علي.

أحييكم مرات ومرات يا باشا..

الفتوة محمد التشغرجوي

طار صواب الباشا عندما قرأ الرسالة. لا يعرف ما سيفعله. سأل جالب الرسالة. كان راعياً مسكيناً لا يعرف شيئاً.

لابدّ لنا من العودة إلى الوراء قليلاً، إلى العام الخامس أو السادس لتحوّل التشغرجوي إلى فراري. رأينا في البداية أن مجموعة من الأسباب تدفع الفتوة إلى الفرارية. لا تفارقه هذه الأسباب حتى النهاية.

إذا وَجَدَ أحد الوجهاء في ذلك الوقت شاباً شهماً جريئاً مبادراً فقيراً، فهذا يعني أن أمره منته. يعمل ما يعمله حتى يتدبر أمره، فإما أن يجعله قاتلاً ويوقعه في السجن، أو يصعده إلى الجبل. كان هذا ضرورياً لهم. لهم مصلحة في هذا الأمر. ووجيه من دون فراري يعني جندياً من دون سلاح.

ورأينا في البداية أن الأغوات كانوا سبباً، بقدر ما كانت الأحداث والرقيب سبباً، لدفع التشغرجوي إلى الفرارية. مثلاً كان هنالك خليل آغا وكامل آغا، وكثير من الآغوات والبيكوات الذين لا نعرفهم. وهنالك توفيق ابن المتولي بين الذين يأوي إليهم التشغرجوي، وهو ساعده بالصعود إلى الجبل، وأمن له المأوى. لدى توفيق بيك مزارع ونُزُل وحمامات في ألاشهير. وهو من سلالة درة بيك العظيم، ومباه بنفسه.

في خلافات الحقول ومشاجراتها، كانت عبارته الأولى: "ماذا لو

أرسلت وراء التشغرجوي؟" وعندما يشعر بالضيق يرسل وراء التشغرجوي حقيقة. ويأتي التشغرجوي، ويعمل اللازم بأعداء توفيق بيك. وتوفيق بيك في نواحي ألاشهير يعني التشغرجوي. فهو يلبي كل طلب له، ويهرع لمساندته، ويقدم له كل ما يحتاج من نقود أو أخبار تلزمه.

في العام الخامس أو السادس لتحوّل التشغرجوي إلى الفرارية، يطلبه توفيق بيك لقضاء حاجة له. يذهب التشغرجوي. طلبُ توفيق بيك هذه المرّة لا يختلف عن طلباته السابقة.

يقول: "يا فتوتي! عندي مشكلة مع ابن عمي حول مزرعة، ولاتُحل بأي شكل. اقتل ابن عمي هذا، واطلب ما تريد. أعطك المزرعة إن أردت. ولكن اقتله."

يتوقف الفتوة. لا يتكلم. ينظر إلى الأرض مدة طويلة. يقترب ببطء من توفيق بيك، ويصفعه على وجهه بكل ما أوتي من قوة. يسقط البيك على الأرض وهو لا يدري لما تعرّض له.

"اقتل صاحب دين الغدر هذا يا حاج. وليعلم زوج القحبة كم خادماً كالتشغرجوي عنده."

يقترب الحاج من الفتوة، ويمسكه من يده، ويسحبه جانباً.

يقول: "لئلا نقتله يا فتوتي. إنه رجلنا."

عند الفتوة عادة. كان لا يقتل رجاله لمجرد أمر عادي كهذا. يكفي ألا يقدم على غدر كبير. لهذا السبب عفا عن توفيق بيك.

إثر هذه الحادثة، غدا التشغرجوي على ما هو عليه. أدار ظهره للآغوات والبيكاوات. ولم يصر في أي وقت من الأوقات أداة من

أدواتهم. ولم يستفد منه أي آغا أو بيك. واستخدمهم التشغرجوي. وخنق منهم، وقطع رؤوساً، وسلب. أخذ منهم حقولهم، ووزعها على الفقراء. أخذ أموالهم، وحولها إلى "جهازات" للعرائس وأدوية للمرضى. بعد هذا، غدا التشغرجوي لائقاً باسم أبيه الفتوة أحمد. صار عدوَ الظالمين. بعدئذ اختار موقعه. كان وسط الناس ورجلهم، وعدوَ القصر وكبار الملاكين. في ذلك الوقت أدرك ما إذا كان سيعتمد على العامة أو السادة. لهذا السبب وقف وحده في مواجهة إمبراطورية عظيمة. أرى الناس أنه يتفوق على السادة. وأثبت التشغرجوي أنه أكثر عطاء وقوة من البيك والسلطان. وآمن بهذا، واعتمد عليه حتى النهاية. ولم يشهد في هذا الأمر خيانة أو غدراً. وقد ساعده الناس مهما كلفهم ذلك، ومهما كانت الظروف. وجعل روحه فداءً لهم.

كانت تحدث بعض الاشتباكات الكبيرة. يُحاصر التشغرجوي، ويشعر بالضيق أحياناً. وإذا كان نصف المحاصِرين ضباطاً عثمانيين ذوي رواتب شهرية، فإن نصفهم الآخر، وأكثرهم على الغالب جنود. كان التشغرجوي لا يطلق النار على الجنود في المواجهات. وعندما كان يجز الضباط كما يجزُّ العشب، لا يمس الجنود بأذى. يمكن القول إن أحداً من الجنود المطارِدين له لم يدمَ أنفه. ولكن الأمر يختلف عندما يتمسك الجندي بالأفعى لإنقاذ روحه مصادفة. والجنود يعرفون هذا، ويحمون التشغرجوي بقدر ما يستطيعون.

كان الفتوة إسماعيل أحد أعداء التشغرجوي الصغار. يسمع الفتوة بأن توفيق بيك يتدخل ما بين الحكومة والفتوة إسماعيل، وينزله إلى السهل. وماذا يعني هذا بالنسبة إلى توفيق بيك؟ يتذكر الفتوة قضية الصفعة. بعد الصفعة يلتقط توفيق بيك إسماعيل على أنه صديق.

أهكذا يا توفيق بيك؟ ليكن لك ما تريد! نزل الفتوة من الجبل. وقصد ألاشهير فوراً. وجاؤوا إلى بيت توفيق بيك مباشرة. جاؤوا، ونظروا فلم يجدوا أحداً. وقعت واقعة بين سعيد باشا وتوفيق بيك بسبب التشغرجوي، وبعد أن ضرب توفيق بيك ضرباً مبرحاً على يد سعيد باشا غاب، وغدا سراً. وحسن أنه غدا سراً، لأن التشغرجوي جاء ليقتله.

في هذه الأثناء، وصل خبر: الفتوة إسماعيل في بيته وحيداً. ومن دون أن يأخذ التشغرجوي نفساً انطلق في طريق قرية الفتوة إسماعيل. تبعد القرية عن المكان الذي هم فيه مسافة خمس ساعات، قطعوها بثلاث.

ما لم يفهم، وما أدهش الناس في ذلك الوقت هو حركة التشغرجوي السريعة. أهم خصوصية العصابة هي سرعة انتقالها. تنظر فتجد التشغرجوي في جبل بابا، وتنظر في اليوم التالي فتجده في جبل

برغاما. هذه السرعة تفوق الإنسان. ومن أين تأتي هذه القوة لهؤلاء الناس؟ كانوا مدربين. كل منهم نضج إما في التهريب أو في الفرارية أو الرعي. من جهة أخرى فهم مضطرون إلى الإنتقال من مكان إلى آخر بسرعة. والضرورة تجعل الإنسان يفعل كل شيء. فقد اعتادت العصابات على المشي، والهرب في الأراضي الصخرية إلى حد أن اسمها بين مجموعات الرحّل "عصابة الريح". وحين ينزلون إلى السهل، لا يهمل التشغرجوي التدريب على المشي، كما لا يهمل التدريب على الرماية.

طوقوا بيت الفتوة إسماعيل. بدأ الاشتباك. كان الفتوة إسماعيل وحده في البيت. كان الاشتباك مستمراً بكل قوته. وكان الفتوة إسماعيل شجاعاً، وفتياً. وهو ليس من أولئك الذين يطأطئون أمام أحد مهما كان ذلك الشخص. ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات... كان الفتوة إسماعيل لا يدع مجالاً للتشغرجوي ليقترب من البيت. استمر الاشتباك ثماني ساعات بالضبط. نظر التشغرجوي، وجد أن الأمر لن يحل بهذه الطريقة، فأرسل أحد رجاله إلى القرية مغطياً له بإطلاق النار. أشعل الرجل المسلح البيت، وعاد. صار البيت وسط اللهب. وضع التشغرجوي إصبعه على الزناد، وعينه نحو الباب على أن الفتوة إسماعيل على وشك الخروج. احترق البيت، وصار رماداً، ولم يخرج أحد منه.

بصعوبة بالغة ضبط التشغرجوي نفسه حتى نهاية هذه الحادثة. حين أسدلت الستارة عليها، انهمرت دموعه. وهذه هي المرة الثانية التي يبكي فيها.

قال: "آه لو أنني عرفت أنه شجاع إلى هذا الحد! واخ يا إسماعيل واخ!"

-٢٠-

كامل باشا استدعى قرة سعيد باشا.

سأله: "أين وصلت الأمور يا باشا؟"

"إنها مستمرة يا باشا."

"إلى متى ستستمر؟"

"غير معروف يا باشا. إن الذي يواجهني شيطان. ولكنني سأرضخه عاجلاً أو آجلاً."

وقف كامل باشا، وانحنى نحو سعيد باشا.

قال وكأنه يصرخ به: "يا باشا! خلال كم يوم ستقبض على التشغرجوي، وتجلبه إليّ أخبرني!"

"لا أعرف يا باشا. يمكن أن يكون عاماً، أو عامين."

"هل يمكنكم أن تجلبوه لي خلال شهر؟"

"لا أستطيع جلبه يا باشا."

"إذا كان الأمر هكذا فأنا سأدعو التشغرجوي للنزول إلى السهل."

غدا سعيد باشا وكأن ماءً مغلياً قد انسكب على رأسه. كان يعض على شفتيه من شدة حرصه. هذه هي الهزيمة الثانية لسعيد باشا

بطل مقدونيا وقامع تمرد ألبانيا أمام فراري! ما هذا الأمر؟

بعد أسبوع، كان التشغرجوي مع أفراد عصابته كلهم يمتطون الخيول نازلين إلى السهل. شروطه هذه المرة أقسى على الحكومة، وأكثر إهانة لمكانتها.

كان التشغرجوي قد تعب. إذا عمل الإنسان عملا يحبه فلن يعوقه شيء مهما كان العمل صعباً. لم يكن التشغرجوي يحب الفرارية والقتل، فقد أجبر على القتل والسلب والفرارية. هذا يعني أنه غير مسؤول عن قتله لأولئك الناس وسلبهم، بل القوة التي أجبرته على هذا هي المسؤولة. وما هي تلك القوة؟ هل هي قوة السلطان أم الأمة؟ الذنب ذنبهم. كان لا يوجه التهمة بشكل مباشر، ولكن الأمر الذي يعرفه هو أنه غير مذنب أبداً. كان قلبه نظيفاً كقلب طفل في السابعة من عمره. من قتل حتى الآن؟ الجاويش حسن، والذين ظلموا الناس مستخدمين اسمه، والشراكس والأرناؤوط من رجال السلطان، والذين انتسبوا للضابطة مقابل سبع مجيديات وطاردوه كي يقتلوه. هل كان غير محق؟ كان التشغرجوي يفكر. الحق معه من الأرض إلى السماء. إن شاء الله لا يظهر أمر غير مناسب.

لم يكن الفتوة يخرج من أيا صورة وقايا، ويعمل في حديقته التي لم تكتمل. يوجه تعليماته بضرورة زرع كذا في هذا المكان، وغرس كذا في ذاك المكان من الصباح حتى المساء متجولاً في حديقته. يقيم صلواته، ويساعد الفقراء بقدر ما يستطيع. وقد وُلدت له بنت من زوجته الثانية. يشعر فتوة الجبال العظيم بالأبوة ، ويلعب مع طفلته.

كان قد نسي. نسي الأرناؤوط الذين أحرقهم أحياء، والمرأة التي

أمر بقطع رأسها، وبوصلوأوغلو، والفتوة إسماعيل، وكل شيء، وكل شيء بما في ذلك الجبال والفرارية. لم يخطر هذا بباله ولو مرة واحدة. لم يكن يستطيع النظر إلى الأسلحة. كان يضع المسدس في زناره باعتياد دون أن ينظر إليه كما يلبس سرواله.

هكذا مرّت الشهور. كانت الحديقة والبيت والقرية تشغله. لو أن القرويين لا يتسلطون عليه، ولا يدخلونه في الدعاوى والحقوق والظلامات! لو أنه يعيش كالجميع، وكالقرويين الآخرين... ماذا كان سيحدث؟ لُقب بالفتوة وإن لم يكن هكذا. كان مضطراً للتدخل في بعض الأمور. وكان راضياً بهذا. يكفيه ألا تحل به كارثة جديدة، وألا يمسسه أحد بسوء، وألا يضطر للصعود إلى الجبل مرة أخرى. إنه قانع بهذا ومنذ زمن. كانِ قلبه يرتجف. ولم يبح بشعوره هذا لأحد. ولم يظهر هذا لأحد غير إراظ.

حدث ما حدث ذات مرة، ووقع ما خشي منه...

النقيب رستم بيك هو الشقيق الأكبر للملازم حسنو أفندي الذي قتله التشغرجوي، وقد عُرف بشجاعته بين أعمامه وأخواله وفي العائلة. طارد أخواله التشغرجوي سنواتٍ دون جدوى. العائلة كلها تتحرق للانتقام من أجل حسنو أفندي. ولكن الذي يواجههم هو التشغرجوي. ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ رستم بيك نقيب شهم. كان يصعب عليه قتل شقيقه بهذا الشكل. هدفه الوحيد هو مواجهة التشغرجوي، وإنهاء القضية العالقة بينهما بالقوة. وهذا جرح مفتوح في قلبه منذ سنوات. طارد التشغرجوي فترة عندما كان في الجبال، ولكن حركته في المطاردة جعلت الأمر غير ممكن. يغمض عينيه، ويقفز نحو التشغرجوي. وعندما

يكون على وشك إطلاق النار عليه، يسحبونه. وعندما ينزل التشغرجوي إلى السهل، فلا يدعون رستم بيك يقترب من المنطقة. ولكن رستم بيك متوفر. سيجد طريقة يواجه فيها التشغرجوي قاتل شقيقه. وسيهبه الله هذا، أو يهبه إياه...

صباح أحد الأيام، جاؤوا بخبر إلى التشغرجوي:

"جاء النقيب رستم بيك إلى القرية، ومعه جنوده. إنه يجلس في مضافة القرية."

ماذا يعني هذا؟ أليس هنالك معاهدة مع الحكومة؟ لا يمكن لأي قوة أو رجل حكومة الدخول إلى أيا صورة. ألا يعرف رستم بيك هذا؟ لعل طريقه وقع من هنا؟ يمكن ألا تكون نيته سيئة.

ولكن رستمَ جاء بنية سيئة. لم يستطع كبح جماح نفسه، فأخذ عشرين أو ثلاثين جندياً من أفضل الجنود، وأدار رأس حصانه نحو قرية التشغرجوي، وقاده بسرعة إليها. كان قادماً بحقد، وقلبه يطفح بالنار والانتقام.

كان يعرف أن التشغرجوي يقضي معظم وقته في مقهى القرية. سينزل إلى القهوة فجأة، ويقترب من التشغرجوي، ويفرغ الرصاص في قلبه بأسرع من لمح البصر.

ما قاله لم يحدث في أي مرة. لأنه قبل أن يدخل القرية، وصل الخبر إلى التشغرجوي: "رستم بيك قادم إلى القرية مع ثلاثين من جنوده بأقصى سرعة." واتخذ التشغرجوي ترتيباته. لا يمكن تصور الأمر بشكل آخر.

لم يكن رستم بيك في وضع يمكنه من التفكير بهذا. زاغت

عيناه. غير هذا فقد تم تحريضه من هنا وهناك، ومن الوجهاء والأغوات. دخل المقهى مسرعاً. غضب، وثار. فقد خرج خاوي اليدين. يفكر فيغضب، ويغضب فيفكر. ماذا يجب عليه أن يفعل؟ هل يجب أن يداهم بيت التشغرجوي؟

قال القرويون لرستم بيك: "تفضل!" فجلس.

ثمة طريقة لمعرفة ما إذا كان رستم بيك قد جاء صديقاً أم عدواً.

نادى التشغرجوي رجاله:

"حضروا الطعام بسرعة، وافتحوا طاولة في المقهى. وادعوا رستم بيك. وقولوا عن لساني ألا يؤاخذنا، فهو في قرية! وليتفضل إلى البيت مساءً إن شاء."

فتحت مائدة لعشرين أو خمسة وعشرين شخصاً في المقهى. منوعة لا ينقصها إلا لبن العصفور...

اقترب أحد رجال الفتوة من رستم بيك، وقال: "يسلّم عليك الفتوة، ويقول لك ألا تؤاخذوه، فهذه قرية، ولتأكلوا من زادنا. وتفضل إلى البيت مساءً إن شئت."

كان رستم بيك متوتراً أصلاً لعدم إيجاده الفتوة في المقهى. نفر الدم إلى رأسه حين سمع هذا الكلام. اقترب، وركل الطاولة الممتلئة بالطعام. تناثر الطعام على الأرض.

"الكلاب لا تأكل من زاد كلب ابن كلب، زوج قحبة كهذا. قولوا له هذا.."

أطلق كل ما أتى على لسانه، وشتم، وأهان...

أخبروا التشغرجوي بهذا. جفَّ دم التشغرجوي. هذا يعني الجبال

مرة أخرى. عليه أن يلقن رستم بيك درسه...

"ليتجهز الرجال."

كان هذا فرحاً عظيماً للرجال. تجهزوا فوراً، وكمنوا خارج القرية على بعد كيلومترين. سيمر رستم بيك من هناك.

جاء رستم بيك. دخل الكمين. يكز التشغرجوي على أسنانه. يداه ترتجفان. يكلّم نفسه: "قل يا أسود الدين... ماذا تريدون مني؟ عن ماذا تبحث في القرية؟" انطلقت الأسلحة. سقط رستم بيك وعدة جنود عند حوافر خيولهم. وهرب من نجا...

من لا يلاحق التشغرجوي؟ أي منتقمين!.. شراكس وأرناؤوط وقوات حكومية.. وجهاء قوشوباشي الشراكس، وأحمد الأنظاوور، أخوة الفتوة المقتولين، والوجهاء المسلوب والمقتول أقرباؤهم من الوجهاء ورجالهم... ومن أيضاً!..

تضافر هؤلاء. كيف لا يتضافرون؟ ولأنهم على مدى سنوات يلاحقون التشغرجوي، لا بد أنهم تعلموا بعض الأشياء من أتباعه.

كان يُضيّق على التشغرجوي، وبشكل لم يُضيّق عليه مثله. ولكنه استخدم إمكاناته كلها وذكاءه كله، فلا يفتح ثغرة. ويقتُلُ دائماً، وللاشيء. لم يتصرف جيداً (طاخ)، ذهبت يميناً (طاخ)، وذهبت يساراً (طاخ)، ويجد نفسه على حق. ماذا أراد منه رستم بيك؟ ماذا أرادت الحكومة؟ إذا كان هناك ذنب من قتل كل هؤلاء، فهو في رقبة الحكومة. مسير الفتوة الشهير باختصاص خوض اشتباك هنا، والقيام بعمل ما هناك، جعله يشوي ويقلي، ويوقع المفارز في الكمائن، وينظف من يريد منها.

ونتيجة الملاحقة الطويلة تعلم المطاردون "أن المطارِد يغلب، والمطارَد يُهزم." ولكنها كانت قوات الحكومة. فهي مضطرة للمطارَدة.

سيكون التشغرجوي ممتناً إذا لم يطاردوه. سيعلن حكومته. وهذا ما كان يريده أصلاً. يجب أن يعمل عملاً بحيث يجعل التشغرجوي يطارد المفرزة. يجب أن يغضب بحيث يخطئ.

ما الذي يجب فعله؟ بسيط! يجب إحراق بيت التشغرجوي. ويجب تخريب حديقته التي نمّاها كطفل، وأخذ حريمه وأطفاله وسجنهم في البلدة. ومن أجل الانتقام لبيته المحروق سيطارد التشغرجوي المفرزة. وسيجن جنونه لشدة حرصه. ولإنقاذ حريمه وأطفاله سيداهم البلدة، ويقع في الكمين. هؤلاء لا يعرفون التشغرجوي أيضاً.

بدأ تعذيب عنيف. جزء من الناس يُضربون، ويُقتلون، ويُنفون على أنهم يؤوون التشغرجوي. كان العثمانيون كدوامة موت وظلم فوق الناس. والتشغرجوي سبب هذا. ومع تعرض الناس للظلم يتمسكون بالتشغرجوي أكثر، ويلتفون حوله بدل أن ينفضوا عنه.

المفارز تعلن هذا منذ أسبوع تقريباً. كل شخص يُعلم من يصادفه: في اليوم الفلاني ستحرق الحكومة بيت التشغرجوي، وستخرب حديقته، وستأخذ حريمه وأولاده وتسجنهم.

يقترب اليوم. يوم الجمعة. الوقت عند الفجر. حفر الجنود خنادق حول البيت، وتمترسوا فيها. سيأتي التشغرجوي، ويطلقون عليه النار. سيأتي لإنقاذ بيته! أخرجوا زوجة الفتوة وأولاده من البيت، وأشعلوا النار في البناء. ينتظرون وأصابعهم على الزناد. اللهب يلف الجهات الأربع، ويرتفع نحو السماء. سيأتي الفتوة. أما الفتوة فقد جلس تحت شجرة على مرتفع من القرية يشاهد بيته المحروق، وعلى شفتيه ابتسامة ألم.

احترق البيت، وغدا رماداً. وصار الوقت ضحى. نظرت المفارز، فوجدت أن أحداً لم يأت أو يذهب. انخرطت هذه المرة في الحديقة. تركت المتاريس، وغاصت في الحديقة. أصوات البلطات تملأ القرية. التشغرجوي أيضاً يسمع أصوات البلطات من حيث يجلس. كانت عضلات وجهه مقطبة ولكنه كان يبتسم بألم أكبر.

لم يحدث ما قالته المفارز. انتظر التشغرجوي هناك، فوق القرية حتى الظهر، ثم انسحب ذاهباً.

نفّذت المفارز ما قالته، فأخذت حريمه وأطفاله إلى أودمش، وسجنتهم. انتظر التشغرجوي يوماً، يومين فلم تترك الحكومة أهل بيته. انتظر أسبوعاً، بعد ذلك كتب رسالة إلى قائمقام أودمش. إذا لم يترك الأولاد والحريم، فإنه سيعمل ما لا يخطر ببال أحد. في هذه الأثناء، وقبل أن تصل الرسالة إلى يد القائمقام، قطع الطريق، وسلب بريد موغلا. كان في البريد مقدار كبير من الذهب والفضة. كانت تلك إشارته الأولى. حين سمع قائمقام أودمش بحادثة سلب البريد، ووصلت الرسالة إلى يده، أخرج أفراد عائلة التشغرجوي من السجن، وأرسلهم إلى قريتهم.

كان الفتوة قرة علي قد نزل إلى السهل مع رجاله بأمر من التشغرجوي. لماذا نزل؟ هذا غير معروف. لعله من أجل أن يساعد التشغرجوي سراً عندما يُضيّق عليه. من يعلم؟ ولكن الحكومة لا تدع قرة علي رغم نزوله إلى السهل، فتطارده بشكل دائم. في أحد الأيام، وبينما كان قرة علي ينتقل من قرية إلى أخرى مع رجاله، وقع في كمين للدرك.

"لا تتحرك! استسلم!"

"أنا الفتوة قرة علي."

"استسلم! والق سلاحك على الأرض!"

"لا أستطيع إلقاءه. هناك قرار بيننا وبين الحكومة."

"إما أن تستسلم أو تموت."

ترك الفتوة قرة علي التشرنتشار البندقية التي بيده، وهكذا فعل أصدقاؤه. خرج عدد من رجال الدرك من الكمين، وأخذوا البنادق التي على الأرض والمسدسات والخناجر والمدى التي في الزنانير. وربطوا أيديهم، وساقوهم أمامهم. وانطلقوا في طريق أودمش. صادفوا في طريقهم راعياً، وعدة رحّل، وعدداً من القرويات. بين هؤلاء شخص أو اثنان من رجال التشغرجوي. أبلغهم قرة علي بلسان حاله عن وضعه. ذهب الرجال، وحكوا للفتوة ما حدث في ذلك اليوم. لم ينبس الفتوة بكلمة. صمت فقط، وهكذا بقي.

طوال الطريق يلتفت قرة علي إلى أصدقائه، ويقول: "لا تقلقوا. الفتوة على وشك الوصول. لعله إلى الأمام قليلاً. الآن سينطلق السلاح."

كان الدرك يغنون أغنية. كانت تلك أغنية نصر. كانت تلك الأغنية تقتل قرة علي. يريد أن يصرخ: "أولاد القحبة! سيقبض الفتوة على أرواحكم جميعاً قبل أن تصلوا إلى أودمش. انتظروا."

حل المساء قبل وصولهم إلى أودمش. كان ثمة طريق نصف يوم إلى أودمش. نزلوا ضيوفاً في إحدى القرى. اجتمع حولهم أهل القرية ونساؤها وأطفالها، لأنهم "ألقوا القبض على قرة علي". تباهى رجال الدرك. وبدؤوا يقذفون كذباً: فعلنا كذا وقبضنا على قرة علي. وكانوا

يقـولون إنهم قـريبـاً سـيـقـبـضـون هكذا على الـتـشـغـرجوي، وسـيـسـوقـونه أمامهم كالكلب. وكان قرة علي يكزّ على أسنانه.

في إحـدى اللحظات وصلت حالتـه إلى أنه كـاد يقـول: "اصبـروا قليلاً. تلقى التشغرجوي الخبر للتو، قريباً سيلعن أمهاتكم."

لم يقل، ولم يستطع القول. لم يغضب، ويبح بالسر للعدو. وإلا فإنه سيصرخ بكل ما أوتي.

كـان يضـحك سـاخـراً من الدرك. هم يهـينونه، ويشـتـمـونه، وهو يضحك. بعد قليل، عندما يأتي التـشـغـرجوي يجب أن نرى حال هؤلاء الدرك. يجب أن يشاهدوا كيف سيخافون، ويتوسلون، وترتجف أيديهم وأرجلهم. ولكن هذه فرجة لا يشبع منها ها!

ربطوا يدي ورجلي قرة علي جيداً مع اثنين من رفـاقـه، وأقـفلوا عليهم في غرفة حجرية، ووضعوا على بابهم ستة رجال درك للحراسة. لم يدخل النوم إلى عيني قرة علي. قلبه متوفز. يجب أن يكون الخبر قد وصل إلى الفـتـوة منذ زمن. لم يكن الفتوة بعيداً إلى هذا الحد. لماذا لم يأت إذن؟ سيأتي، ولكن المؤكد أن عنده فكرة ما. من ناحيـة المجيء فهو سيجيء، وينقذهم.

قبل الفجر بثلاث أو أربع ساعات نهض قرة علي من حيث يتمدد بصعوبة، وقال لرفاقه: "يا أخوان، لا تتشاءموا لعدم مجيء الفتوة. هو يعـرف عـمله. سـينقذنا. يدخل إلى قلب أودمش، ويأخذنا من بين أيدي الدرك عند باب السـجن بالضـبط. ويربط أيدي الدرك كلهم إلى الخلف، ويأخذهم إلى الجبل. ألا تعرفون الفتوة أنتم؟"

لم يصدر عن رفاقه صوت. لعلهم نائمون، ولعلهم يسمعون ولايجيبون.

صرخ قرة علي: "سيأتي الفتوة!"

أخاف الصوت الدرك.

في هذه الأثناء يصل مخبر إلى التشغرجوي، ويبلغه بأخبار قرة علي، ويقول له انه سجين في القرية. وبحسب ما سمع، فإنهم سيأخذونه إلى أودمش في الغد، وسيشنقونه هناك.

أبلغ المخبر خبره، وخرج. ومنذ تلقي التشغرجوي خبر إلقاء القبض على قرة علي لم يفتح فمه، أو يقول ولو عبارة واحدة حول هذه القضية. بعد خروج المخبر، وضع رأسه بين يديه. وبقي هكذا. لم يُعرف كم أمضى هكذا، نصف ساعة أو ساعة. بعد ذلك التفت إلى الحاج.

قال: "يا حاج! يجب أن نذهب وننقذ قرة علي. سيشنقونه لمجرد أن يقولوا إننا شنقنا رجل التشغرجوي. ما رأيك؟"

"من السفالة ألا ننقذه يا فتوة، ولكن لنفكر. لماذا يقبضون على قرة علي؟ لنفكر بهذا. يخشى أن العثمانيين يستخدمون قرة علي أداة."

"جاء المخبرون. هنالك فصيل درك على الأكثر."

"الأمر خطير حتى ولو كان دركياً واحداً. خاصة في هذا الزمن... وخاصة في هذه الأيام. ليأخذوا علي. لن يشنقوه اليوم فوراً ياه. سنجد فرصة، ونهرّبه."

ماذا لو شنقوه فوراً؟ ألا تكون فعلتنا هذه خيانة؟ ألا تكون جبناً؟"

قال الحاج: "غير ممكن. لو أنه لم يذهب هكذا على عماه، ويقع في حضن الدرك. نحن لم نسلمه للدرك ياه. لا أحد يستطيع إدانتنا."

لم يرد التشغرجوي. صمت. ولم يتكلم حتى الفجر. ولم يدخل

النوم إلى عينيه.

ساق الدرك قرة علي ورفاقه أمامهم فجراً، ودخلوا أودمش ظهراً. وصلوا إلى أمام باب السجن. انتظر قرة علي ورفاقه لحظة حدوث شيء. لم يحدث.

فجأة فتح باب السجن. نظر علي إلى الباب، ثم تلفت فيما حوله. خطا خطوتين ثم توقف. تلفت فيما حوله من جديد. لم يكن ثمة أحد. قطع أمله. لوى رقبته، ودخل. وأغلق عليهم باب السجن الضخم.

أمسك يد كل واحد من رفاقه، ونظر إلى عينيه:

"من يعلم بماذا يفكر الفتوة؟ لا تحزنوا أبداً. إذا أدخلونا إلى تحت الأرض، ووضعونا تحت المشنقة، سيأخذنا الفتوة من تحتها ، وينقذنا."

-٢٢-

كان التشغرجوي يتضايق. فقد تعلمت قوات المطاردة أساليبه كلها، وكانت تتحرك وفقها. لم يعد التشغرجوي يقوم بعمل ما في مكان، ويظهر في آخر. فقد كان المطارِدون يرسلون من يلاحقه هنا وهناك. ولكن التشغرجوي أيضاً لا يقف دون عمل، فهو لا ينام. فقد كان فريداً أيضاً في إيجاد أشكال جديدة من الحروب. فلا يوجد فتوة مثله في إيجاد أشكال جديدة من تكتيكات الحرب منذ عهد قرة حيدر أوغلو.

جمع رجاله فجأة ذات يوم، وقال: "لنتجول قليلاً في السهل أيضاً."

يعرف رجاله أنه إذا جمعهم حوله، وقال لهم "قليلاً..." وهو فرح، فهذه إشارة لقيامه بعمل جديد وجيد.

اجتمعت العصابة. في إحدى الليالي نزلت إلى السهل. ونزلت في بيت أحد الذين تأوي إليهم. كان هذا المأوى في إحدى قرى قولا. فيه مضافة كبيرة. وليبحث المطاردون في الجبال ما استطاعوا. استراحوا في القرية مدة أسبوع. لم يتكلم التشغرجوي في هذا الأسبوع أبداً، وفكر فقط. بعد ذلك، جاء خبر.

"خرج الدرك من قولا، وذهبوا لمتابعة حادث."

كان الفتوة ينتظر هذا منذ زمن. نهضوا فوراً. ودخلوا إلى قولا. أمسكوا أحد أغنيائها ، وأخذوه إلى الجبل. لم يكن التشغرجوي يقتل أحداً من أجل النقود، أو يؤذيه. من قتلهم كانوا من الأرناؤوط والشراكس. وهؤلاء من رجال القصر، ومطارديه الدائمين. كما كان أيضاً يقتل الظالم آكل الحق. يأخذون من يريدون منه نقوداً إلى الجبل، ويعزّونه، ويكرمونه هناك. وبحسب أقوال كثير من الذين أُخذوا إلى الجبل فإن التشغرجوي أراحهم في الجبل أكثر مما كانوا مرتاحين في بيوتهم، ولم يكن ينقص من موائده حتى لبن العصفور. يقدم للأسير قهوته وتبغه وجريدته وكل ما يحتاجه، ويرى من الفتوة معاملة ظريفة إلى أبعد حد. الفتوة المستأسد أمام غاصبي الحقوق والمتعجرفين والضباط والعثمانيين هو في الحقيقة مهذب جداً، ووقور، ومتواضع، حتى إنه رجل ساكن يمكن القول إنه بحاله وذاته.

بعد أن أبقوا الغني أربعة أسابيع في الجبل، أخذوا منه أربعة آلاف ذهبية وأطلقوه.

في تلك الأثناء كان الفتوة بحاجة لنقود كثيرة. يجب على الفتوة أن يغرق الفقراء بالنقود... وما تبقى معلوم. ثم ان الأغنياء الذين يأخذ منهم النقود هم أولئك الذين لا يحبهم الناس. فهو يضرب عصفورين بحجر واحد في زمن الضيق هذا.

كان ثمة رجل من آل مطاف في طورغوطلو. إنه غني جداً. أرسل إليه التشغرجوي خبراً قبل سنة ليرسل اليه ألف ليرة، فرد عليه هذا الرد: "أنا لا أرسل، ليأت ويأخذها."

صمت التشغرجوي عاماً. بدا غير مهتم. ولكن هذا جرحه. والآن يجب عليه أن يداهم الطورغوطلوي، وأن يأخذ من ابن مطاف عشرة آلاف. عشرة آلاف بالضبط! لا تنقص قرشاً واحداً. ولكن المطاردة شديدة الوطأة... لتكن شديدة! عليه أن يجد طريقة. ذكاء التشغرجوي المدهش ذاك وجد لهذا أيضاً طريقة.

لم يكن في عصابة التشغرجوي أكثر من عشرة رجال مسلحين في أي وقت. ولكنه لو أراد لرفع عدد أفراد عصابته إلى ألف، أو ألفين، وحتى خمسة أو عشرة آلاف، ويكوّن قوة تمرد. قرى منطقة إيجة كلها جاهزة لتكون بأمره، وينظر أهلها إلى عينيه. ومع هذا هنالك مسلحون في القرى مرشحون ليكونوا رجاله جاهزون لتنفيذ أوامره.

كيف يجب أن يداهم التشغرجوي الطورغوطلوي؟ لا يمكن أن يدخل بلدة كبيرة علناً، ويداهم بيتاً فيها. أو على الأصح يجب ألا يداهم. فالتحرك دون اتخاذ الحيطة أمر لا يدخل مبادئ التشغرجوي. ماذا يجب أن يفعل؟

أرسل خبراً إلى عشرين من المرشحين ليكونوا رجاله في القرى. جاؤوا. دخل الصالحية وافتعل فيها واقعة. سار الدرك وجنود الجيش البري، ومفارز الشراكس، والمطارِدون في السهل جميعهم نحو التشغرجوي الذي في الصالحية. وقع التشغرجوي هذه المرة. الفرصة هي هذه الفرصة. يجب النزول عليه بكل القوى. يجب أن تتحقق نتيجة، وتلقى هذه البلية عن رؤوسهم. بدأت المعركة عند الفجر. كانت عصابة التشغرجوي مؤلفة من ثلاثين شخصاً. لم يدع التشغرجوي المطاردين يخطون خطوة أمامه رغم قواتهم الكبيرة. استمرت المعركة بنار جهنمية

حتى المساء. عند المساء قال التشغرجوي للرجال المسلحين المتقدمين: "نحن ذاهبون. استمروا أنتم بالاشتباك حتى منتصف الليل، بعد ذلك تخرقون الحصار وتخرجون. هل فهمتم؟"

"فهمنا يا فتوة."

في هذا الاشتباك أيضاً كانت عصابة التشغرجوي الأساسية تتألف من عشرة أشخاص. سحب الفتوة رجاله العشرة، وأخذهم وذهب. العشرون الآخرون استمروا بالاشتباك حتى منتصف الليل. ولم يدم أنف واحد منهم. ولكن المطاردين فقط مات منهم كثير.

ذهب التشغرجوي المبتعد عن مكان الاشتباك إلى طورغوطلو بأقصى سرعته. كان الوقت ليلاً، والجو مظلماً. أوقف رجلين قادمين من الجهة المقابلة له:

"أنا التشغرجوي، دلاني على بيت ابن المعطفي."

انطلق الرجلان أمام التشغرجوي وأخذاه إلى بيت ابن المعطفي.

صرخ التشغرجوي: "افتح الباب."

لم يفتحوا. شعر من في الداخل بوجود سوء في الخارج. بعد قليل فُهم أن القادمين هم عصابة التشغرجوي. صيحة وصرخة ملأت البلدة كلها.

"حريق! حريق! يوجد حريق في بيت آل المعطفي!"

الجميع يرددون "حريق". اجتمعت البلدة كلها أمام بيت آل المعطفي. تحول أمام بيت آل المعطفي إلى محشر.

نظر التشغرجوي، فوجد أن الأمر غير مقبول، فصرخ بداية، وتبعه رجاله من بعده:

"التشغرجوي! التشغرجوي!"

هربُ سامعي هذا الصراخ ومشاهدي الأسلحة أمام بيت آل المعطفي يستحق المشاهدة. أحدهم يدوس فوق الآخر. من يسقط، يبقى تحت الأقدام. خلال بضع دقائق لم يبق حي أمام بيت آل المعطفي أو في أزقة البلدة. كأن البلدة فرغت قبل سنين وتركت مهملة. البلدة لا تتنفس. البلدة تصدر صوت الصمت.

لم يفتح المعطفي الباب رغم الإلحاح والتهديد بكسره وإحراق البيت. ولكن هل يصمد حتى الجبل أمام التشغرجوي؟ من درج البيت المجاور انتقل إلى بيت آل المعطفي، وانهض ابنه الذي في السادسة عشرة من عمره وأنزله. كل هذا جرى خلال نصف ساعة. خرجوا من البلدة، وأسسوا مقر قيادة في مزرعة مجاورة لطورغوطلو. كان الدرك يبحثون عنهم في الجبال، مع أنهم مرتاحون في المزرعة، ويسكنون فيها.

بعد فترة جاء خبر من المعطفي يقول: "النقود جاهزة، ليأتوا ويأخذوها."

تقمص التشغرجوي والحاج مصطفى شخصية طالبين في مدرسة دينية، وانطلقا في طريق طورغوطلو. وصلا إلى البلدة. تجولا في السوق ثم ذهبا إلى بيت المعطفي. قرعا الباب.

قالا للذي فتح الباب: "خذنا للمعطفي."

أخذهما الرجل إلى غرفة المعطفي.

حين رأى المعطفي طالبي علم، نهض حتى وصل إلى الباب قائلاً: "تفضلا يا شيخيَّ، أهلاً بكما."

في تلك اللحظة قال التشغرجوي: "النقود يا سيد."

اصفرَّ المعطفي. عرفه. ذهب تحت رقابة الحاج إلى غرفة مجاورة، وجلب ثلاثة أكياس من الذهب. أعطاها للتشغرجوي. جلس التشغرجوي والحاج مصطفى هناك، وعدا الذهبيات واحدة واحدة. وتفحصا الذهبيات مرات عديدة للتأكد ما إن كانت مزورة.

وضع الحاج الأكياس في محفظته، وانطلق في الطريق. عبرا من وسط البلدة بهدوء، وذهبا إلى نزلهما.

قالا لابن المعطفي: "ذهبنا، ورأينا أباك. إنه مرتاح جداً. يسلم عليك. أنت حر. سيأخذك أحد الرجال المسلحين."

-٢٣-

بعد ذلك، داهم التشغرجوي سيد قبيلة رحّل، وأخذ ابنه إلى الجبل. فيما بعد عرج على تكية، وطلب من شيخ الطريقة ألا يهرب منه، وأبلغه بإجلاله للدين وكبار رجال الدين. بعد هذا وصل إلى منطقة وادي تشوب وهو يشنق ويقطع ويضرب ويكسر.

في هذه الأثناء قوي المطاردون. التحق بهم أشرف بيك قوشجوزادة مع المفارز الشركسية. زعيم آل قوشجو عسكري، مقدام، ذاع صيته في ذلك العهد. هنالك محمد الضخم مع مفرزته إلى جانب زعيم آل قوشجو. محمد الضخم هذا هو الأخ الأصغر للفتوة إسماعيل الذي حاصره التشغرجوي في بيته، وأحرقه. وهو رجل أكثر شهامة من الفتوة إسماعيل. كان شاباً. قلبه ممتلىء بشعور الانتقام. لا بد له من قتل الذي أحرق أخاه. وحقيقة كان محمد الضخم خطراً على التشغرجوي.

بتوجيهات زعيم آل قوشجو ومحمد الضخم بدأت المفارز تولي اهتمامها بالاستخبارات. وهذا أسلوب تعلموه من التشغرجوي. وقبل مرور وقت طويل أفادهم هذا الأسلوب. وحتى في حال أن حركة التشغرجوي نادراً ما كانت تأتي بشكل صحيح فقد بدؤوا بمطاردته.

ولهذا السبب أيضاً علموا بمجيئه إلى وادي تشوب. أخذ زعيم آل قوشجو ومحمد الضخم مفرزتيهما، وانطلقا نحو وادي تشوب بسرعة. عناصر المفرزتين يزيدون على المئتين.

وقبل انطلاقهم علم التشغرجوي بخبر مجيئهم إليه، ولجأ إلى صخور وادي تشوب.

وصلت المفارز إلى وادي تشوب، ودخلته. وضعت عصابة التشغرجوي المفارز وسط مقص في الوادي. وبدأ اشتباك عنيف. وسقطت عناصر من المفارز في الإطلاق الأول.

كان شهر تموز، وبدأت الحرب عند الظهيرة. مع الرصاص الذي ينطلق من بين الصخور كان ينطلق رش الخردق أيضاً.

فيما بعد أصيب رجلان من رجال التشغرجوي. كما أصيب محمد الضخم أيضاً. حدثت الإصابة على النحو التالي:

قال محمد الضخم لزعيم آل قوشجو:

"ماذا سيحدث هكذا؟ إننا نطلق الرصاص دون جدوى. أسقطناه هذه المرة بين أيدينا. لا بد لنا أن نلقنه اللازم حتى لو متنا جميعاً. إذا أفلتناه هذه المرة لن يقع في أيدينا أبداً."

"ماذا تريد أن تفعل؟"

"أترى تلك الصخرة؟ سأجعلها متراساً. وسأدحرجها، أدحرجها حتى أصل إلى أقرب مكان ممكن من التشغرجوي، وأقتله."

"هذا جنون. الذهاب إلى التشغرجوي هكذا غير ممكن."

"ممكن."

لم يصغ محمد الضخم لأشرف بيك، وتمترس بالصخرة، وبدأ

بالزحف نحو التشغرجوي. حين اقترب منه مسافة خمسين متراً رآه التشغرجوي.

"انظر يا مصطفى، انظر إلى أين أتى ابن القحبة هذا؟"

لو أن الرصاص يصيبه لمزقوه إرباً إرباً. كان قرة محمد آتياً بمهارة، بحيث لا يصيبه الرصاص. زحف، وزحف حتى وصل إلى مبعدة خمسة وعشرين متراً. حينئذ بدؤوا يتشاتمون كالعادة. من لايحتمل، ويظهر نفسه ولو قليلاً يأكل رصاصة. ولكن محمداً الضخم لم يكن من أولئك الذين يغدون هدفاً بالشتائم. فكان يدحرج الصخرة.

قال التشغرجوي: "يا حاج! ابن الكلب هذا شجاع جداً. عندما يقترب أكثر قليلاً سيقفز من مكانه ويرتمي نحونا. انتبه إليه، لنلصق به الرصاص فور قفزه.

وقبل أن ينهي كلامه، قفز محمد الضخم من خلف الصخرة. وجاء قفزه وانطلاق بندقيتين في آن واحد. سقط محمد الضخم كشجرة صنوبر فتية.

"ابن القحبة!"

إثر هذا أنصت الفتوة على الطوق. كان الرصاص قليلاً من الجهة الشرقية. تعبوا. عليهم أن يخرقوا الطوق ويهربوا. خرق الطوق سهل على التشغرجوي كشرب الماء. كان هذا اختصاصه الأهم. أطلق صيحة، ووجهوا البنادق نحو الجهة التي كان يأتي الرصاص منها بشكل أقل. وأمطروا تلك الجهة بالنار، وخرقوا الطوق، وخرجوا. خرجوا ولكنهم لم يُنقَذوا. فقد أبرق الوالي محمود مختار باشا إلى المنطقة كلها بأن التشغرجوي محاصر في وادي تشوب، وأمر بذهاب المفارز كلها إلى هناك.

محمد أفندي البيندرلي ملازم هرع إلى حيث الاشتباك فور تلقيه البرقية. ولكنه سمع في الطريق أن التشغرجوي خرق الطوق، وانسحب باتجاه جوزألانِ. قابل التشغرجوي في جوزألان، واشتبك معه.

محمد أفندي البيندرلي أيضاً شجاع كالتشغرجوي. فقد طارد التشغرجوي خطوة خطوة منذ صعوده إلى الجبل، وخاض معه العديد من الاشتباكات. وسنحت له الفرصة بإطلاق النار عليه عدة مرات. ومنذ صار ضابطاً حتى الآن، بلغ عدد عصابات قطاع الطرق التي نكّل بها أكثر من خمس عشرة عصابة. لهذا السبب لم يخف محمد أفندي البيندرلي من مجابهة التشغرجوي بخمسة أشخاص حيث أخفقت مفارز ضخمة معه.

بعد قليل جاءت مفرزات من الأرجاء كافة، وحاصرت التشغرجوي من جديد. كان الطوق هذه المرة يتألف من ألف وخمسمائة بالضبط. اشتد إطلاق النار. أصيب اثنان من رجال التشغرجوي. كان التشغرجوي يضعف تدريجياً. حين أصيب رجلان آخران من هذه الجهة، وضعف إطلاق النار منها ارتفعت معنويات المفرزة. حينئذ يمكن لقوة مؤلفة من ألف وخمسمئة شخص أن تغرقهم بالبصاق. كما أنه لا يمكن خرق طوق مؤلف من ألف وخمسمئة شخص، والهرب. كان عليه الانتظار راضياً بقدره. استمر التشغرجوي بالاشتباك حتى المساء دون أن يترك ثغرة، وكان على مبعدة ستين أو سبعين متراً من مفرزة البيندرلي. التشغرجوي يرى البيندلي، ويصك أسنانه.

"ولاه ابن القحبة، آه لو قبضت عليك..."

نعم، لو وقع البيندرلي بقبضته فهذا يعني انتهاء أمره. ولو خرج

التشغرجوي سليماً من هنا فإن أمره منته أيضاً.

حينئذ هبط الظلام، وحل الليل. عليه ألا يفوّت الوقت.

قال بصوت خفيض: "اجمعوا حطباً.. أغصاناً صغيرة. وليبق قسم منكم يطلق الرصاص، والقسم الآخر يجمع الأغصان."

جمع الرجال أغصاناً. أمام كل واحد منهم كومة أغصان. ماذا سنعمل بهذه الأغصان.

"اربطوا هذه الأغصان على رؤوسكم وظهوركم."

وهذا اكتشاف جديد للفتوة.

"يجب ألا تتلامس هذه الأغصان بالأجمات. يجب ألا تصدر طقطقة. استمروا بإطلاق النار."

ربط رجالٌ أغصاناً على ظهورهم، وبعضٌ منهم على رؤوسهم.

كان الليل مظلماً، وحاراً. وفي السماء ثمة نجوم كبيرة. أشعة النجوم تكسر قليلاً ظلمة الليل. مفارز تتألف من ألف وخمسمائة عنصر أحكمت قبضتها على السهول والجبال، وتطلق الرصاص إلى هنا وهناك. الرصاص عشوائي. المفرزة المباركة لا يبدو رأسها من مؤخرتها. وهكذا فإن حال التشغرجوي بائس. ألف وخمسمائة عنصر يثقبون الرجل تثقيباً.

"أوقفوا النار، وسيروا دون إصدار أي حفيف."

بدأ أفراد العصابة بالتدفق نحو الجانب الأضعف الذي يؤمن ثغرة. كأن كرة من الأغصان تتدحرج وسط الليل. لعل الريح تدحرجها. وصلوا إلى الهاوية الكبرى.

"توقفوا!"

وقفوا. كان على رأس الصخرة خيال كرة أغصان.

انتظرت المفارز ساعة. انتظرت ساعتين. أطلقت النار بغزارة. لا جواب. إما أن التشغرجوي قد مات أو هرب.

تعبت المفارز. تركت مكان الاشتباك، وانسحبت إلى قرية قريبة. محمد أفندي البيندرلي يعرف التشغرجوي. لم ينسحب. بقي حيث هو مع دركه. كان سيظهر التشغرجوي في مكان ما. لم يمت، أويهرب.

والتشغرجوي الذي على رأس الصخرة أيضاً يعرف محمد أفندي. تحدث إلى عصابته.

"محمد البيندرلي ما زال حيث هو. انسحبت المفرزة. زادها كثيراً زوج القحبة. سنقبض عليه الآن حياً، ونقطعه إرباً إرباً، ونرسله إلى محمود باشا مختار. ولكنني سأجلس مع محمد أفندي جلسة، وأتحدث إليه. سأسأله عن سبب إصغائه للعثماني العدو اللدود للفقراء. ألا يستطيع شهم كهذا- وبعد أن يكون الرجل على هذا النحو- القيام بعمل آخر؟ ما قولك يا حاج؟"

"كما يريد فتوتي."

"ألا يعرفني محمد أفندي هذا؟ أنا صديق الفقراء، ألا يعرف؟ أنا لم أظلم ولو مرة واحدة منذ صعودي إلى الجبل، ألا يعرف؟ طالما الأمر هكذا، لماذا يطاردني طيلة هذه السنوات، وكأنني قاتل أبيه؟ سأكلمه. بعد ذلك، سأرسله هدية للعثماني."

ماذا يجري للفتوة؟ لم يكن في أي وقت انفعالياً ويتحدث طويلاً هكذا. لم يكن يبوح بما يفكر فيه هكذا. هذا يعني أن أمر محمد أفندي أثر فيه كثيراً.

قال: "امشوا. ستلتفّون عليهم من الخلف، وتطلقون النار على

الدرك، ولن تمسوا محمد أفندي. تقبضون عليه حياً، كما أقول."

انفعل التشغرجوي الذي لا ينفعل بسهولة. كان يقول مكرراً: "حياً، حياً".

فجأة انطلقت الأسلحة من الخلف. نظر محمد أفندي فوجد رفاقه الذين بجواره قد ماتوا جميعاً، وبقي وحده سليماً. يقول التشغرجوي من على مقربة:

"استسلم يا محمد أفندي، وألق سلاحك، وإلا ستنالها."

فكر محمد أفندي كالبرق. كيفما يكن لن يتركه التشغرجوي حياً. خلفه منحدر حاد مخيف. ترك نفسه للمنحدر بدل أن يسلم نفسه.

حدث هذا بسرعة، وبلمح البصر مما لم يدع حتى للتشغرجوي الرجل الداهية فرصة استخدام سلاحه. قال: "واخ من صاحب الدين العاهر، واخ. ألقى بنفسه إلى المنحدر الحاد وفطس بدل أن يسلم نفسه لي. ليفطس."

ولكنه كان حريصاً. كان منهاراً تحت سيطرة الشعور بالفشل. كان يعرف أن محمد أفندي الذي رمى بنفسه إلى الهاوية الرهيبة سيتقطع إرباً. هو يعرف هذا المنحدر الحاد منذ القديم. كان صخرياً، وحاد الحواف. حواف الصخور مدببة كالسكاكين.

نظر محمد أفندي الذي فقد وعيه لحظة، فوجد نفسه معلقاً. صحا. علق بشجرة في المنحدر. ولكي لا ينزلق في المنحدر من جديد تمسّك بالحجارة متحسساً لها بيده، وأنقذ نفسه من المكان العالق فيه.

في هذا الاشتباك قتل رجلان من رجال التشغرجوي، وبقيا هناك، وأصيب اثنان آخران بجروح. ثمة ضرورة للهرب، وإنقاذ النفس.

"ابقيا أنتما في حقل الذرة هذا. لا تتحركا. أنا أرسل لكما حصانين غداً، وآخذكما."

"رحماك يا فتوة! يمكن أن يجدونا، ويقتلونا."

"ابقيا هنا. لا نستطيع أن نأخذكما. الخيول تأتي قبل الفجر، وتأخذكما. اختبئا."

بقي الجريحان. وانطلق التشغرجوي في الطريق. كان متعباً، ومنهاراً.

في هذه الأثناء تمدد محمد أفندي في حفرة مطاولة بعد أن خرج من المنحدر، وكان ينتظر. ينتظر الصباح. لم يتحرك. الوقت ليل ومظلم. النجوم تضيء المكان قليلاً. كانت النجوم كبيرة.

نظر فجأة، فوجد عدة رجال قادمين نحوه. كانوا يتحدثون بصوت خفيض جداً. مروا بجواره. هؤلاء من عصابة التشغرجوي. ترى أي منهم التشغرجوي؟ بدأ محمد أفندي يرتجف منفعلاً. لم يكن في بندقيته سوى رصاصة واحدة. آه لو أن هناك أكثر. كان سيشعل اشتباكاً. كانوا عابرين من أمامه وهم يأرجحون بأيديهم.

قال محمد أفندي لنفسه: إذا كان لا بد من الموت فليكن. لعل هذه الرصاصة تجد التشغرجوي! لم يتجاوز الفرارية مائتي متر. لعل هذا الذاهب في المقدمة هو التشغرجوي. إنه يذهب أمام العصابة دائماً، وفي كل الظروف. صوّبَ، وضغط على الزناد.

قال التشغرجوي: "أصبت يا أصدقائي، أصبت."

أصابت الرصاصة خصره. قال: "لا تهتموا لنتابع طريقنا. علينا ألا نبحث عن مطلق النار. لا وقت لدينا."

كان محمد أفندي ينتظر عودة المفرزة في الحفرة المطاولة. اختبأ جيداً وسط أكمة، وانكمش. حمل الحاج مصطفى التشغرجوي على ظهره، وقال: "لعلها رصاصة طائشة يا فتوة. وإلا فإن مطلق الرصاصة لابد له من الاستمرار."

سأل الفتوة: "هل كان سيستمر؟"

كان يعرف أنهم صوبوا عليه، وأطلقوا الرصاصة. ولكن من يا ترى؟ عرف التشغرجوي هذا بعد زمن طويل.

-٢٤-

ضغطوا على علي قرة في أودمش كثيراً. كانوا يريدون معرفة مآويهم.

ثمة ابتسامة ساخرة على شفتي علي قرة دائماً: "مآوينا؟ تسألوننا عن مآوينا؟ إنها قرى الجبال والسهول كلها. كلها مآوينا. أنتم أيضاً تعرفون مآوينا."

"مأواكم الأساسي، الأكبر، من هو؟"

"الجميع. والله، وبالله الجميع!"

كان يسقط في الهم أحياناً، فيقول: "أين بقي هذا الفتوة؟" بعد ذلك يجيب نفسه: "المفارز تضايقه كثيراً هذه الأيام. ونحن هنا نبقى متمددين. لا بد أن يأتي يوماً، ويأخذنا من هنا."

فيما بعد صدر أمر النقل إلى إزمير.

قرة علي: "أنا أعرف يا عزيزي، أنا أعرف! لماذا تأخر الفتوة؟ تلقى خبراً أننا ننتقل إلى إزمير، فسيداهم القطار، وينقذنا. هذا الأمر سهل، وهو عمل أكثر شهرة وصيتاً."

جاء موعده. جلبوا قرة علي وأصدقاءه إلى محطة القطار. كانت المحطة مزدحمة بشكل غريب. ملأت البلدة المحطة لرؤية قرة علي رجل

التشغرجوي الخاص جداً.

وصل القطار، ووقف على الرصيف. قيدوا قرة علي ورفيقين له مع بعضهم بعضاً. انشق الزحام إلى نصفين. مروا من الوسط. بحث قرة علي عن شخص وسط الزحام، بعد ذلك نزلت عيناه إلى الأرض. ابتسم ابتسامة وقار وتكبر.

قال: "أنا أخطأت. هذا المكان غير مناسب. لا يستطيع الفتوة أن يأخذ رجلاً وسط الزحام. الفتوة متواضع، لا يحب الاستعراض."

لا يهتم صديقاه أبداً. كانا يفكران دائماً. وجهاهما يائسان وأصفران وجامدان وفاقدان بريقهما كله. كانا نصف ميتين، ونصف حيين. اندس أحدهما بالآخر، وأيديهما مسبلة. يتفرج قرة علي عليهما، ويطير صوابه.

تحرك القطار.

قال الفتوة قرة علي: "انظروا إلي. بعد قليل سيوقف قرة علي القطار، ويأخذنا. ما هذا الحداد؟ إنكم هكذا كالنساء!"

كان بجوار نافذة القطار. خمسة عشر دركياً على جانبيه وأمامه. كان ينظر من النافذة إلى سهل أودمش، وإلى الجبال ما بعدها. حل وقت العصر. حل المساء. غابت الشمس. عينا قرة علي على الخارج.

يبحث عن ظل ما أمام القطار. يرى واحداً أو اثنين، فيخفق قلبه. يصل القطار إلى الظل، ويتجاوزه. يدرك قرة علي أن ذاك الظل ليس التشغرجوي، بل أجمة.

تحل لحظة، يبطئ القطار. يكاد يسمع صيحة التشغرجوي المخيفة تلك: "يا أصحاب الدين الأسود!" بعد ذلك يصرخ: "يا فتوة علي! يا

فتوة علي!" ولكن القطار يسرع.

نهض قرة علي وجلس، ورأى التشغرجوي في كل أجمة وفي كل ظل حتى وصل إلى إزمير. وصل إلى محطة بصمانة وتوقف.

التفت قرة علي إلى صديقيه: "لا تشكا بمقدار شعرة بالفتوة لأنه لم يأت. هو لا يتركنا بين هؤلاء. لو كانت يداه الاثنتان في الدم لأتى، وأنقذنا. من يعلم بما يفكر، ويخطط له! لا تفكرا أبداً، إنه لا يتركنا هنا أيضاً، بين أيدي العثماني..."

بعد ذلك، نظر إلى وجهي رفيقيه. كانا يائسين، وجامدين... غضب من هذا. نصحهما نصيحة إثر نصيحة:

" ييئس هكذا من لا يعرف الفتوة، ولا كيف يكون. أقول لكما ياصديقَي. لو وضعونا في مكان لا يصله جناح رصاصة، ولا بطن أفعى فإن الفتوة يجدنا، ويأخذنا من بين أيديهم. لئلا يدخل الشك إلى قلبيكما. اضحكا، وارقصا."

عندما يتكلم قرة علي هكذا يشرق وجها رفيقيه لحظة. بعد ذلك، عندما يُنسى تأثير كلماته يُدفنان في ظلماتهما.

ألقوهم في السجن. كأن قرة علي قادم إلى عرس أو فرجة وليس إلى السجن. فرحٌ، ومبتسم دائماً. تبادل الحديث مطولاً مع أصدقائه القدامى.

حل وقت المحاكمة. ملأ الإزميريون المحكمة وساحتها لكي يتابعوا المحاكمة، ويروا رجل التشغرجوي الشجاع الشهير الذي يخرق حصار جيش مؤلف من أربعة آلاف جندي ويخرج.

بدأت المحاكمة:

"أنت سلبت الآغا الفلاني في المكان الفلاني؟"

"أنا."

"قضية الثمانية عشر شخصاً تلك؟"

"أنا."

في المحكمة، كان قرة علي ينظر بتعال إلى القاضي، والمدعي العام الذي يكيل له اتهامات كبيرة، ثم يبتسم.

حكم بالإعدام.

حين سمع صديقاه لفظة الإعدام انحلت ركبهما. أحدهما انهار في مكانه، والآخر اصفر، وبدأ يبكي. كان قرة علي يضحك. ضحك من هيئة المحكمة، وقال بصوت غليظ:

"الإصبع الذي يقطعه الشرع لا يؤلم. دمتم." ألقى نظرة على رفيقيه، ورأى حالهما، وحزن: "لا تصيرا هكذا مثل النساء، ما يُكتب على جبين الشهم يراه. لا يأتي على جناح طائر. هل فهمتما؟"

سيأخذون قرة علي ورفيقيه إلى أودمش لشنقهم هناك، وليأخذ الناس عبرة. مرة أخرى وضعوا محكومي الإعدام في القطار منتصف إحدى الليالي، وجروهما إلى أودمش. عندما خرج القطار من إزمير، بدأ قرة علي بترديد أغنية شهامة فرحة. لولا أن القطار ضيق، وأن الدرك من حوله لنهض ورقص رقصة الشهامة وهو يضرب بيديه على ركبتيه، وليقل الناس ما شاء الله.

وصل القطار إلى أودمش. لم تكن المحطة تتسع لرجل إضافي واحد. امتلأت إلى هذا الحد. نزل قرويون من القرى البعيدة وقرى الجبال. سمعت أودمش كلها بأن قرة علي سيعدم.

في أثناء نزول قرة علي من القطار ببطء كان ينظر إلى الزحام معانداً. يبحث عن الفتوة مرة أخرى.. عن شخص بزي طالب مدرسة دينية وخف ولفة... أين ولاه؟ أين بقي الفتوة؟ يا للفرص التي يخسرها هذا الفتوة. أما كان يمكنه أن يقطع سكة القطار ليلاً ويأخذنا؟ أما كان يمكن أن يداهم المحطة ويأخذنا؟ أما كان من الممكن أن يخرج من هذا الزحام ويقول: "تعال يا فتوة علي، مكانك في الجبال وليس في السجن."؟ أين بقي؟

ابتسم للازدحام ابتسامة صداقة وأخوة بشاربه المفتول، وعينيه الواسعتين الفرحتين، وطوله الفارع، ووجهه الأسمر. كان ثمة فصيل درك قد طوق المحطة. رآه، وابتسم له أيضاً. فجأة خطر هذا بباله. ألن يأتي الفتوة؟ بعد ذلك، خجل من نفسه. أيمكن ألا يأتي الفتوة؟ إنه يتحين الفرصة المناسبة. سيعمل الفتوة لهم عملة تجعلهم يعضون أصابعهم دهشة.

نظر إلى صديقيه مطولاً في سجن أودمش، وقال: "بالناقص من صديقين جبانين مثلكما. سيأتي الفتوة. كيف جاء عندما أطلق النار على عثمان الصغير؟ هكذا سيأتي. لو أرسل العثمانيون جيشهم كله، وحاصر أودمش، سيخرق الفتوة الحصار، وينقذنا. ألا تعرفان الفتوة أنتما؟ اضحكا وارقصا. لماذا يسيطر عليكما الهم والغم؟ العثمانيون ارتكبوا سفالة، وهو سيريهم. لا مجال لوقوف ببلاهة كطائر البحر."

استمرت حياة السجن هكذا بآمال تقفز. كأن قرة ليس محكومَ إعدام بل ضيف قصر ذي حظوة. يتجول في السجن بمواقف كهذه، ويفتّل شاربيه.

فجأة أخرجوه من مهجعه صباح أحد الأيام قبل شروق الشمس. أدرك أنه ذاهب للشنق.

سأل ضاحكاً: "إلى الجبل؟"

لم يردوا.

قال في داخله: "لا بد أن الفتوة قد سمع بهذا. الآن هو في الطريق. سيأتي ويأخذني. كيف سيفرق رجال الدرك هاربين؟ لا بد من رؤية هذا."

بحث عن الفتوة عند كل زاوية، وتحت كل شجرة أثناء مشيه عبر أزقة أودمش إلى الساحة. اعتقد أن كل رجفة هي الفتوة. ولكن الفتوة غير موجود.

وصل إلى تحت المشنقة. ألقى نظرة إلى الزحام، وأخرى إلى القنب المزيت. ابتسم. إنها النهاية. الفتوة على وشك الوصول.

بعد قليل أصعدوه إلى المنصة. وقف على المنصة، ونظر مطولاً إلى الزحام، وبحث.

قالوا: "كلمتك الأخيرة؟"

لم يرد. كان ينظر بإصرار إلى الجبال والزحام والحبل. لم يخرج الفتوة. تجمدت ابتسامته على شفتيه. أدار وجهه نحو الحبل. كأنه يحدث نفسه.

قال: "ترى لماذا تأخر الفتوة؟"

وأدخل رقبته في الحبل.

× × ×

سقطوا في حقل ذرة. كان الليل يصدر حفيفاً، ويصدح. لم تكن

ثمة طقطقة في أي طرف.

تتلامس أوراق الذرة فتصدر حفيفاً كحفيف القرطاس. يبدو أن ماءً يجري بعيداً. يتناهى صوت دفق ماء من بعيد. قبل قليل كان المكان هنا كجهنم، ولا يمكن المرور منه لكثافة أزيز الرصاص. لم يشعر التشغرجوي المصاب بخاصرته بالألم بداية، ولكنه بعد وقت قليل، وبعد برود الجرح شعر هو وقلبه بألم لا يحتمل.

قال الحاج: "يا فتوة!" وكان في صوته ما يشبه الخوف.

أدرك الفتوة ما أفاد به صوت الحاج، فقال: "لا تهتموا، لا يوجد ما لا يحل بالإنسان."

إنها المرة الأولى التي يصاب فيها الفتوة، وهي المرة الأولى التي يعاني فيها من الألم.

قال: "أمشي. علي أن أمشي. علينا أن ننطلق بطريق الجبال قبل أن تشرق الشمس، وأن نضيع أثرنا. العدو يصعب علينا."

حاول المشي. ضغط على نفسه فترة ومشى. بعد ذلك توقف، وأخذ نفساً. فهم الحاج الأمر.

قال: "يا فتوتي. سأحملك على ظهري إن سمحت لي."

لم يجب الفتوة. اقترب الحاج، ووضع صديقه الأقدم على ظهره. وانطلقوا في الطريق. أصيبت قدماه، وانحلت يداه. كاد يغمى على الحاج، ويموت الفتوة. ولكنهم وصلوا الجبال مع بزوغ الفجر.

قال الفتوة: "شكراً لله! شكراً لله أننا شهدنا هذا اليوم أيضاً..."

في هذه الأثناء أُعلم الرحّل، وهم نازلون إلى السهل السفلي. سمعوا بأن فتوتهم مصاب. كانت قلوبهم تبكي دماً، وبدأ جراحوهم

بالتوافد. وليس واحداً أو اثنين. صنع الشبان ما يشبه الحمالة، ووضعوا فوقها فرشتين، وألقوا فوقهما لحافاً قطنياً. صنعوا الحمالة بحيث تحمل عشرة أو خمسة عشر شخصاً.

وضعوا الفتوة على الحمالة، وأخذوه إلى أول قبيلة في السفح الصنوبري. هناك أجريت له عملية. ودهن الجرح بمرهم ذي رائحة مصنوع من ألف زهرة جبلية وزهرة، ولم يجرب منذ عصور. ارتاح الفتوة. أغمض عينيه ساعة أو ساعتين. بعد ذلك رفع جفنيه ببطء. نادى الحاج. جاء الحاج، وجلس عند طرف الفراش.

قال: "يا حاج أتعرف بماذا أفكر؟"

كان وجهه منوراً، ويبتسم بشكل حلو. الفتوة الآن في سريره كطفل سعيد.

قال الحاج: "لاااا"

"إنسان يا حاج.. يقول من رضع حليباً نيئاً لا يوثق به ياه! هذا كذب. يوثق به. افعل معهم قليلاً من الجود يضعوك تاجاً على رؤوسهم. أليس كذلك يا حاج؟"

كان الحاج يفكر.

استمر الفتوة بحديثه قائلاً: "هكذا يا حاج."

نام الفتوة طويلاً. جراحو الرحّل يدورون حوله كالطيور. كانوا يتسابقون فيما بينهم. جمعوا ما آل إليهم من الآباء والأجداد من معارف، وجمعوا كل ما يعرفونه من أعشاب تداوي الأوجاع، وصنعوا منها مرهماً، ودهنوا جرح الفتوة. وشفي الجرح.

في هذه الأثناء، كان يسأل باستمرار عن قرة علي الأسير. كلما

سأل عنه يقولون له إنه في سجن أودمش. لم يخبروا الفتوة بنقله إلى سجن إزمير. لو قالوا هذا له، سينهض وهو جريح، ويداهم القطار، ويحاول إنقاذ قرة علي.

"أين علي الآن؟ ما الأخبار من عند علي."

"إنه في سجن أودمش يا فتوة."

"جيد إذن. إذا شفي جرحي، نذهب فوراً، ونداهم أودمش، وننقذ علي. ارتكب العثمانيون سفالة مع علي. وحدث هذا بسببي."

في أحد الأيام جاء خيال، وسحب الحاج على مبعدة عن الخيام. قال: "سيشنقون الفتوة قرة علي بعد يومين. قال البيك الذي من جماعتنا سلموا لي على الفتوة، وليأت، وينقذه. لئلا يصدر عني سفالة بحقهم. إنه في الساحة بعد يومين."

ذهب.

غرق الحاج بالتفكير. أيخبر الفتوة بهذا أم لا ؟ إذا أخبره، فهو جريح. وإذا اشتد عليه الجرح فهذا يعني موتهم جميعاً. ولكن من جهة أخرى ستكون سفالة بحق قرة علي. كان رجلاً صديقاً، وشهماً...

تلوى الحاج على مدى يومين. لم يدخل النوم إلى عيني هذا الحاج الظالم الجزار. كانت حتى السكين لا تستطيع فتح فمه. جلس في مكان، لا يستطيع الحركة. خطر بباله عدة مرات أن ينهض، ويخبر الفتوة بهذا، ولكنه تراجع عنه. خطر هذا بباله فجأة: عليه أن يذهب من دون أن يخبر الفتوة، ويداهم أودمش، وينقذ قرة علي. ولكنه لايستطيع القيام بهذا من دون إذن الفتوة. وفي أثناء تردده حول ما إن كان يجب عليه أن يأخذ الإذن أم لا، حل الوقت، ومر.

قال الحاج: "وااخ! وااخ! ارتكبنا سفالة بحق شهم كالجبل."

وقرب عصر أحد الأيام، جلب الخيال خبر الشؤم.

أول ما قاله الفتوة يوم تحسن، ونهض على قدميه: "هيا جهزوا أنفسكم. إلى أودمش فوراً. لنأخذ علي، ونجلبه."

صمت الجميع.

"لماذا سكتم؟"

لم يكن هنالك من يجيب.

"احكوا! هل وقع أمر ما لعلي؟"

صمتوا من جديد.

"يا حاج!"

"أمرك يا فتوتي."

"شنقوا علي أليس كذلك؟"

أطرق الحاج رأسه.

"هذه تسمى خيانة كبرى يا حاج. كان عليك أن تبلغني حتى لو كنت على فراش الموت. أسفي عليك يا حاج! لم يكن قرة علي يتوقع هذا مني. أنا لن أرى نجاحاً بعد الآن يا حاج. امشوا."

سار الفتوة في المقدمة. إلى أين كان ذاهباً؟ غير معروف. حل الظهر والفتوة يسير. لم ينظر خلفه ولو مرة واحدة. حل المساء، ونزل الظلام وهو يسير. كان يسير بالسرعة ذاتها، والغضب نفسه. جاع الذين خلفه، وانتهوا. لم يستطيعوا فتح أفواههم والنبس بكلمة واحدة للفتوة. كان الفتوة غاضباً. في تلك اللحظة لم يكن هنالك أمر لايقدم الفتوة على فعله. يمكن أن يشنق ألف شخص، ويشعل النار في عشر قرى أو

ولاية. رأوا حاله وقد طار صوابه، وسار في الطرق كثيراً، ولكنهم لم يشهدوا أنه سار مسافة بهذا الطول.

وقعت منطقة صخرية في طريقهم. الفتوة الذي في المقدمة لم يغير موقفه، وبقي متقدماً كأنه يسير في طريق سهلة. كان وقوراً. ينزلق على الأرض بعيداً وكأنه صخر أو مقدس أو شجرة مقطوعة أو جزء من جبل أو أي جزء من الطبيعة.

الذاهبون من خلفه يتهامسون. لم يكن التشغرجوي ليسمعهم حتى لو صرخوا.

"متنا يا شباب. ماذا سيحدث بعد الركض من خلفه؟"

"يجب إخباره"

"لن يسمع. سنذهب من خلفه إجبارياً. لن يسمع..."

قطعوا منطقة الصخور الحادة، ووصلوا إلى سهل. عبروا مجرى ماء. يمشون خلف الفتوة بخطى راكضة منذ منتصف الليل. أرادوا أن ينحنوا، ويشربوا ماء. وفي وقت شربهم الماء، كان الفتوة قد سار مبتعداً عنهم وحده. شربوا الماء على عجل، وركضوا من خلفه.

أشرقت الشمس. استطالت الظلال في السهل. الظلال في السهل المستوي لا متناهية الطول. السهل ممتد، وقفر. لم يكن هنالك حتى حدبة صغيرة. إنه كالوعاء المبيض. والخضرة تناثرت هنا وهناك.

صار الضحى والفتوة يمشي في السهل طيراناً. هم بقوا في الخلف بعيداً. إذا بقي ذاهباً هكذا فلن يتمكنوا من اللحاق به، سيضيع عن عيونهم. ثم إن السهل خطير جداً. ماذا يمكن أن يفعلوا لو حوصروا في هذا السهل المترامي الأطراف. عصابة التشغرجوي تهرع من الموت إلى الموت!

عض الحاج على روحه، وركض خلف الفتوة. كان خائفاً. في لحظات كهذه، لو خرج أمام الفتوة أبوه أو زوجته، أو حتى روحه لما تردد بقتلهم. قال الحاج لنفسه: "إذا كان موتاً فليكن." ولحق بالفتوة، وأمسك طرف ذراعه الأيمن.

قال: "يا فتوتي، قف يا فتوتي قليلاً."

بدا الفتوة وكأنه توقف. التفت إليه. كان وجهه قد تجهم تماماً، وعيناه غارتا في محجريهما، ووجهه تهدل، وجبينه تجعد. وبعد أن خطا خطوة أو خطوتين، توقف.

"ما هذا يا حاج؟ ماذا يوجد؟ احك!"

"سلامتك يا فتوتي. إلى أين نحن ذاهبون؟ لو نجلس قليلاً. الأصدقاء بقوا في الخلف. لو انتظرنا قليلاً."

وقفا منتظرين أصدقاءهما. وصلوا.

سأل الحاج بصوت رقيق: "لو ارتحنا يا فتوتي."

الفتوة واقف: "نعم، لو ارتحنا. لو ألقينا التعب عنا. جعنا أيضاً. لو أكلنا."

الحاج منهار، ومعدته تتخدش: "لو أكلنا."

جلسوا.

كان الضباب ينقشع عن السهل.

تحسن وجه الفتوة بشكل بطيء. فقدت عيناه ثمالتهما، وصحا.

قال وهو يئن: "يا حاج! يا حاج! ماذا قال علي وهو يشنق؟ من يعرف... قال: غدر بي الفتوة. أليس كذلك؟"

الحاج: "علي ليس من أولئك الرجال الذين يقولون هذا يا فتوة.

كان رجلاً شجاعاً وشهماً. لا بد أنه عرف بأن واقعة ما وقعت لنا. فهو ليس من أولئك الذين يقولون هذا."

وضعوا الطعام في الوسط. فتحوا مطراتهم. تناول الفتوة لقمة. مضغها، ومضغها، ولكنها لم تتجاوز بلعومه. بصقها.

ذهبوا حتى قونية. عبروا سهل قونية من أوله إلى آخره. ووصلوا إلى أرمناك، إلى عند الرحّل الذين هناك. كان الفتوة يتضايق عند هؤلاء الرحّل. لم يجربهم. ثم إن هؤلاء لا يعرفون قيمة التشغرجوي كالآخرين. مهما كان فقد سمعوا به من بعيد. من جهة أخرى فالأصدقاء والمآوي وشبكة الجواسيس التي في منطقة إيجة غير موجودة هنا، ولا يمكن أن تشكل بسهولة. إذا سمعت الحكومة بأنه هنا فستلقي القبض عليه فوراً. إلى أين يهرب، وأين يختبئ؟ الشهادة لله أن هؤلاء الرحّل لا يقصرون بإبداء الاحترام. كل ما يريده أمامه، وما لا يريده خلفه. هل يخافونه أم يحبونه؟ هذا غير معروف. ولكن هؤلاء الرجال كرماء.

المكان هنا خطير. عليه أن يصعد إلى جبله مهما يكن. توجد هناك مئة قرية تهبه أرواحها بأطفالها ونسائها.

بحثت عنه قوات المطاردة طيلة شهرين، وتعبت. فقدت سرعتها. إذا تخطيت الاندفاع الأول لأمر ما فلا تخف، سيتراخى في النهاية.

مساء أحد الأيام، انطلقوا من جبال أرمناك. كانوا عائدين كقبيلة رحّل. كل منهم ارتدى زي الرحّل، وخبأوا البنادق على الجمال، وركبوا الخيول. كانت معهم عائلة رحل بنسائها وأطفالها. ولقاء

صداقتهم هذه أعطاهم التشغرجوي نقوداً لن يستطيعوا كسبها طوال حياتهم. استغرقت هجرة الرحّل من أرمناك إلى سفوح جبل بابا عشرين أو خمسة وعشرين يوماً.

نزلوا ضيوفاً لدى عشيرة رحّل. أرسل خبراً إلى هنا وهناك. جاء الرحّل والمخبرون القدماء. علم التشغرجوي بما جرى في غيابه.

علمت قرى الجبال والسهول معاً بعودة التشغرجوي. فرحت. منذ ذهاب التشغرجوي حتى الآن وهي مكسورة الجناح. هبَّ الأغوات والأشراف والسادة من جديد. بقيت الجسور التي يبنيها البيكوات بأمر من التشغرجوي غير منتهية، وخربت الطرق.

خلال فترة قصيرة إلى هذا الحد وجد التشغرجوي أن الناس قد ينسوا، وفقدوا قوتهم. ثمة انهيار في الوسط. صار التشغرجوي مصدر فرح. أدمع العيون. هذا يعني أن التشغرجوي ضروري جداً للناس. أي ظلم لم يظلمه الأغوات والبيكوات منذ ذهابه حتى مجيئه! اجتمعت القرى من حوله، وشرحت له على مدى ثلاثة أيام ما عانته.

جاء مسنٌّ وامسك بيد التشغرجوي: "يا بني، لا تغب في أمكنة ما بعد الآن. الله لا يحرمنا إياك. ذهبت أنت، وجاء الأغوات والعثمانيون بالمر. لا تذهب يا بني إلى أي مكان. عندما ذهبت صارت العصافير صقوراً."

بعد ذلك، بدأت الطلبات. الآغا الفلاني عمل لي كذا وكذا. الآغا الآخر لم يعطني حقي. لا يمكن المرور من هذا الطريق. هذا الجسر جرفه السيل. أتبحث عن هم!

كان قد جرف السيل جسر آقتشاي بين بوظ ضوغان وناظلي.

ذلك الجسر كبير إلى حد ما. جسر يمر عليه أهالي كثير من قرى قضاءين.

"لنقل إن الجسر انهار. ألم تعملوا على إصلاحه؟"

"كيف سنعمل يا فتوة؟ يتطلب الجسر نقوداً كثيرة. نحن لسنا أغوات ولا بيكوات. أين النقود؟ أين الدراهم؟"

"حسن، في تلك الجهات يوجد عثمان بيك. وهو غني. هل سمع بهذا الأمر؟"

"قلنا له يا فتوة."

"إيه؟"

"قال: إنه لا يتدخل. وقال: أنا ما لي."

"الآن أقول لكم. اذهبوا إلى عثمان بيك، بلغوه سلامي. لينشئ جسراً جديداً مكان القديم."

ذهب القرويون إلى عثمان بيك. سيبنى الجسر بعد الآن. وجدوا عثمان بيك في بيته الذي في أرباظ. كان جالساً مع أخيه الأصغر. فاتحه القرويون بالأمر. لم يوافق أو يرفض. ولكن أخاه أمطر التشغرجوي بالشتائم. ولدى هؤلاء حارس شركسي. وهذا أيضاً أمطره بالشتائم. عاد القرويون إلى التشغرجوي. أخبروه بالأمر كما جرى.

"اذهبوا أنتم. سيبنى جسر آقتشاي."

بدأ التحضير. عليه أن يقبض على السيد عثمان. السيد عثمان هذا أحد الإقطاعيين القدماء. كان رجلاً جريئاً، ومحبوباً في المنطقة، وغنياً جداً. تعرض جده لبلاء الفتوات أمثال التشغرجوي. لهذا السبب أنشأوا قلعة قوية بجانب بيوتهم للاحتماء من شر الفتوات. رأت هذه

القلعة الكثير من العصابات والفتوات. وشجاعة شقيق عثمان بيك نابعة بأغلبها من وجود هذه القلعة. إذا أغلقتَ القلعة، ووضعتَ رجالك فيها، فليأت ليس التشغرجوي فقط، بل الجيش فلا جدوى.

أرسل التشغرجوي أخباراً إلى أربع الجهات. ولكن خبراً لم يأت طيلة أيام. غضب التشغرجوي.

قال: "جهزوا أنفسكم. سنذهب إلى أرباظ."

بعد ظهر أحد الأيام دخلوا إلى أرباظ. داهموا بيت عثمان بيك. كان ثمة حارس في البيت. الحارس ألباني. قتلوا الحارس فوراً. كان قد هرب عثمان بيك مع شقيقه إلى البلدة. وحراسهم الشراكس معهما.

عادوا. ولكن التشغرجوي لن يترك هذا الأمر.

بعد هذا، انزوى التشغرجوي في قريته. كانت المفارز تبحث في الجبال وتحت الصخور. التشغرجوي في بيته، يستمتع في حضن زوجته. ببال من يخطر أن التشغرجوي في بيته تحت هذه المطاردة الشديدة؟ لا يخطر هذا حتى ببال الشيطان.

لم تستمر الراحة طويلاً. ثمة أعمال كثيرة. يجب حلها. أولاً يجب حل مسألة النقود. داهموا عدة أغنياء. أخذوا مقداراً كبيراً من النقود.

إذا وضع الفتوة أمراً في باله، فيضعه. لا ينسى مهما كلف الأمر.

قال: "يا حاج. جاء الآن دور السيد عثمان. ثلاثة آلاف ذهبية منه بدل جسر آقتشاي."

كانوا في جوار أرباظ. توجهوا نحوها. قبل أن يدخل الفتوة إلى

أرباظ، وضع حراساً من رجاله على طرقها كلها. لم يعد يستطيع أحد الدخول إلى أرباظ، والخروج منها. ذهب مع الحاج مصطفى إلى بيت عثمان بيك في قلعته فوراً. كان ذلك اليوم سوق أرباظ الأسبوعي. سأل المرأة التي فتحت الباب عن عثمان بيك. قالت بداية إنه في المقهى. ثم ارتبكت. رأت أن السائلين عن عثمان بيك من الفتوات. حاولت التراجع عن كلامها. كان السهم قد انفلت من القوس.

خشية من وصول الخبر إلى المقهى، أسرع التشغرجوي إلى هناك. ودلف إليه كالبرق.

"لا تتحركوا!"

من سيتحرك؟

ذهب الحاج مصطفى إلى الحارس الشركسي المجاور للسيد عثمان، وأخذ البندقية من يده. وقيّد يديه ورجليه.

"يا عثمان بيك! جسر آقتشاي؟"

"قوة الحكومة لا تكفيه، فكيف أنا؟ على رأسي لو كانت قوتي تمكنني."

"القرويون طلبوه. وأنا طلبته. أنت لم تهتم. هيا لملم نفسك، ستذهب معنا."

وضعوا عثمان بيك أمامهم، وساروا به في سوق أرباظ. عثمان بيك صاحب القلعة، والبيك على مدى سنوات طويلة وقع في قبضة التشغرجوي. لتره أرباظ. ليره العثماني. هل تساوي القلاع شيئاً أمام التشغرجوي؟"

بعد ذلك، خرجوا من أرباظ. عثمان بيك في المقدمة، وهم خلفه.

سمع صوت إطلاق بندقية من السفح فوق أرباظ، كان ذلك الإطلاق على حارس عثمان بيك الحاج إسماعيل. ليلاً جُلبت جثتة إلى القرية.

نحن قتلنا التشغرجوي

"ذكريات العقيد رشدو قوباش"

كـانت سنة ١٨٩٩. تلك السنة هي سنة تخـرجي من الكليـة الحربية. بعد تخرجي، كلفت بمهام في مختلف الوحدات العسكرية في الوطن، وأتيت إلى دوزجة عام ١٩٠٦. كنت ملازماً أول. كان البلد ممتلئاً بقطاع الطرق. قطاع الطرق هناك كل شيء... قطاع الطرق يشفون الجراح، ويستمعون للشكاوى.

كان في ذلك الوقت ثمة عصابة شغلت الحكومة أكثر من الجميع، وأنزلت احترام الحكومة إلى الصفر: عصابة التشغرجوي في إيجة. شهرة التشغرجوي وصلت إلى البلد كله. كانت ملحمته على الألسن. في كل منطقة من مناطق البلد تحكى حكاية أعماله.

التشغرجوي ريح رعب فوق الوطن.

من يمكنه أن يخرج لمطاردة التشغرجوي؟ إذا كان هنالك من سيخرج فلا بد له من دفع الثمن. تخرج من إزمير مفرزة أرناؤوطية مؤلفة من أربعين شخصاً. وهؤلاء من الأشخاص المعروفين بشجاعتهم في ذلك الوقت. تسلحوا حتى أسنانهم. كانوا واثقين من أنفسهم. يركبون

القطار. أول مكان سيصلون إليه هو أودمش. سيقيمون مقر قيادة في أودمش، بعد ذلك يبدؤون بمطاردة التشغرجوي. رجال التشغرجوي أخبروه بأن مفرزة تتألف من أربعين شخصاً انطلقت بالقطار من إزمير إلى أودمش. وصلت المفرزة التي لا تعلم بشيء إلى إزمير. يجلس أفرادها في إحد أكبر مقاهي أودمش. قهوة آتية، ونارجيلة ذاهبة... لا يمكن الاقتراب منهم بسبب تكبرهم. بنادقهم المتلامعة في أحضانهم، ويقذفون على التشغرجوي.

"التشغرجوي... ذلك التشغرجوي ليس فتوة، بل تقليد قاطع طريق.."

"سنسلخ جلده، و..."

"نعم، سنسلخ جلده، ونملؤه تبناً. سنشنقه في ساحة أودمش."

"الضابطة تخاف منه."

"نحن لسنا ضابطة."

"لو انشقت الأرض ودخل فيها التشغرجوي..."

"سنقبض عليه أيضاً."

"ليأت الصباح أولاً.."

بينما كانت مثل هذه الأحاديث تملأ المقهى، والجميع يضحكون ويلهون، يفتح الباب فجأة، ويدخل فتوة ممتلئ الجسم، حنطي اللون، متوسط القامة. بعد أن يسلم، يصرخ فجأة:

"لا تتحركوا. أنا التشغرجوي."

عامل القهوى عند الموقد أيضاً يسحب بندقيته، ويصوبها نحو رجال المفرزة. وضع التشغرجوي عامل القهوة هناك قبل يوم. وهو أحد رجاله الشجعان.

"هل جئتم من أجل التشغرجوي يا باشوات؟"

يتجول بين الطاولات، وفي يده مسدس.

"ها أنا التشغرجوي. ها أنا قد جئت. وها هو جلدي. تفضلوا، واحشوه تبناً. وساحة أودمش هنا. خذوني إلى الساحة واشنقوني..."

"لماذا تجمدتم ولاه أسودي الدين؟ هيا تحركوا لنرى. هيا تحركوا. ألم تأتوا للبحث عن التشغرجوي؟ ها أنا جئت إلى عند أقدامكم. لم أتعبكم بالذهاب إلى الجبال. أين شوهد مثل هذا: يأتي الفتوة إلى عند قدم مطارده؟ هل سمعتم بهذا؟ لهذا السبب سيعطونكم مكافأة. خذوني. أنا بين أيديكم.

الفتوة يضحك سراً، ويلهو.

"وهل آخذ أفنديات مثلكم إلى الجبل، وأضايقهم؟ من يعلم كم أنتم شجعان، ورقيقون؟ هل أؤذيكم؟ أنتم رجال ضروريون جداً. أنتم أحداق آل عثمان."

يزأر الفتوة فجأة:

"ولاه أزواج القحبات! اختاروا طريقة موتكم. أأحشو جلودكم تبناً؟ أين سأجد كل هذا التبن؟ ثم ماذا ستأكل حيوانات الأمة؟ احكوا!"

يذهب الفتوة نحو الباب.

"هذا يعني أنكم لم تقرروا؟ إذن أنا أقرر."

ينادي نحو الخارج. يدخل ولد.

يقول الفتوة: "يا بني، قرر أنت عقوبة هؤلاء. تركت هذا لك."

يحمل الولد مقصاً، وكيساً. يتقدم الولد. يقص شرابة طربوش الذي في المقدمة، ويضعها في الكيس. حملقت عيون رجال المفرزة،

وغدت كأصداف الفأل. بعد ذلك، يقص الولد شرابات طرابيش الأربعين شخصاً واحداً واحداً. يملأ كيسه جيداً. ويخرج كما أتى.

يقول التشغرجوي: "يمكنكم أن تأتوا مرة أخرى لمطاردتي إن أردتم." ويخرج وهو يؤرجح يديه.

عند الصباح، لم تبق مفرزتنا تلك المؤلفة من أربعين شخصاً دقيقة واحدة زيادة في أودمش. تركب القطار الذي جاءت فيه، وتنطلق في طريق إزمير.

ينظر والي إزمير كامل باشا وإذ بمفرزته التي أرسلها للمطاردة قبل عدة أيام بآمال كبيرة هي في إزمير.

"ما هذا؟ ماذا حدث؟"

لا أحد يقول شيئاً.

يلحُّ الباشا: "ماذا يوجد؟ لماذا عدتم فوراً؟"

أحدهم يقول" "لم نستطع إيجاده."

بعد عدة أيام يرسل التشغرجوي الشرابات التي قصها الولد إلى الوالي كامل باشا هدية.

نزل التشغرجوي إلى السهل. نزول الفتوات إلى السهل، يعني العفو عنهم، وسكنهم في قراهم. مشاهير الفتوات في إيجة كلهم تقريباً نزلوا إلى السهل عدة مرات. نزل التشغرجوي عدة مرات إلى السهل بعدة شروط خلال حياته كفتوة على مدى خمسة عشر عاماً. لن يترك سلاحه، وسيتواجد رجاله معه، ولن يأتي إلى القرية الموجود فيها أو جوارها أي ضابطة مسلحة أو جنود أو شرطة أو رجال حكومة. كلما نزل التشغرجوي إلى السهل يعمل منه حاكماً ريفياً.

التشغرجوي في السهل مرة أخرى. يأتي والي إزمير كامل باشا إلى أودمش ليلتقي الناس، ويتحدث معهم. يسمع التشغرجوي، بهذا فيأخذ رجاله من قرية قايا، ويأتي إلى أودمش لمقابلة كامل باشا. لايرغب كامل باشا بمقابلة التشغرجوي، ولكنه ماذا سيفعل؟ لا يستطيع رفضه خشية من صعوده مرة أخرى إلى الجبل، وتشكيله بلاء على رأسه. يضطر لمقابلته بشكل جيد.

كامل باشا ضيف في بيت أحد وجهاء أودمش.وينزل التشغرجوي ضيفاً في البيت نفسه. البيت وسط بستان فاكهة كبير. صباحاً، وبعد تناول الإفطار، يطلب الباشا أن يلتقي قليلاً بالتشغرجوي.

"أمرك يا باشا."

"سمعت يا فتوة أنه لا يوجد أفضل منك بالتصويب في هذه المنطقة."

يبتسم التشغرجوي.

"بالغوا كثيراً. لست إلى هذا الحد."

الباشا: "حتى إنهم قالوا: لم يأت إلى الدنيا أفضل منك بالتصويب."

"إنهم يبالغون يا باشا. ولكننا تجولنا في الجبال طيلة هذه السنوات. يمكن أن يكون هنالك شيء من هذا..."

"أريد أن أرى يا فتوة."

"كما تريد يا باشا."

يلتفت إلى ابن البيت، ويقول: "يا أفندي، هات منشفة نظيفة، وامسكها تحت شجرة الأجاص هذه."

يقول الباشا: "ليس بسلاح طويل يا فتوة، بالمسدس."

يخرج التشغرجوي المسدس من خصره.

"ليكن بالمسدس يا باشا. أليست كلها أسلحة؟"

يمسك الشاب المنشفة تحت غصن نضجت عليه ثلاث أجاصات.

يقول التشغرجوي: "هذه الأجاصة لك يا باشا"، ويطلق النار.

تسقط الأجاصة الأولى.

"وهذه الأجاصة للشاب يا باشا."

تسقط الأجاصة الثانية.

"وهذه لي يا باشا."

تسقط الأجاصة الثالثة.

استعظم الشاب الأمر. ودهش الباشا من هذا العمل. يأكلون الأجاصات بالعافية.

"هذا يعد من الصيد يا باشا."

الباشا: "نعم يا فتوة."

يفكر الباشا. هذا يعني أن ما يحكى عن التشغرجوي صحيح.

"يا فتوة!"

"أمرك يا باشا."

"سمعت يا فتوة أيضاً أنك تجعل الأولاد في القرية يلقون القروش في الهواء، وتصيبها وهي ساقطة."

"بفضلكم يا باشا."

"أريد أن أرى."

يخرج إلى الحديقة. يعطي ابن صاحب البيت الذي أمسك المنشفة

قبل قليل قرشاً، ويقول: "ارمه!" يقذف الولد القرش نحو السماء. وفور قذف الولد القرش يطلق طلقة. في الثانية نفسها...

ينقذف القرش، ويضيع.

أمر لم يُر مثله.

يقول الباشا: "حلال عليك يا فتوة."

"تسلم يا باشا."

في الشهور التي صعد فيها التشغرجوي إلى الجبال حديثاً. يرى مع ثلاثة من رجاله ذات يوم خيمة رحّل وحيدة في جبل الأصابع الخمسة. الوقت مساء. كانوا قد خاضوا اشتباكاً دموياً قبل يوم. كانوا متعبين، وجائعين. ذهبوا إلى الخيمة. كان الصمت مخيماً على الخيمة. يوجد حول خيمة الرحّل عادة غنم وماعز وكلاب. لا يوجد حول هذه الخيمة روح واحدة. يصرخون من الخارج.

"يا صاحب البيت! يا صاحب البيت!"

لا صوت ولا نبس.

"ضيف الله يا صاحب البيت..."

حينئذ يدخل أحد الرجال المسلحين إلى الخيمة، ويخرج فوراً.

يقول: "يا فتوتي! في الداخل رجل وزوجته مسنان منكمشان أحدهما على الآخر، يبكيان."

أمر الفتوة: "هات المسن، وتعال."

يخرجون الرجل إلى الخارج.

يسأله الفتوة: "ما هذه الحال؟ ماذا جرى لك يا رجل"

يئن المسن: "لا تسألني عن حالي...لا تسأل أبداً عن حالي يافتوة."

"احك يا رجل"

يقول المسن دائماً: "لا تسأل، لا تسأل" وهو يبكي.

ينفد صبر التشغرجوي.

"هيا احك يا رجل! لعلنا نكون حلاً لمشكلتك."

هو يعيد "لا تسأل! لا تسأل!"

يذهب التشغرجوي إليه، ويمسح بيده عليه: "يُخشى أنك اتخذت هذا الموقف لأننا جئنا إلى بيتك؟ لنذهب. لنذهب وينتهي هذا الأمر. وهل يقابل الضيف هكذا؟"

أثّرت هذه الكلمات على مشاعر المسن: "لا تسأل عما حل بنا يافتوة. ملعون الدين التشغرجوي داهم بيتنا قبل ساعتين. سحب قطيعي، وذهب. أخذ كل ما عندي. ليأخذه، فهو فتوة. ليأخذ المال، إنه حقه. أسألك يا فتوة هل يوجد تعدي على الشرف في الفتوة؟ هل شوهد هذا من قبل؟ عديم الشرف والدين هذا الملعون الفتوة التشغرجوي أخذ ابنتي. أخذها ليرقّصها. هل هذا موجود في تقاليد الفتوة ؟ ماذا يمكنك أن تفعل أنت ضد التشغرجوي يا فتوة؟"

قدحت عينا التشغرجوي برقاً.

"كيف كان هذا التشغرجوي يا رجل؟"

"هكذا! ضخماً عملاقاً. الله يهده. إن شاء الله يذهب برصاصة مزيتة."

"في أي اتجاه ذهبوا"

يشير المسن إلى الجهة التي ذهب منها قطاع الطرق. ويغادر التشغرجوي الخيمة.

حل المساء، وغابت الشمس.

"يا حاج مصطفى!"

"أمرك يا فتوتي."

"يجب أن يكونوا في الجوار."

"في الجوار يا فتوتي."

من يكون هذا التشغرجوي بحسب علمك؟"

"هذا متشبه بالفتوة يا فتوتي."

إنه عدو ياحاج مصطفى. هذا عدو كبير جداً يا حاج مصطفى. الضابطة ليست عدوة، ولا أحد عدو، الأعداء الحقيقيون هم هؤلاء ياحاج مصطفى."

"هؤلاء يا فتوتي."

"إذا لم نقبض على هؤلاء فسيصير اسمي لا يساوي خمسة قروش يا حاج مصطفى."

يرى الحاج مصطفى ناراً كبيرة موقدة على التلة المقابلة.

"لا بد أنهم هناك."

"هيا إذن يا حاج!"

تقترب عصابة التشغرجوي من النار. ثمة تسعة أشخاص حول النار الكبيرة. الغنم بجوارهم. الفتاة في الوسط. يعذبون الفتاة من أجل أن ترقص. يقتربون متسللين. يصلون إلى محاذاتهم بالضبط. يطلق التشغرجوي صيحته التي ترجف الأرض والسماء:

"لا تتحركوا! ارموا أسلحتكم على الأرض!"

الآخرون المندهشون مما تعرضوا له يرمون أسلحتهم على الأرض، وينهضون.

"مسدساتكم، وسكاكينكم."

رموها.

"يا حاج! اذهب إلى هؤلاء."

يذهب الحاج، ويجمع أسلحتهم.

يربطون التسعة ببعضهم بعضاً جيداً.

في هذه الأثناء تأتي الفتاة، وترتمي على يد التشغرجوي.

"كن أخي يا فتوة!"

الفتوة: "لنذهب إلى الخيمة. عيون العجوزين متعبة، وينتظران."

"كن أخي أنا قربانك. كن سيدي يا فتوة... أنقذتني. أنقذت شرفي. أكون قربانك يا فتوتي..."

يُنهض الفتوة الفتاة.

يذهبون إلى الخيام.

سرٌ العجوزان الباكيان فرحا، وارتاحا. يترك أحدهما يد الفتوة ويتناولها الآخر. يتركها واحد، ويتناولها الآخر.

يصدر الفتوة أمره لرجاله:

"أشعلوا ناراً أسفل الخيمة، في هذا السهل هناك ... ولتكن بقد بيدر. هم لهوا. دعونا نله نحن أيضاً. أليس كذلك يا حاج مصطفى؟"

"نعم يا فتوتي."

خلال ساعة تُشعل نار كبيرة.

"افعل ما تريد أن تفعله يا حاج."

فهم الحاج أن غضب الفتوة لا حدود له.

يفك اثنين من الأرناؤوط، ويربطهما إلى شجرة.

"نحن فعلناها، لا تفعلها أنت يا فتوة."
"ولاه ابن القحبة، هل أنت التشغرجوي؟"
"لا يا فتوة."
"من إذن ولاه؟"
"غير موجود يا فتوة."
يسأل المسن: "من التشغرجوي يا رجل؟"
"هذا هو يا فتوتي."
التشغرجوي شاب ضخم كالجبل.
"ارمه يا حاج."
رجلان يلقيان التشغرجوي المزور إلى النار الضخمة. يحترق مصدراً صوت أزيز. صراخاً، ورائحة. رائحة دهن إنسان.
يقف التشغرجوي كصنم.
"يا حاج! اربط شخصين آخرين."
يربط الحاج.
"لا تفعلها يا فتوة! نحن لم نفعل شيئاً. هو أجبرنا على هذا."
"هكذا إذن؟"
"الرحمة يا فتوة."
في هذه الأثناء يقول واحد منهم: "لا يا فتوة، لا كذب. هم أتوا من نفسهم. قطاع الطرق الحقيقيون هؤلاء. إنهم هؤلاء."
يحكي باستمرار. هذا فعل كذا هنا. وهذا فعل كذا هناك. وشى بهم جميعاً.
يربطونهم زوجين زوجين، ويلقونهم. يبقى ثلاثة أشخاص إلى

النهاية. كأن الثلاثة لا روح فيهم. لا يستطيعون الحركة. في هذه الأثناء قال واحد منهم وهو يئن:

"يا فتوة! عندما يشنقون الإنسان يسألونه عن أمنيته الأخيرة. أنت أيضاً اسألني. أكون قربانك وعبدك يا فتوة."

"لأسألك، ما هي أمنيتك الأخيرة؟"

"عندك هذا الواشي ياه، الواشي الذي وشى برفاقه كلهم واحداً واحداً. دعني أقتله أنا. بعد ذلك ارمني أنت في النار. أكون قربانك وعبدك يا فتوة."

يقول الفتوة: "حسن، قبلت أمنيتك."

ألقوا الثالث وحده إلى النار.

يُخرج الفتوة خنجره من زناره، ويقول: "خذ!"

يقفز الآخر فوق المخبر، ويثقبه تثقيباً، ويقتله. بعد ذلك، يضعه في حضنه، ويأخذه إلى النار، ثم يقفز إلى النار مع الذي في حضنه.

جبل ضخم تفوح منه رائحة إنسان محروق ودهون إنسان.

يقترب الفتوة من المسن.

"أنا التشغرجوي. لا تؤاخذني. آلمناك قليلاً. ابنتك رضية هي اختي في الدنيا والآخرة. هل تقبلني ابناً لك؟"

"أرجوك يا بني!"

فيما بعد يزوج التشغرجوي الفتاة. ويقدم لها هدايا كثيرة. ويحضر عرسها.

هكذا سمعنا نحن بالتشغرجوي في دوزجة وسيواس وأرظروم، واسطنبول. قصصه الشبيهة بهذه لفت البلد من أوله إلى آخره.

بقيتُ في دوزجة من عام ١٩٠٦ حتى عام ١٩١٠. وهنا ترفعت إلى رتبة نقيب، ونقلت إلى اشكودرا. ومن أجل الذهاب إلى إشكودرا أتيت إلى اسطنبول.

قابلت صديقاً ضابطاً.

قال: "رحماك يا رشدو، العقيد رجائي بيك يبحث عنك. راسلوا دوزجة. جاء خبر أنك ذهبت إلى اسطنبول. لا تتوان، اذهب، وقابل رجائي بيك."

ذهبت إلى رجائي بيك. كان العقيد رجائي بيك يشكل صف الدرك المؤسس للتو. يختار من الجيش الشجعان وأصحاب التجربة من المناسبين لهذا العمل.

قال: "يا رشدو بيك بحثت عنك في السماء، ووجدتك في الأرض. أصدرت أوامري كي يجلبوك إليَّ. نريد أن نأخذك إلى صف الدرك. ما رأيك؟"

ودون أن ينتظر ما سأقوله، قال: "احك! إلى أين تريد أن تذهب؟"

لم يصغ لطلب أو رجاء مهلة.

"أنت ضروري لنا. احك إلى أين تريد أن تذهب؟"

لم يبق لي ما أقوله.

قلت: "دوزجة."

بعد ثلاثة أيام، سحبني رجائي بيك من قطعتي في إشكودرا، وعينني قائد فصيل دوزجة للدرك.

نحن غادرنا دوزجة للذهاب إلى إشكودرا، وودعنا الأصدقاء، وعدنا بعد ثلاثة أيام.

كـان لدى العـقـيـد رجـائي بيك أسـبـابه للإصـرار على إدخـالي إلى صف الجندرمة. خلال سنوات إقامتي في دوزجة، اشتبكت مع أنواع عديدة من قطاع الطرق، ونكلت بكثير منهم. وغير هذا فإن أهم نجاح لي حتى الآن هو: في قـضـيـة الحـادي والثـلاثين من آذار، ألقـيت القـبض على الجنود المتمردين المنتقلين من اسطنبول إلى الأناضول.

جرت القضية على النحو التالي:

انفجرت قضية الحادي والثلاثين من آذار. تمردت قطع حراسة عبد الحـمـيـد، وتحـركت براً وبحـراً نحـو الأناضـول. كـانت نـواحي دوزجـة هي الأمكنة التي تعرضوا فيها لأولى المداهمات.

في تلك الأيام كان قائد طابور دوزجة، أي قائدي، هو إسماعيل رمزي بيـك. كـان رجلاً شـجاعـاً ووطنيـاً. ويعـرف أحـدنا الآخر منذ فـترة طويلة. وهو مثلي من مؤيدي المشروطية.

كـان إسمـاعيل رمزي بيك منهـمكاً: "حراس القـصر قـادمون إلى هنا من أجل العبور إلى الأناضول. ليس لدينا قوة يمكنها أن تواجههم. أنت تعـرف هذه الأنحـاء جـيـداً يا رشـدو بيك، فـكر بحل. علينا ألا ندع هؤلاء يعبرون إلى الأناضول."

فكرنا، وأمعنا التفكير.

قلت: "لنأخـذ قـوات شـعـبـيـة، ونسلحـهـا، ونضـعـهـا تحت أمـر الضابطة التي هنا. ولأذهب أنا إلى آقتشة قوجا دائرة فصيلتي. ولأقبض على القادمين بحراً هناك."

هذا ما قررناه، وبدأنا التنفيذ فوراً.

تحركتُ إلى آقـتشـة قوجا. طلبتُ القوات الشـعبيـة التي هناك إلى

السلاح فوراً. سلحتُ أصحاب الزوارق الذين هناك كلهم ، مسجلين بالقوات الشعبية كانوا أم غير مسجلين. وهذا ضروري لإظهار أن قوتنا كبيرة. في الطريق إلى أقتشة قوجا أرسلت خبراً لأخي عثمان في قوباشلر واسمها الحالي سيليملي التابعة لقضاء قرة صو:

"شكّلْ ما يشبه المفرزة هناك، وتعال إليّ واصلاً ليلك بنهارك. حياتنا جميعاً، وحياة الأمة في خطر."

كان عثمان شجاعاً، وهدافاً، واشتهر في المنطقة كلها بهذه الصفات. وسترون في مذكراتي بعد هذا أن عثمان كان مساعدي الأول في كل عمل لي، وكل مطاردة لقطاع الطرق.

بعد ذلك أبرقت إلى قيادة لواء اريلي، وقيادة لواء قوجلي. قلت: تلقينا خبراً مفاده أن الجنود متمردي قصر يلضظ سيعبرون من هنا لإفساد الأناضول. لنؤسس ارتباطاً، ونحل دون هذا. والجواب الذي تلقيته من اللواءين هو:"من غير الممكن أخذ جنود من القوات الشعبية من هنا لمواجهة المتمردين. إننا ننتظر موهبتك في منع المتمردين. اقطعوا طريق البحر من هناك. ونحن هنا نعمل ما بوسعنا."

وقع الأمر علينا. لو استطاع عثمان اللحاق بي... كل أملي معلق على عثمان.

لحق عثمان. كان يرأس مفرزة مؤلفة من مائة شخص. وكلهم مختارون. وضبطنا المكان بين صقاريا وآقتشا قوجا.

بدأ الجنود يأتون فصائلَ ومجموعات. أرسلت لهم المسنين بداية كناصحين. وتواصلت مع أحد قادتهم. واتفقنا مع مكتب البرق من أجل اتخاذ التدابير في الأوقات غير العادية.

لفقنا برقية من مكتب البرق على الشكل التالي: "مُنح الجنود إذننا بالعبور إلى الأناضول. عليهم أن يذهبوا إلى بلدانهم مع أسلحتهم."

كتبتُ البرقية باسم اللواء. وهذا خدع بعض الذين في الجيش. كان الجنود يتوقون للتسريح أيضاً. مقصدنا من إلقاء برقية كهذه هو الاستفادة من رغبة الجنود هذه.

استفدنا من هذه الفوضى، وألقينا القبض عليهم جميعاً بمداهمة. ملأنا الزوارق بهم، وأرسلناهم إلى غريلي فوراً.

بدأ الجنود يأتون زرافات ووحدانا. كل طرف ممتلىء بهم. الوضع إشكالي. كلما جاء جنود، نلقي القبض عليهم، ونجردهم من أسلحتهم.

امتلأ المكان بالجنود. إثر هذا أبرقتُ الى قيادة جيش العمليات. أرسل محمود شوكت باشا قائد جيش العمليات إلى آقتشة قوجا الفرقاطة طاشوظ. كنا قد أرسلنا غالبية الجنود إلى إريلي بوساطة الزورق. ركّبنا الباقين في فرقاطة طاشوظ، وأرسلناهم إلى اسطنبول. جزء منهم هرب بالطبع. بلغ عدد الجنود الذين ألقينا القبض عليهم ١٣٠٠ جندي. وأرسلتُ ذخيرتهم إلى طابورنا في دوزجة.

أتينا نحن. أتينا ولكن الأمور صعبة. دوزجة تحت أفق اسطنبول، ولكن الجبال ممتلئة بالفتوات. لا يستطيع الناس المرور من الطرق. كل شيء يجري وكأن الحكومة غير موجودة. يسخر الفتوات من القوات الحكومية عادة. لم تكن هنالك عصابة أو عصابتان، بل خمس عشرة، وحتى عشرين عصابة. وكل ضربة لها تبدد الحكومة أكثر.

تركتُ المطاردة، وبدأت أفكر. ما هو سبب عدم استطاعتنا إلقاء القبض على هؤلاء الفتوات؟ ثمة فتوات تافهون من طرف، وتشكيلات

الحكومة من طرف آخر... لماذا نبقى عاجزين؟...

تعلمتُ من تجربتي خلال هذين الشهرين أن الفتوات لم يكونوا هكذا وحدهم. الشعب، وجزء من الوجهاء مع هؤلاء الفتوات... يشيرون لنا إلى طرق خاطئة لكي لا نقبض على الفتوات، ويشون لهم، ويؤوونهم. الوجهاء يمدونهم بالذخيرة... عليَّ بداية أن أجد مآويهم. وعليَّ أن أؤسس تشكيلات مخبرين كتشكيلات مخبري الفتوات. بعد ذلك، يجب عليَّ أن أشكل مفرزة من الشعب إضافة إلى مفرزة الدرك. هذا يتطلب وقتاً، وتفكيراً مطولاً، وإعداد خطة.

كان قرة علي في تلك الأثناء أمهر فتوات جبال دوزجة. لديه أكثر من خمس عشرة عصابة يرأسها. ربط المنطقة كلها بالأتاوة. وهو في الجبال منذ سنوات طويلة. واستمر فتوة دون انقطاع على مدى سنوات طويلة. يقطع طرقاً، ويداهم بيوتاً. الطرق كلها لقرة إسماعيل. الطيور لا يمكنها المرور من الطرق. دحر الضابطات التي هاجمته كلها. ولم يدع أكثرها تصل إليه. وبسببه نقل كثير من ضباط الضابطة من أمكنتهم، ولم يترفعوا، وحتى طردوا من وظائفهم.

ثمة اعتقاد باطل بين الناس أيضاً: الرصاص لا يؤثر بقرة إسماعيل، ولا أحد يمكنه أن يقبض عليه.

فكرت بأن الأمر لن يحلّ هكذا. انسحبت من الوسط. كأنني غير موجود. يداهم قرة إسماعيل المكان الفلاني. يصلني الخبر. أنا لاعلاقة لي أبداً. لهذا السبب تمادى بقدر ما يستطيع. لم يبق إلا أن يأتي إلى دائرة درك دوزجة، ويقول: "مرحباً يا نقيب! لماذا لا تبحث عني أبداً؟"

حل يوم انجرف فيه قرة إسماعيل. شبكة الاستخبارات التي

أسستها تعمل باستمرار. كل يوم يأتيني خبر ما يفعله قرة إسماعيل، وإلى أين يذهب، ومع من يتحدث.

في تلك الأثناء كانت تأتيني برقيات متلاحقة من القيادة العامة للدرك في اسطنبول، تطلب مني إلقاء القبض على قرة إسماعيل. وسمعت أيضاً أن بعض الأشخاص في دوزجة اشتكوا عليٌّ في اسطنبول أنني أطلقت قرة إسماعيل.

يعتقد قرة إسماعيل أنني أخشاه. وأنا أنشر بين رجالي شائعة حول خشيتي هذه بأن أحداً بمن فيهم أنا لا يستطيع القبض عليه.

مّر شهر على هذا، تلقيت خبراً بأن قرة إسماعيل يبيت في بيته كل يوم من دون خوف. ويتجول في القرية وهو يؤرجح بيديه، ويعمل تدريبات الرماية فيها. يقطع طريقاً، ويسلب، ويأتي إلى بيته وهو يؤرجح بيديه دون خوف. كيف يؤمن فتوة لديه خبرة سنوات طويلة بهذه الخشية، وبأنني أخاف منه، فيدع نفسه هكذا؟ لا أدعي عدم حيرتي. ولكنني أفكر أيضاً بأن ذئب الجبال هذا لديه شجاعة غير عادية، وثقة بالنفس تفوق الطبيعية. فقد ردّ كل تلك الضابطات، وشق كل هذه المفارز، وخرج. فهل سيخاف من خمسة أو عشرة عناصر درك لدي؟

في هذه الأثناء جهز أخي الأصغر عثمان مفرزته دون أن يُعلم أحداً.

في أحد الأيام، سألته: "أكلّ شيء على ما يرام يا عثمان؟"

قال: "على ما يرام."

جاء الخبر.

قرة إسماعيل في بيته. عاد من عملية سلب كبيرة. داهم أحد

الأغنياء في أطراف مدينة بلو. إنه متعب...

سيأخذ عثمان مفرزته من القرية. وأنا سأخرج من البلدة متذرعاً بأنني سأذهب لمطاردة فتوة آخر ارتكب واقعة في تلك الأيام. الجهة التي خرجتُ منها كانت معاكسة تماماً للقرية التي تقع فيها قرية قرة إسماعيل. وسنلتقي -عثمان وأنا- ليلاً في الغابة.

أتذكر جيداً. بعد أن خرجت من القرية بدأ يهطل مطر غزير كأنه مزاريب. سرنا تحت المطر حتى التحمنا مع عثمان ومفرزته الذين كانوا ينتظروننا في الغابة.

قال عثمان: "ما الداعي لكل هذه الحيطة؟ كل واحد من مفرزتي هو قرة عثمان."

هذا صحيح. في عصابة عثمان تسعة فتوات نزلوا إلى السهل. أما الآخرون فكانوا مهربي تبغ أو مكافحة تهريب التبغ. الذين عاشوا في تلك الأيام يعرفون جيداً أي نوع من الرجال هم مهربو التبغ.

قلت: "ليكن، الحيطة جيدة. حتى ولو كان عدوك نملة..."

تقدمنا تحت المطر إلى قرية قرة إسماعيل. حين وصلنا إلى أسفل القرية بالضبط، بدأ يبزغ الفجر.

قلت: "يا عثمان! خذ عصابتك، وانزل من الطرف العلوي للقرية. وأنا من تحت. قرة إسماعيل الآن يغط في نوم عميق..."

بعد قليل، حاصرنا بيته الواقع في الطرف الشرقي للقرية. اشتبكنا مع قرة إسماعيل حتى الظهيرة. نظر قرة إسماعيل في النهاية، فوجد أنه لا مخرج. استسلم مع عصابته كلها. أخذتهم إلى دوزجة.

كان قرة إسماعيل يقول: "بيك، يا بيك! اصطدتني في غفلة!

لولا شائعات أنك تخشاني..."

"لكنت قبضت عليك أيضاً يا قرة إسماعيل."

القائي القبض على الفتوة الذائع الصيت تحت أنف اسطنبول قرة إسماعيل هذا من دون أن يدمى أنف أحد رجال الدرك أحدث فرحاً عظيماً في القيادة العامة للدرك، وفي اسطنبول. هنأوني. وزادت ثقتهم بي. بعد هذا، نظفت هذه النواحي كلها من الفتوات. تنظيفي لهذه الأنحاء من الفتوات خلال فترة قصيرة بلغت ستة أشهر ضاعف ثقة الدولة بي. بعد ذلك، لم تقع أي واقعة في أطراف دوزجة وبلو. صارت هذه الأمكنة أهدأ مناطق الوطن. مع أن هذه الأماكن كانت تأتي بالمرتبة الثانية بوجود الفتوات بعد منطقة إيجة.

كان التشغرجوي يتمادى بقدر ما يستطيع. يحرق مصنعاً هنا، ويقتل ثلاثين أو أربعين شخصاً بعد تعذيبهم هناك. لم تعد الحكومة تعرف ما ستفعله. أرسلت نخبة عناصرها وأكثرهم تجربة، وهزموا جميعاً. لعب التشغرجوي مع قوات الحكومة التي أرسلتها إليه كما يلعب القط مع الفأر. تأسست قيادة للمطاردة في آيدن من أجل التشغرجوي فقط، وانحصرت مهمة تلك القيادة بمطاردته.

كانت الحكومة تبحث في الوطن كله عن العناصر الشجاعة صاحبة التجربة، وترسلها لمهاجمة التشغرجوي.

في تلك الأثناء وصلتني برقية من القيادة العامة للدرك. تقول البرقية: "أبلغنا بيوم التحاقك مع خمسة من الدرك الذين تختارهم من الطابور بقيادة المطاردة في آيدن."

ولأن شكل كتابة هذه البرقية الواردة من القيادة العامة للدرك،

والأمر الصادر فيها لم يعجبني اضطررت لكتابة البرقية الواردة أدناه لراسم باشا القائد العام للدرك:

"إذا كانت العصابة المطلوب مطاردتها هي عصابة التشغرجوي فأريد أولاً: تحديد درجة الصلاحية. ثانياً: من أجل التنكيل بقاطع طريق قوي يتحدى قوات الحكومة منذ خمس عشرة سنة لا أؤيد الذهاب مع درك يتم اختيارهم من الطابور، بل أريد الذهاب مع أشخاص يتم اختيارهم من بين الناس. وفي الحالة العكسية فأنا جاهز للذهاب وحدي."

غير هذا، كتبت رسالة لصديقي القديم نائب بلو في البرلمان حبيب بيك، وأعلمته بالوضع. ورجوته أن يتدخل لدى الحكومة لتحقيق طلبي.

فور استلام حبيب بيك رسالتي، ذهب إلى راسم باشا القائد العام للدرك، وحكى له بالتفصيل عن وضعي في دوزجة، وعن مفرزة عثمان التي قبضت على قرة إسماعيل، والأشخاص الذين تتألف منهم المفرزة. إثر هذا أخذ راسم بيك معه حبيب باشا، وذهبا إلى وزير الداخلية حبيب بيك. بحثا معه وضعي، ووضع مفرزة عثمان. وتم التوصل إلى قرار.

بعد هذا بعدة أيام وصلتني البرقية التالية:

(وصلت البرقية إلى متصرفية بولو مشفرة، وهم أبلغوني بها.)

فك شيفرة برقية عظمة وزير الداخلية:

إعلام ثان حول موضوع النقيب رشدو بيك قائد طابور الجندرمة وتحركه مع خمسة ممن يختارهم من الطابور لمطاردة التشغرجوي، فقد تمت الموافقة على عدم اختيارهم من الطابور، وأخذهم من الخارج نتيجة تفهم

طلبه المقدم إلينا، ويصرف النظر عن خمسة أشخاص من الطابور، ويقرر القيام بتكليف خمسة وأربعين شخصاً من الخيالة الخارجيين، ويصرف لكل منهم شهرياً ثمانية قروش، وإبلاغ رشدو بيك بأن عليه أن يتحرك إلى إزمير خلال أيام لتقوم إزمير بتنظيم أمورهم.

٢٨ تموز٣٢٧

وزير الداخلية

خليل

سيدي ذا العزة النقيب رشدو بيك قائد الجندرمة في دوزجة!

في الساعة التاسعة من هذا اليوم تم استلام الجواب على البرقية المشفرة المؤرخة في ٢٨ تموز ٣٢٧ المستلمة من عظمة وزير الداخلية والمشفرة، والمترجمة حرفياً. ولأهمية القضية، وعدم وجود مفتاح فك الشيفرة في دائرة الدرك، وللتوقع أن بالإمكان الإفشاء بهذا السر فقد أرسلت إليكم بالظرف المختوم مفتاح الشيفرة المذكورة، وأرجو أن تبلغوني بالظرف المختوم أيضاً عن حركتكم السريعة والفورية مع من يلزم مما ورد في البرقية إلى إزمير، مع الدركي حامل برقيتي.

الساعة ٣

٢٩ تموز ٣٢٧

نائب متصرف بولو

لجيب رمضان حقي

إثر تلقيَّ البرقية الثانية هذه، بدأتُ بالاستعدادات مجدداً مع أخي عثمان. من المؤكد أن الفتوة التشغرجوي ليس قرة إسماعيل.

قصصه المخيفة وشهرته الكبيرة تجعله في أعيننا عملاقاً أسطورياً، وبطل أسطورة. كنا نسمع به منذ تخرجنا من الكلية الحربية. شهرته لم تتحدد بحدود البلد، بل وصلت إلى العالم. فالتشغرجوي قهر جيوشاً، وشق أخرى خارجاً من حصارها... وحتى إنه وصل إلى مسامعنا أن عبد الحميد منع ذكر اسم التشغرجوي في قصر يلضظ.

ولكن شهرته هذه كلها لم تكن تخيفني. أردت دائماً مواجهته. وسيكون لنا شرف التنكيل برجل مثل التشغرجوي.

كنت أثق بعثمان. يقال عن الهداف الجيد أنه يضرب السكين في الفم ياه! عثمان كان هدافاً من هذا الطراز. قضى شبابه كله وراء الصيد. قضى عمره كله بصيد الغزلان بين الصخور الوعرة، وهو شاب كالسكين. لم يُر مثله في الحركة. كما انخرط عدة سنوات في الفتوة وتهريب التبغ ومكافحة تهريب التبغ.

خلال عدة أيام شكلنا المفرزة التي ستنطلق لملاحقة التشغرجوي.

لا يوجد بين الخمسة والأربعين شخصاً هؤلاء من يقل عمن في عصابة التشغرجوي. كان يثق أحدنا بالآخر. كامل الحاجيضوق الذي شكل معنا العصابة، واختار المفرزة التي ستذهب لمطاردة التشغرجوي شخص صاحب تجربة طويلة، قوي، وشهم. كان في ذلك الوقت في الخامسة والأربعين أو الخمسين من عمره. شارك في كثير من المداهمات. أصيب بجرح في إحداها وبقي يعرج. الشباب لايعرفون الآن تشكيلات الريجي التي كانت موجودة. حل محلها الآن إدارة المواد التي تحتكرها الدولة. كان حاجيضوق رئيس مكافحة تهريب التبغ في الريجي. وفي ذلك الوقت كان أكثر الرجال شهامة وشجاعة يعملون بتهريب التبغ. ومن

أجل الصراع مع مهربي التبغ لا بد للمكافحة أن تكون أجرأ منهم. وأن تكون رئيس مكافحة تهريب التبغ...حاجيضوق كان مهربَ تبغ في السابق بالطبع...حين صار رئيس مكافحة جفف جذور مهربي التبغ في منطقته.

انضم إلينا محمد بيك القوظلقي. لم نكن نتوقع هذا أبداً. صار مصدر قوة لنا. كان محمد بيك في مانيسا في تلك الفترة. له أخوة في أضابازار. أتى لزيارة أخوته. وقد تجول في مطاردة التشغرجوي خلال الفترة التي قضاها في منطقة إيجة...

كان يوجد شخص يدعى حسن بيك في مانيسا. وكان هذا حارس مزرعته وحارسه الشخصي. كان في ذلك الوقت بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره. ومن الجيد جداً وجود رجل بيننا يعرف منطقة إيجة حجراً حجراً، وشجرة شجرة. فيما بعد عرفنا أن محمد بيك يعرف تلك الأماكن خطوة خطوة.

وكان في المفرزة علي الكافر، وأحمد الأنظاوور، وإلياس البهلوان، ومحمد الكبير، وجعفر شامل، وغير هؤلاء أيضاً.

كان علي الكافر مهرب تبغ. مكافحة تهريب التبغ لا تستطيع مواجهته. يتردد اسمه من بلو إلى أنقرة، ومن أنقرة إلى سيواس. قتل كثيراً من مكافحة تهريب التبغ، بعد ذلك صار من المكافحة. لقب الكافر جاءه من عدم رحمته. أحمد الأنظاوور هو أحمد الأنظاوور الشهير نفسه. لأن خلافاً وقع بيننا ترك المفرزة في صالحلي. أما إلياس البهلوان فهو قاطع طرق منطقة دوزجة الذي نزل إلى السهل. تجول في الجبال طيلة عشرين عاماً. كان في حوالي الأربعين من عمره. كان معنا شاب أيضاً

مثل شامل جعفر، ومحمد الكبير. فيما بين العشرين أو الخامسة والعشرين من العمر. أكثر الباقين إما مهربو تبغ أو فتوات شملهم العفو.

اجتمع هؤلاء في دوزجة. شرحت لهم من هو التشغرجوي، ومدى صعوبة عملنا. قلت لهم أن الذهاب إلى التشغرجوي يعني احتمال موت بنسبة خمسين بالمئة. ولعلها مئة بالمئة...

قلت: "ليتركنا من يخاف، ومن لا يأخذ الموت بعين الاعتبار، وليعد من هنا إلى بيته."

ولكن أحداً من هؤلاء الخمسة والأربعين لم يعد إلى بيته.

قالوا: "نعرف من التشغرجوي، والقتل على يده شرف أيضاً."

كان في ذلك الوقت إعجاب بالشهامة إلى هذا الحد. وكانوا كثيرين.

سلمت المفرزة لكامل حاجيضوق، ومحمد بيك، وعثمان. قلت لهم: "اذهبوا أنتم إلى إزمير عن طريق أفيون. وانتظروني هناك. أنا سأذهب إلى اسطنبول نلتقي في صالحلي."

وتحركت إلى اسطنبول. وهم انطلقوا إلى إزمير.

كان حبيب نائب بولو يسكن في قانليجا. ذهبت إلى بيته فوراً دون إضاعة أي وقت. وجدته في بيته. حبيب هذا هو الشخص الذي يبلغ السلطان بوضع عبد الحميد، وكان مقدماً في المدفعية، وأحد البارزين بين الاتحاديين.

حين رآني، قال: "لم أكن أتوقع مجيئك. كنت أقول لنفسي أي مصاعب يعاني منها رشدو الآن في إزمير. قل، ماذا تريد؟"

قلت: "لا يمكنني أن أذهب بشكل بارز هكذا إلى هذا الحد طبعاً. تعرفون أنني رجل يحب أن ينجح في العمل الذي يكلف به. ليس عندي إمكانية للتحرك بشكل لا على التعيين. وكما ذكرت في رسالتي، فأنا أطلب صلاحيات غير عادية."

"مثل ماذا... مثلاً."

"الصلاحيات التي أطلبها، ويتوقف نجاحي عليها مئة بالمئة هي:

١- ألا أكون تحت إمرة وتوجيهات أحد حتى أنتهي من عملية التنكيل بالتشغرجوي.

٢- الاتصال بمرجع واحد فقط، وهذا شريطة أن يكون والي إزمير.

٣- جعل قطارات إزمير تحت أمرنا في أي محطة نطلبها فوراً.

٤- إلغاء المفارز المطاردة للتشغرجوي بما ذلك القوات العسكرية ضمن ولاية إزمير، ومنح مفرزتي حرية حق المطاردة والتنكيل.

٥- قريبي وصديقي نقيب درك يدعى شكرو بيك، ولأنني أعتمد عليه أريد الحصول على إذن من القيادة العامة لتكليفه بمرافقتي..."

أقول هذه الأمور، وحبيب بيك يدوّن. بعد أن انتهينا، قال: "هيا انهض لنذهب معاً إلى طلعت باشا."

وجدنا طلعت باشا في شقته الخاصة. واستقبلنا الباشا فيها.

بعد أن قدمني حبيب بيك اليه، قال: "يا باشا! حكيت لكم من قبل عن رشدو بيك. هو ذاهب إلى إزمير من أجل مطاردة التشغرجوي، ولكنه يطلب من الحكومة صلاحيات واسعة."

قال الباشا ان همّ التشغرجوي يحزنه كثيراً. وأن عجز قوات الحكومة أمامه يقف في بلعومه، ولا يستطيع ابتلاعه بأي شكل.

بعد ذلك، التفت إليّ، وإثر قوله: "حكيٌ عنك كثيراً يا رشدو بيك. سمعت أنك ضابط شهير في قضايا المطاردة. هل تخبرني بالصلاحيات التي تريدها؟"

أخرج حبيب بيك دفتر ملاحظاته من جيبه، وقرأ المواد التي كتبناها أعلاه.

نهض الباشا. دمعت عيناه. احتضنني. وقبلني من جبيني، وقال:

"أنت تطلب أموراً غير عادية. لم ير أي ضابط أو قائد حتى الآن ضرورة لصلاحيات كهذه. مطالبكم المعقولة والتي بمكانها هذه تعني حلّ نصف القضية. أهنئكم من الآن."

انفعل الباشا. صار يحكي دون توقف.

كان يقول: "أنا مندهش من هذا التشغرجوي. هذا الرجل كيف؟"

بعد ذلك دعانا إلى الطعام في بيته.

وعلى الطعام تحدث باستمرار عن قضية التشغرجوي.

الباشا: "لم يستطع مواجهته رجل مثل قرة سعيد باشا. كيف هذا الأمر؟ كلكم تعرفون قرة سعيد باشا..."

نعم، كلنا والجميع يعرفه. ومن أجل إزالة البلية المدعوة تشغرجوي، استدعت الحكومة كمناص أخير لها قرة سعيد باشا الذي ذاع صيت جرأته من سالونيك مع فرقته ليكون قائد المطاردة العام في إزمير، ومنح صلاحيات كاملة، ومنح قيادة لواء درك إزمير ليكون بإمرته، وكُلِّف بمهمة مطاردة التشغرجوي والتنكيل به.

لاحق قرة سعيد باشا التشغرجوي طيلة سنة، ولكنه لم يستطع

تحقيق أي نتيجة من هذه الملاحقة، وتخلى عنها بجرح كبير في كبريائه.

كان طلعت باشا يحكي دائماً عن هذه الأمور، وعن وقائع كهذه، فيقول: "سيكون عملكم صعباً يا رشدو بيك" ثم يدخل بين كل جملتين:

"رجل مثل قرة سعيد باشا."

بعد أن خرجنا من عند الباشا، التفت حبيب إليّ، وقال:

"ماذا لو لم تنجحوا يا رشدو بيك. إذا لم تنجح أنت أيضاً سيحزن الباشا كثيراً. انظر كم يثق بك."

قلت: "يا حبيب بيك! إذا لم أنجح فقد قررت ما سأفعله. سأستقيل من الجيش، وأخرج مع خمسة من رجالي إثر التشغرجوي. أي أنني سأكون فرارياً مثله. إما أن يقتلنا التشغرجوي، أو نقبض عليه. عودتي خاوياً من مطاردة التشغرجوي أسوأ من موتي."

تغير وجه حبيب بيك، وسألني متعجباً:

"هل قرارك أكيد يا رشدو؟ هل قرارك هذا أكيد؟"

قلت: "أكيد يا حبيب بيك."

قال: "إن شاء توفق. توفق ولا حاجة لهذا."

بعد ذلك، ضحك.

"من كونك ضابطاً إلى كونك فرارياً."

افترقنا. أخذت معي رشدو بيك، وانطلقت فوراً في ذلك اليوم إلى إزمير. الأصدقاء الذين انطلقوا من دوزجة، سينتظرونني في صالحلي. التقيت بهم هناك.

أخذت أصدقائي من صالحلي، وتوجهت فوراً إلى إزمير. ذهبت إلى والي إزمير ناظم باشا. ناظم باشا هذا هو ناظم باشا الشهير الذي

عمل رئيس ضابطة عبد الحميد. وبسبب عدم إلقاء القبض بأي شكل على التشغرجوي فقد نال غضب السلطان، واهتز مكانه كثيراً. قال لي هذا بصراحة حميمية. وشكا همه.

"خسرت رئاسة الضابطة، وبسببه لم يبق هناك ما لا أعانيه. صرت لا أستطيع الذهاب إلى السلطان. ويشكّل هذا ستين بالمئة من أسباب خسارتي لرئاسة الضابطة. والولاية أيضاً مهددة. هذا الرجل ليس بلية على رأس الحكومة، بل بلية على رأسي فقط. خلق الله هذا الرجل ليكون بلية على رأسي فقط. لم أعد أعرف ما سأفعله. لم يعد بالإمكان ضبط الأمور. إنها تنزلق. إذا لم يكن هذا الرجل شيطاناً، فهو شقيق الشيطان. إنه هكذا أكيد. تخيلوا يا رشدو بيك أن قائداً صاحب تجربة كبيرة مثل محمود مختار باشا يطوقه في موقع وادي تشوب بخمسمئة شخص، فيشق هذا الشيطان الخمسمئة، ويخرج. كما أنه ينهك قوات محمود مختار باشا، ويوقع بها خسائر كبيرة. إنه شيطان هكذا. أملنا كله أنت، وأنت آخر أمل لنا. فهمتم، أليس كذلك؟ هل فهمتم من تواجهون؟"

قلت: "فهمت يا باشا. أنا أيضاً أعرف التشغرجوي كما يعرفه الجميع. وسأعرف أكثر من يكون يا باشا. أول عمل لي سيكون معرفة التشغرجوي جيداً. لعلني سأبقى هنا سنة، ولكنني سأبدأ العمل بعد أن أعرف التشغرجوي. خطؤنا كله هو قيامنا بمطاردته قبل معرفته جيداً. سأعرفه جيداً. ماذا يأكل، كيف يضطجع، وكيف ينام، كيف يأتي، كيف يتكلم، كيف يسمع؟ بالنتيجة سأعرف كل شيء عنه وبأدق التفاصيل. أنا لم آت لكي أعود، أنا جئت بقضية موت أو حياة. جئت لكي لا تبقى

أمة عظيمة عاجزة أمام قاطع طريق.

سرّ الباشا، وقال:

"طالما الأمر هكذا يا رشدو بيك هذا يعني أنه سيكون لديك وقت. يمكنك أن تعرف مني أيضاً بعض الأمور عن التشغرجوي. ابقوا هنا عندي عدة أيام لأحكي لكم عن بعض جوانب التشغرجوي. أعتقد أنني أعرف الكثير عن التشغرجوي."

"على رأسي يا باشا. أبقى. أشكركم على اهتمامكم. كما تأمرون."

بقيت في إزمير يومين عند الباشا. حكى لي عن التشغرجوي أموراً لا تخطر بالبال أو الخاطر. وحكى لي بشكل خاص عن اشتباكاته مع قرة سعيد باشا، وعما فعله به في كل مطاردة.

حكى لي ناظم باشا كثيراً من الحكايات عن التشغرجوي. عدد لي أحابيله وتكتيكاته. ودعونا نر ما أستعمله أنا ضد التشغرجوي. لكل إنسان نقطة ضعف، وجانب يترك فيه ثغرة. أنا تعلمت هذا من مطارداتي الكثيرة. الإنسان لا يمكن أن يكون كاملاً مئة بالمئة. وليس من السهولة معرفة نقطة ضعف رجل كالتشغرجوي صاحب إرادة أحادية. يجب أن ندرسه من الطفولة. يجب التدقيق بالأحداث التي خلقها. القضية كلها هي: من التشغرجوي؟ هذا هو الأمر الوحيد الذي يجب تعلمه.

جئت من إزمير إلى أودمش، وأسست مركز قيادة. خلال الأشهر الثلاثة هذه لم أحاول أبداً الخروج لمطاردة التشغرجوي. يغضب التشغرجوي، فيرسل أخباراً مفادها: "ها أنا في المكان الفلاني. إذا كان

قـائد مطاردة فليأت. ليأت لأنها مهمته." أنا لا أبالي لما أسمعه. هو يشنق، ويذبح، ولا يترك شيئاً لا يعمله في قرى قريبة جداً مني إلى حد أنها تحت أنفي، وأنا كأنني لست هناك. أتعرف على حياة التشغرجوي من الناس الذين بدؤوا يشعرون بقرب مني، وبشكل خاص من الوجهاء. ولكنني أتعرف على كل تفاصيلها. كأنني لست قائدَ مطاردة، بل هاوياً خرج للبحث في حياة التشغرجوي لمعرفة تفاصيلها. فضولي معجب بالتشغرجوي. الناس والوجهاء لا يجدون معنى لفضولي هذا. وصار عندهم فضول لهذا السبب. أكتب مع شكرو بيك عن اشتباكاته حتى أصغرها، وعن عفوه أو غضبه أو مكره أو مرضه أو ميولاته، وعند المساء أصنّف هذه الملاحظات. وأحصل على تلك المعلومات كلها من رجاله المسلحين الذين نزلوا إلى السهل، والقرويين، وأقربائه، والمدرسين الذين علموه، والوجهاء الذين صادقوه، والضباط الذين طاردوه على مدى سنوات، والفتوات الآخرين الذين عادوه ونزلوا إلى السهل.

وهكذا عرفنا حياة التشغرجوي خلال الأشهر الثلاثة هذه. وهنا تنتهي مغامرته في الحياة. ونأتي الآن إلى مغامرتنا مع التشغرجوي.

عرفنا كل مآويه الأساسية، وتكتيكاته. في أثناء قيامنا بهذا قام هو بكل ما يريد، وحتى إنه ذهب إلى بيته في بعض الأحيان. ألم نكن نعلم بهذا؟ كان يعتقد أننا لا نعلم. وكل ما أردته أنا هو أن يعتقد بهذا.

بعد ذلك، كانت النقطة الأهم التي توقفنا عندها، وتوقف عندها أخي عثمان بشكل خاص هي ألبسته. كيف كان لباسه. هل كان يختلف عن الفتوات الآخرين؟ بحسب ما علمناه فإنه كان يرتدي ألبسة مغايرة لما

يرتديه رجاله. فعل عثمان ما فعله من أجل معرفة هذا. لم يكن يرتدي سروالاً داخلياً قصيراً كفتوات منطقة إيجة الآخرين، بل يرتدي سروالاً داخلياً رومياً طويلاً. لم تكن سترته ذات جيوب مطرزة كتلك التي يرتديها الفتوات ، بل سترة بسيطة جداً من المخمل الأسود... العرقية التي على رأسه أيضاً كانت بسيطة. ما زلت مندهشاً. رجل تكتيك وذكاء صرف كالفتوة التشغرجوي كيف يميز ألبسته عن ألبسة الآخرين؟ ألم يعرف أن العيون كلها عليه؟ قلت إنني ما زلت مندهشاً ياه.

بعد أن أنهيت بحثي عن التشغرجوي، أدركت أن التنكيل به سيكون صعباً. وأدركت أنه لم يرغب في أي وقت أن يكون فتوة... لو قبل العفو فإنني كنت سأبلّغ القصر وطلعت باشا بحاله هذه. كنت سأذهب إلى طلعت باشا وأثبت له بالوثائق التي بين يدي أن هذا الرجل لم يرغب في أي وقت بهذا العمل. وكان طلعت باشا رجلاً يتفهم هذا الأمر. كان لدى الباشا جانب رجل جماهيري.

لهذا السبب طلبت السيدة إراظ زوجته من أجل نقل عرضي هذا وفكرتي للفتوة.

قلت: "يا سيدة! سلمي على فتوتك. أنا لست عدوه. فهو رجل شهم. لم يرغب بالشقاوة في أي وقت. ليعدني بأنه سينزل إلى السهل، وأنا أذهب إلى اسطنبول، وأحكي لرجال الدولة عن حقيقته. وإلا فأنا سأقبض عليه حياً أو ميتاً. أنا لم آت إلى هنا لكي أعود كبقية المفارز. أنا جئت مع أصدقائي لنموت."

بعد ذلك، حكيت كيف اشتغلت في البحث حول حكايته وتكتيكاته. وقلت لها إنني لا أستطيع قتله لأنني عرفته عن قرب. كما

حكيت لها مفصلاً ومكرراً عمن نكون.

"اذهبي، وقولي لفتوتك أن يقبل العفو. أنا أعده. وإذا أصابه سوء كما كان يحدث في الماضي، سأخرج معه كرجل من رجاله إلى الجبال على ألا ننزل أبداً. اذهبي وقولي هذا لفتوتك."

فكرت السيدة إراظ. لم تتحرك مدة من حيث تجلس.

سألتها: "بماذا تفكرين يا سيدة إراظ؟"

اغرورقت عيناها، أجابت:

"كل المفارز التي أتت إلى هنا لم تستدعني لتحترمني مثلك، بل لتعذبني إلى حد ما. أنا خائفة منكم. سأحكي عن الوضع كما هو للفتوة. وسأقول له إنك ستذهب إلى طلعت باشا."

قلت: "تسلمي يا سيدة. إن شاء الله ينزل إلى السهل."

السيدة إراظ ورجلها المدعو حسين أبلغا الفتوة بكل ما قلته.

قالت له: "أخبر فتوتي. هذه المفرزة القادمة لا تشبه الأخريات أبداً. لينزل إلى السهل. وأنا أرى أحلاماً مزعجة جداً."

الفتوة الذي تلقى هذا الخبر يفكر. ماذا يجب عليه أن يعمل؟ هل عليه أن ينزل إلى السهل؟ لا بد أنه تذكر الحادثة السابقة، فالتفت إلى رجاله، وقال:

"أنا أيضاً حلمت بأنني ضعت وسط صحراء. كثبان الرمل تملأ كل جانب. أي أن الصحراء في اليمن. أمشي دون معرفة إلى أين أنا ذاهب. تعبت، وعطشت. أنظرُ، فأجد آباراً تحيط بي من كل جانب. أقول: أوف، ماء! أهرع، فأجد الآبار كلها فارغة. أرغب بمعرفة هذه الآبار الفارغة كلها. أعدها. خمسة وأربعون. أسقط في الخامس

والأربعين، وأغرق. يبدو أننا سنتعرض للضيق. أننزل يا حاج؟"

يغضب الحاج: "هل ارتبطت أعمالنا بالأحلام يا فتوة؟ لتتكلم بنادقنا التي دب بها الصدأ أولاً. ودعنا نر من الذي سيغرق في البئر الخامس والأربعين. ما رأيك يا فتوة؟"

يقول: "هكذا يا حاج."

يعود الحاج إلى رسول إراظ.

"سلم على السيدة إراظ، وقل لها إن الفتوة يقول لك انه يعرف ماسيفعله. عليها ألا تتدخل في هذه الأمور."

يعود حسين، ويحكي لإراظ عما حدث كله، وعن حلم التشغرجوي.

هذا يعني أن التشغرجوي لا يقترب من العفو. وأنا أيضاً كنت أعتقد هذا. لعله على حق. بقدر ما نزل إلى السهل، بقدر ما رأى سوءاً من رجال الحكومة.

صار يجب النظر إلى اللقاء مع التشغرجوي. بعد أن عرفت حياة التشغرجوي، ثمة صوت في داخلي يقول لي: "دع التشغرجوي، واذهب. لا يُقتل هكذا رجل." بعد ذلك أتذكر الوعد الذي وعدته. فوق هذا، إذا عدتُ، فإن رجالي لن يعودوا. إضافة إلى هذا، فإن التشغرجوي نمر جريح محاصر هرب إلى الجبال. كان يقتل كل من يعترضه. ليس ثمة ما لا يقدم عليه ذلك الرجل من أجل أن يعيش، ومن أجل أن يعيش يوماً، وثانية أطول. كان يعمل أموراً تقف في بلعوم الإنسان. وسيقدم على فعل كثير من الأمور التي لا يمكن أن يبتلعها الإنسان. ولا أدعي أن حال التشغرجوي هذه لا تخيفني. ولكنني كنت أيضاً شاباً. أريد أن

أعيش. و يمكنني فعل الكثير من أجل أن أعيش...

لم يبق لي متسع من الوقت لأفكر مطولاً بهذه الأمور. وردني خبر: "قبل عدة ساعات داهم التشغرجوي ناحية أرباظ. اختطف عثمان بيك وحارسه الحاج إسماعيل، وأخذهما إلى الجبال. وفي الطريق، وفي المنطقة المرتفعة عن القرية قتل الحاج إسماعيل."

كان ذلك اليوم هو الحادي عشر من تشرين الثاني من عام ١٩١١. تحركنا حوالي الساعة الحادية والعشرين ليلاً، ووصلنا قريب الصباح إلى النازلية. كان قائمقام النازلية في ذلك الوقت هو حيدر بيك الذي صار والي اسطنبول فيما بعد. وحيدر بيك كتب مقالات حول: "كيف أمسكت بالتشغرجوي" للجرائد. التقيت حيدر بيك، وأعطيته التعليمات التالية:

١- لن تكتب للولاية، أو أي جهة كانت أي كلمة قبل خروجي من حدود هذا القضاء.

٢- لا يمكنكم توجيه أي خطاب من دون أن يكون عليه توقيعي.

٣- يمكن أن يأتي إلى مقامكم شكاوى حول التشغرجوي، ومن الممكن أن تأتيكم وشايات متنوعة حوله. حتى إن بعض الشخصيات المعروفة التي تعرفونها أنتم في البلدة تريد أن تجعلكم تصدقون هذه الوشايات. سيكون هؤلاء الأشخاص ضروريين لنا. إزاء هذا الوضع، ستوقفون الشخص وليكن من يكون، وترسلونه إلينا.

٤- ستوقفون الرجال الذين سنرسلهم نحن أيضاً، وتعزلونهم.

بعد إصدار هذه التعليمات توجهت فوراً إلى أرباظ ناحية عثمان بيك. وهناك بدأت التحقيق. ولا أعد قد بدأت أيضاً. كان من الضروري

أن أذهب، فذهبت. وتجولت في أرباظ شارد الذهن تماماً.

في هذه الأثناء جاء ابن شقيق الحاج إسماعيل المقتول مجيد ويعقوب. كان يمكن الوثوق بهذين. كانا شابين، وجريئين. وكانا أهم من استخباراتنا.

يعقوب: "قتلوا عمي في واد على طريق جبل قارنجلي. ولكن التشغرجوي يفعل هذا. يشير إلى مكان، ويذهب إلى آخر. فقد أشار إلى جبل قارنجلي، وذهب إلى جبل مادران."

قلت: "حسن إذن. اذهبا أنتما، واجعلا نفسيكما من المفرزة."

أغلقنا علينا غرفة النقيب شكرو بيك، كامل الحاجيضوق، وشقيقي عثمان وأنا، وفكرنا معاً. توصلنا إلى قرار.

هل ذهب التشغرجوي إلى مادران، وكنا سنذهب إلى جبل قارنجلي. لأن جواسيس التشغرجوي هنا كثيرون كالرمل، كانوا سيبلغونه فوراً أننا ذهبنا إلى جبل قارنجلي. وهوسيضطجع في جبل مدران، وينام. بعد أن وجهنا خيولنا إلى جبل قرنجلي، وقبل أن نصل إليه، عدنا إلى مادران بأقصى سرعة. كان جواسيسه لا يمكنهم أن يبلغوه بسرعة للمرة الثانية بعودتنا. هذا ما اعتقدناه. وهذا ماحدث.

يعقوب: "يوجد في مادران أحمد آغا. وهذا مأوى أساسي للفتوة... أحمد آغا يعرف. ولكنه لا يخبركم بمكانه حتى إذا قتلتموه. لهذا السبب فهم في مادران بشكل مؤكد."

سفوح جبل قارنجلي تعج بالخيام. نحن نقود خيولنا إلى مادران.

فجأة شد عثمان رأس حصانه.

قال: "رشدو، يوجد هلع في تلك الخيام التي في الأعلى.

ستحدث أمور ما هناك. ما رأيك؟"

"خذ معك خمسة أشخاص، وقودوا خيولكم مباشرة إلى هناك."

ذهب عثمان. ونحن ذهبنا من بعده. ثمة ثلاثة خيام خربة. الأحمال والفرش فوق بعضها بعضاً.

ولكنه ثمة هلع لدى الجميع، وخاصة لدى الأطفال، إنه هلع يمكن رؤيته بالعين. صدور الأطفال تعلو وتهبط. ينظرون إلينا وإلى الأحمال والفرش المكومة.

"لا يوجد شيء في الوسط. ماهذا الهلع؟"

عثمان: "أنا سأفتش هذه الخيام مهما يكن."

نزل عن الحصان، وبدأ البحث.

ظهر رجل مسلح تحت كومة فرش.

جاء إليَّ، وقال بالأباظية: "لدى هذا الرجل الكثير. أنت ترى من أين خرج. لهذا السبب خربوا خيامهم."

أمرت مجموعتي هذه بأن تتكلم الأباظية معي.

قلت: "أنت على حق يا عثمان. لنقبض عليه."

ناديت الرجل. كان شاباً طويلاً ضعيفاً. يبدو عليه أنه إنسان جيد.

قلت: "انظر إليَّ يا بني! من أنت؟ إما أنني رأيتك من قبل أو أشبهك بأحدهم."

قال: "ينادونني حسين بن سلطان فاطمة."

"ألم أرك من قبل؟ كأنني رأيتك من قبل. من أبوك ؟"

"إبراهيم كان دركياً قديماً."

"أووه! إبراهيمنا؟ كان أبوك رجلاً طيباً. وكان صديقي. وكنت أحبه. إيه، احك يا حسين، أين التشغرجوي؟"

"لاأعرف..."

قلت: "انظر كرمى لخاطر أبيك فلن أنقرك بإصبعي حتى. هل التشغرجوي في جبل قارنجي، أم مادران؟"

"ها، التشغرجوي؟ ذهب إلى جبل مادران."

قلت: "حسنٌ يا حسين! كان أبوك شهماً. وأنا صدقتك. سنفتش مادران. هيا اذهب أمامنا."

حاصرنا جبل مادران من ثلاثة أطراف. مشطناه حتى القمة. لايوجد أحد.

أنا لم أصدق حسيناً أصلاً. ولكننا يجب أن نتجول في جبل مادران، وأن أضلل التشغرجوي. ثم يجب عليّ معرفة أنه في جبل قارنجلي مئة بالمئة.

لم يكن يستطيع التشغرجوي أن يوقعني في كمين. كنت أعرف أساليبه في الكمائن، وأمكنتها. أما بالنسبة لأماكن الكمائن، فكنا نتوزع ثم نجتمع في مكان سهل.

بعد أن مشطنا الجبل على مدى ست ساعات، نظرت إلى وجه حسين.

قال: "لا بد أنه في الذروة. من أين أعرف أنا؟ ولكنهم يدعونه التشغرجوي، ويشير إلى مادران، ويأتي إلى مادران، وفجأة يطير إلى قارنجلي. قالوا إنه التشغرجوي."

قلت: "انظر يا حسين! أنت ابن صديقي الشهم. إذا كان هنالك

من يعرف مكانه فهو أحمد آغا زعيم الرحّل، أليس كذلك؟ وهذا أيضاً في جبل قارنجلي أليس كذلك؟"

"في جبل قارنجلي."

"أنت تعرفه جيداً، أليس كذلك؟ في ذلك اليوم حدثني عن أبيك. قال: إن أباك كان صديقه المقرب، وإنه يحبك. أليس كذلك؟"

"نعم ياه. يحبني كثيراً أيضاً."

ما هدفنا إليه بالضبط حصل.

كان عليه أن يجد أحمد آغا. ركبنا الخيول. حسين دليلنا.

كنا نعرف أن رجال التشغرجوي لا يبوحون بمكانه بالضرب والتعذيب. لهذا كان لا بد من التحرك عبر وجهة أخرى.

قلت بالأباظية: "يا شكرو بيك! هذا الولد ورقة رابحة هامة بيدنا. إنه مفتاح ذهبي سيفتح لسان أحمد آغا."

قال شكرو بيك: "حسن!"

تقفينا، وعرفنا جيداً لباس أحمد آغا وهندامه، وقامته وهيئته. وصلنا إلى قبيلته. نزلنا في بيته. لم يكن في البيت، طلبنا أن ينادوه. تركنا حسيناً مع حارسين في الطريق.

جاء الآغا. كان رجلاً بشوش الوجه، ربع القامة.

"تفضلوا، تفضلوا يا سيدي. أهلاً وسهلاً بكم. نعرف أنكم في هذه الأنحاء. شعرت بقلبي أنكم ستعرجون. يا سيدي، كنت أقول في نفسي إن السادة على وشك المجيء. لأن المفرزة التي تأتي إلى هذه الأنحاء لا بد أن تعرج على هذا المكان المتواضع. أهلاً بكم."

"سلمت يا آغا، ولكن لنا عندك رجاء."

سأل متعجباً: "ما هو؟"

كل مفرزة تأتي عن ماذا تسأل أحمد آغا؟ من يعلم كم مرة أكل ضرباً أحمد آغا هذا الرجل المسالم بحاله وذاته بسبب التشغرجوي.

حين سأل مرة أخرى: "ما هو؟"

"ستخبرنا بمكان التشغرجوي. سترسلنا إلى هناك مؤمناً لنا إمكانية الاشتباك معه."

"لا أعرف مكانه يا سيدي. من أين لي معرفة مكانه. حتى الشيطان لا يعرف مكانه، فكيف أعرفه أنا؟"

قلت: "انظر إليَّ يا أحمد آغا. أنا لم آت إلى هنا لا لشيء. ولم آت خاوي اليدين. عرفت كل شيء وجئت. لا مجال للتملص مني ياآغا. لن أضربك. ولن أعذبك أبداً. احك، أين التشغرجوي؟ ماذا سنفعل نحن للتشغرجوي؟ سنشتبك معه. وهو شهد مئات المفارز كمفرزتنا. ولنجرب أنفسنا نحن أيضاً."

"لا علم لي به يا بيك."

"يا آغا لن أفعل لك شيئاً. ما قولك لو أثبتُ لك أنك تعرف أخباره، وتعرف مكانه؟ ما قولك لو رأيت مفتاح بيته الذهبي؟"

"لن أقول شيئاً."

"حينئذ يا آغا، حينئذ لن أضربك. ولن أنقرك مجرد نفضة إصبع. ولن يمس أحد لك شعرة. هل فهمت يا آغا؟ ولكنني سأرميك بالرصاص هنا. إذا أريتك مفتاح بيته الذهبي، وحاولت الإنكار، فإنني حينئذ يا آغا...."

مرة أخرى أصدرت أمري بالأباظية.

قلت: "اذهبوا، واجلبوا ابن سلطان فاطمة. أدخلوه بزاوية بحيث لايتقابل نظره مع نظر أحمد آغا. إذا تقابلا فالحال سيء. هذا يعني أن الأمور خربت."

ذهبوا، وجلبوا حسيناً. الأطول قامة يغلق ما بين حسين والآغا، فلا يجعل نظر أحدهما يلتقي بالآخر: "هل عرفت هذا الولد يا آغا؟"

قال الآغا: "دعني أره أولاً."

قلت: "ابن ابراهيمنا يا عزيزي. أما عرفته؟"

الآغا: "عرفته يا بيك، عرفته. إنه حسين بن إبراهيمكم، وابن سلطان فاطمتنا."

أشرت لهم، وقلت لهم بالأباظية: "أخرجوه فوراً."

أخرجوه.

يهز الآغا برأسه، ويتمتم لنفسه: "ابن سلطان فاطمة ها! ابن الإنسان غير موثوق. لا يمكن الوثوق به. غير موثوق."

صار وجهه أصفر، وارتجفت يداه.

"قهوة وسيجارة... لأصحو إلى نفسي قليلاً..."

طلبت أن تُحضّر قهوة فوراً. حُضّرت. شرب أحمد آغا القهوة، ودخن السيجارة. دب الدم في وجهه قليلاً.

كان يكرر باستمرار: "ابن الإنسان، واخ من ابن الإنسان. غير موثوق. ابن سلطان فاطمة ها! لا يظهر عليه..."

بعد ذلك، رفع رأسه. كانت عيناه مغرورقتين بالدموع. قال مستسلماً:

"ليرسلوا إلى حسن وسليمان ومراد آغا. ليأتوا بسرعة."

بعد قليل جاء المدعوون.

سأل أحمد آغا الأكبر سناً بين القادمين مراد آغا: "من هذا القادم معك، الولد الذي على جانبك الأيمن يا مراد آغا؟ أخبر السادة!"

"حسن ابن أحمد آغا."

"والآخر؟"

التفت إلينا مراد آغا، كان مندهشاً.

"وهذا سليمان ابن شقيق أحمد آغا."

قال أحمد آغا لمراد: "انتهى شغلك أنت. ستري الأولاد للسادة. هيا اذهب."

خرج مراد آغا.

بهذا الشكل يحاول أحمد آغا أن يثبت لنا صدقه. بعد ذلك، التفت إلى ابنه حسن: "ولاه، أنا أخبرت السادة بكل ما أعرفه عن التشغرجوي. وأنتم لا تخفوا شيئاً. عرف السادة كل شيء أكثر منا. احك إلى أين ذهبتم اليوم؟"

صمت الولد. تردد مرة أو اثنتين.

صرخ أحمد آغا محتداً: "احك!"

"ذهبنا إلى الفتوة التشغرجوي يا أبي."

"ماذا سألكم الفتوة؟"

"سألنا عن النقود."

"أي نقود؟"

"نقود فدية عثمان بيك الذي خطفه إلى الجبل. لا يمكن لأحد غير ابن عثمان بيك أن يجلب النقود. وأنا قابلت عثمان بيك. أخبرت الفتوة

بأن عثمان بيك أخبرني بأن النقود جاهزة، ولكن نصفها سيكون غداً جاهزاً."

عن ماذا سأل أيضاً؟"

"لم يسأل عن شيء آخر. ولكن الفتوات الآخرين معه سألوني عن مكان المفرزة. وقبل أن أجيب أنا، أجاب الفتوة، قال ضاحكاً: أين ستكون المفرزة؟ إنها حيث يمكن ملء البطن، وحيث يؤكل الخروف المحشي. هل سيصعدون إلى هذه الجبال، ويؤذون أجسامهم الرهيفة؟ إنهم حيث يوجد درب. ما شغلهم في هذه الجبال التي لا يطير فيها حتى الطير. وأنا غادرتهم."

الفرصة فرصتنا. أمرت بتجهيز المفرزة فوراً. تدخل أحمد آغا بهذا:

"لا يمكن الذهاب في هذه الليلة، وهذا الظلام. الطريق وعر جداً، وطويل. ومن غير الممكن الذهاب على الخيول. ثم إن التشغرجوي يمكن أن يوقعكم في الفخ ليلاً."

"علينا أن نذهب هذا المساء. أعطنا دليلاً يمكن الوثوق به فقط، لنجد إمكانية الاشتباك مع التشغرجوي."

قال: "هيا يا حسن، اذهب أنت."

كان هذا تحدياً لي. كان يُقرأ من حاله أننا لن نستطيع الوصول إلى حيث التشغرجوي.

بعد ذلك، التفت إلى عثمان: "أنت أيضاً اذهب!"

التفت إليَّ: "ها هما دليلاكما. إذا لم يوصلاكما إلى وسط مكان التشغرجوي فأطلقوا الرصاص عليهما هناك."

قلت: "أخبر الشابين بالطرق القصيرة ليأخذانا منها."

قال: "ممكن" وبدأ بتعريف الطريق.

بعد ذلك، قلت: "يا آغا، هل يمكن للتشغرجوي أن يعلم أننا ذاهبون مباشرة إليه؟"

قال: "ممكن."

قلت: "لا يمكن يا آغا. إذا لم تفعل هذا أنت، إذا لم تخبره فلا يمكن أن يعلم. أفهمت يا آغا؟ سأعتبر هذا منك إن تم."

انطلقنا في الطريق تحت ظلمة الليل. كان الوقت بعد المغرب بقليل. كان يهطل مطر خفيف. سرنا. كان الطريق صخرياً، ووعراً.

أكلنا مطراً على مدى ست ساعات بالضبط. ولكننا جميعاً رجال. نذوي في السهل، ونتوهج في الجبل. السهول المستوية تماماً تخيفنا. ولكننا ننطلق حين نصل إلى الجبال. نحن أبناء القوقاز. كلنا قضينا طفولتنا في الجبال.

عندما وصلنا إلى الذروة كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. وما زال المطر يهطل. وقفنا تحت القمة. قسّمتُ المفرزة إلى ثلاثة أقسام. وضعنا شكرو بيك في قيادة أحدها، وأنا في الثاني، وأخي عثمان في الثالث. سيضبط شكرو بيك الجهة الشمالية، وأنا الشمالية الغربية، وعثمان بيك الجهة الجنوبية. تقدمنا بهدوء. تقدمنا، وطوقنا القمة التي قالوا إن التشغرجوي فيها، أي القمة الصخرية. لا نصدر صوتاً. ما زالت الساعة الثالثة والنصف. إذا أدرك التشغرجوي أنه محاصر، سيستفيد من ظلمة الليل، ويهرب. سيكون أمر التشغرجوي منتهياً عند الصباح. فقد سيطرنا على القمة المطلة على المكان الذي

قالوا إن التشغرجوي فيه. المكان الموجود فيه التشغرجوي أمامنا كالصحن. سبب سيطرتنا على هذه القمة هو عدم وضع التشغرجوي حراساً عليها.

يوجد في هذه الأمكنة ملاجئ لحراس التشغرجوي. ولم تكن ملاجئ الحراس تلك من أجل المفارز طبعاً، بل من أجل الفتوات الآخرين المعادين. يعرف التشغرجوي أن أي مفرزة لا يمكنها الصعود إلى ذرى هذا الجبل، وإلى هذه الأمكنة. وحقيقة لم تستطع الصعود منذ أن غدا التشغرجوي ما غداه.

هذه المرة لم يضع حراساً على القمم المطلة على المكان الذي يوجد فيه، لأنه لم يعد ثمة فتوات في الجبال غيره.

ننتظر. ننتظر خيوط الضوء الأولى. في هذه الأثناء توهجت سيجارة وأطفئت في المكان الذي قالوا إن التشغرجوي فيه. الزمن لايمر بأي شكل، ولا يظهر الضوء في الجهة الشرقية بأي شكل. إنها تمطر. لا نستطيع حتى أن نتنفس. إذا سمعوا صوتاً أو نفساً، أو أدركوا أنهم مطوقون سيشقون الطوق، ويهربون.

إذا قبلوا الاشتباك معنا، فسيقبلونه في مكان يسيطرون منه على مكاننا. لأنهم يعرفون هذه الأمكنة كما يعرفون راحات كفوفهم. وإذا لم يعلموا، وظهر طرف الشمس لن يكون من الصعب قتلهم جميعاً بضربة واحدة.

اسم المكان الموجودين فيه "صخرة البنت". وصخرة البنت بارزة إلى السماء كمئذنة وسط جبل قارنجلي. تحت المئذنة فتحات تشبه المغاور. والتشغرجوي في تلك الفتحات. رأيتها فيما بعد. فقد رتب

التشغرجوي منطقة أسفل صخرة البنت بشكل جيد. ولكن مهما يكن يمكننا أن نوجه نحن من حيث نوجد أول إطلاق نار. كل منا ماهر بالتصويب إلى حد عدم إمكانيته أن يخطئ بإصابة ما تراه عينه.

حل بنا ما خفنا منه.

كان ثمة وقت طويل للصباح. لا تكة. فجأة صدرت كحة. وااخ، احترقنا. من كحَّ؟ الله يبعث له البلاء. نحن قريبون جداً. فهمنا أن العصابة اهتزت من الكحة والململة. حاولت الهرب. نسمع وقع أقدامهم. إنهم ذاهبون. ظلام. لا يمكن أن تطلق النار... وإن أطلقته ففي الهواء. ماذا سيحدث هكذا؟ الفتوة يهرب.

للأباظة والشراكس صيحات قوية جداً مخيفة. ومن أجل استفزاز الفتوة، وجعله يهرب بدأنا بالصراخ. وهذه كانت صيحات الحرب لدى القوقازيين.

"لا يمكنك أن تتخلص من المفرزة التي طوقتك هنا وأنت نائم. لاتهرب إن كنت رجلاً. لنتواجه."

هذا التشغرجوي. أيهتم لكلام كهذا؟ يحاول التشغرجوي أن يتملص. نحن خلفه. يبدو أن التشغرجوي أدرك أننا لن ندعه. سيواجه، ويحاول الحصول على موقع جيد قبل أن تشرق الشمس. هو يذهب، ونحن خلفه.

همّي هو عدم فتح المسافة بيننا وبين الفتوة، وإجباره على الاشتباك قبل أن يصل إلى موقع مرتفع. بعد مطاردة دامت ساعتين تقريباً، وصلت العصابة إلى سفح موقع الدفاع تاركة خلفها شخصين للمراوغة. واستحكم هو مع أحد أصدقائه منطقة صخرية حادة مرتفعة.

ومن أجل أن تسحب العصابة الشخصين المراوغين إلى جانبها أمطرت المفرزة برصاص غزير.

ليقبل الاشتباك مهما يكن. ليرمنا جميعاً إن أراد. يكفي ألا نعود خاويي الوفاض.

تحت هذا الرمي المفاجئ قدمنا شهيداً واثني عشر جريحاً. سنذهب جميعاً إن استمرت الأمور على هذا النحو. وقعنا في قبضة الذئب. يجب أن نجد مكاناً. حددنا ثلاثة مواقع تطل على الموقع الذي يوجد فيه الفتوة. انتقلنا إلى الهجوم، واحتللناها. بحسب هذا الوضع يقع النقيب شكرو بيك في شمال العصابة الغربي، وحاجيضوق كامل في شمالها الشرقي، وعثمان وأنا في الجنوب الشرقي. الاشتباك مستمر. الوقت ما زال مبكراً. ولكنني أفكر. إذا أنقذ التشغرجوي من هذا الوضع سيوقعنا في فخ، ويقتلنا جميعاً. لأن الجبال كانت له. إنه حاكم الجبال الوحيد. كل القرى كانت بأمره. بعد ذلك سيجرف الدم الأجساد. بعد ذلك، سيقتل التشغرجوي كل من كان يؤويه أو يثق به. يجب ألا يُنقذ من هذا الوضع. يجب أن نموت جميعاً أو لا ينقذ هو.

في هذه الحالة لا بد من القيام بعمل ما. الاشتباك مستمر منذ حوالي ثلاث ساعات تقريباً. أقام التشغرجوي خلال خمسة عشر عاماً من عمله قاطع طريق أماكن استحكام في كثير من المناطق لاستخدامها عند الضيق آخذاً بعين الاعتبار الاحتمالات كلها. وفي ذلك اليوم أيضا قبل الاشتباك في واحد من الاستحكامات التي أعدها. لهذا فإن حصارنا للتشغرجوي من جهات ثلاث، وإطلاقنا المستمر للنار لم يكن يؤثر على التشغرجوي نهائياً. مقابل هذا، رغم أن نيران التشغرجوي

تأتي من طرف واحد فإنها مؤثرة جداً علينا، ولا تدع لنا مجالاً لنفتح أعيننا.

في أحد الأوقات جاء أخي عثمان إلى جانبي.

قال: "رشدو. ظهر أن هذا التشغرجوي أجرأ وأقوى وأصلب مما كنا نعتقد. إذا لم نعمل شيئاً سينهينا جميعاً. علينا أن نفكر بشيء ما. أنا فكرت بشيء. أعددت خطة. ستساعدني. ويجب أن تسمح لي، لأن الموت قادم في كلا الحالتين. ما قولك؟"

قلت: "اشرح لنرى يا عثمان."

بدأ يشرح عثمان:

"في مكان لا تضعه العصابة بحسبانها أبداً، أي المكان الذي يقع جنوبنا يوجد شق لمجرى ماء. لا يمكن أن يخطر ببال أحد إمكانية الصعود إلى هناك. يمكن الصعود إلى تحت السفح الذي يوجد فيه الفتوة من ذلك الشق. رأيته، وتفحصته جيداً. أنا سأصعد من هذا المكان الذي ذكرته لك إلى الأعلى. إذا رآني الفتوة فهذا يعني موتاً مئة بالمئة. وإذا لم يرني فهذا يعني موته مئة بالمئة. المسافة من هناك إلى التشغرجوي ثلاثمئة متر، ومهما بلغت، ومهما بلغت لاتصل إلى أربعمئة متر. لن يكون صعباً إصابة التشغرجوي في قلبه من هناك. نحن نعرف أن هندام التشغرجوي مختلف عن هندام الآخرين. لهذا يمكنني أن أصوب إليه من هناك، وأطلق. اسمح لي بهذا."

لم يكن ثمة حل آخر. عليَّ أن أسمح له. يمكن لعثمان أن ينجز هذا العمل. عثمان في الجبال منذ عهدي به. لعله لم يأت إلى هذه الدنيا من يعرف الجبال مثله. جسم عثمان صغير، وهو حيوي وماهر. ألا

يقولون: إنه يضرب السكين من فمه؟ إنه واحد من هؤلاء.

ولكن يجب علينا أن ندعم عثمان أيضاً. لهذا كتبت مذكرتين لكل من حاجيضوق كامل، وشكرو بيك. قلت مايلي:

"نحن مضطرون لتحقيق نتيجة قبل حلول الظلام. لهذا قررت التضحية بعثمان. سيصعد عثمان من شق الماء، ويصل إلى السفح الموجود فيه الفتوة، ويحدد مكانه بعيداً كان أم قريباً، ويطلق عليه النار. ولتأمين هذه الحركة أوقفنا إطلاق النار من هنا. فور تلقيكم هذا الأمر، ارفعوا قوة نيرانكم إلى الضعف، وأطلقوا دون انقطاع. وهذا لا يكفي، لجذب انتباه العصابة نحوكم بشكل كامل، أخرجوا مجموعة فدائية مؤلفة من خمسة أشخاص، وأرسلوها نحو التشغرجوي. وعلى هؤلاء أن يُروا التشغرجوي حركات اقتراب منه."

بعد التعليمات المذكورة أعلاه بقليل، صُعِّدت نيران المجموعتين إلى الحد الأقصى. سُرِّع الاشتباك كثيراً. وفي هذه الأثناء تحرك الفدائيون المختارون للهجوم.

إثر هذا تَركنا التشغرجوي تماماً، ووجه ثقله نحو الطرف الآخر. نحن بقينا أحراراً. بقيت ساحة حركة عثمان بشكل خاص حرة. كان التشغرجوي متردداً. وهذا التردد واضح من إطلاقه النار. في الاشتباك تظهر الحالة النفسية للطرف الآخر من خلال إطلاقه للنار. المحاربون المهرة يعرفون هذا، ويستفيدون منه كثيراً. رغم جرأته لم يكن التشغرجوي يستطيع إعطاء معنى لحركة هؤلاء المطاردين. كان هذا واضحاً.

في هذه الأثناء أصيب محمد الضخم أحد الفدائيين. صديقه المجاور له جعفر شامل نادى للفتوة: "إذا كنت رجلاً فاخرج يا فتوة! اخرج لأريك."

الفتوة في الحقيقة رجل، وهو شهم. ردّ على جعفر شامل:

"اسمعني يا شاب! يبدو أنك جريء وشجاع جداً. لو لم تكن جريئاً إلى هذا الحد لما أتيت إلى تحت بندقيتي، ولهربت بعد أن أصيب صديقك المجاور لك. أنا أمنحك حياتك من أجل شهامتك. خذ ولتكن هذه منحتي لك حتى نهاية عمرك."

لحظة قول التشغرجوي: "خذ" قلبت الرصاصة المنطلقة قبعة جعفر شامل عن رأسه. أخذ جعفر قبعته، وعاد. هذا هو الفتوة، إنه فتوة من هذا النوع.

وجعفر شامل هذا هو الشخص الوحيد الحي حتى الآن من المشاركين بعملية التشغرجوي. وكان أفتى المشاركين بالعملية. وهو الآن مقيم في قرية حاجي حجاج التابعة لدوزجة. وما زالت القبعة التي ثقبها التشغرجوي عنده.

كان عثمان يتسلق نحو الموقع الذي يستحكم فيه الفتوة. كيف يمكن الصعود من هناك؟ دهشت. إنه شق عمودي ومستقيم كالمئذنة. إنه شق ماء. كيف تتمسك اليد، وكيف يثبت القدم؟

نظرت وإذ بعثمان قد عبر الشق. عصني قلبي وأنا أنتظر. انتظرت نصف ساعة. عثمان غير موجود انتظرت ساعة. عثمان غير موجود. غير موجود ابن غير موجود. قلت: واخ، راح عثمان.

وأنا أيضاً بدأت الاشتباك. كيف نطلق النار؟ أنا لم أر هكذا. قلبي يقول لي: لننتظر قليلاً. بعد ذلك نهاجم جميعناً. يموت من يموت، ويبقى من يبقى. لعلنا نعمل شيئاً للتشغرجوي.

في أحد الأثناء جاء إليّ شكرو بيك.

قال رشدو: "روحت عثمان يا رشدو."

قلت: "ماذا سنفعل؟ هو أراد هذا. سننتقل إلى الهجوم الآن... ممكن أن نموت كلنا."

ذهب شكرو بيك.

فور ذهاب شكرو بيك نظرت إلى شق الماء. عثمان هناك معلق.

هذه المرة أرسلت رجلاً إلى شكرو بيك. قلت له: نار. نار من الجميع. وهجوم إن تطلب الأمر.

أطلقوا النار. وأنا لم أحتمل، فصعّدت كثافة النيران إلى الضعف.

نظرت، فرأيت عثمان يزحف قادماً إليَّ. وصل، وعانقته. تفتتت يداه وراحتاه وركبتاه. كأنه مغطوط بالدم.

"صوبت على من شبهته بالتشغرجوي. وأطلقت عليه ثلاث طلقات. كان واقفاً لم تكن ألبسته ألبسة فتوات إيجة. كان يطلق النار، ويصدر الأوامر في آن واحد. إحدى الرصاصات التي أطلقتها مميتة بالتأكيد. سقط."

أبلغت النقيب وحاجيضوق كامل بالوضع فوراً. أخبرتهما بأن يبلغا كل أفراد المفرزة بأن التشغرجوي قد أصيب، وأن معنويات العصابة قد انهارت تماماً.

لماذا اقتنعت فوراً بأن التشغرجوي أصيب مئة بالمئة؟ لماذا اقتنعت فوراً رغم أن عثمانٍ كان متردداً ما إذا كان قد أصابه أم لا؟

كان رصاصهم عبثياً. للحظة تكثف إطلاق النار. بعد ذلك، انقطع فجأة. بعد هذا بدأ يطلق بشكل متقطع وخفيف أحياناً. كان

واضحاً أن قرار العصابة قد خرب تماماً.

فيما بعد، تناهت إلينا صرخات من هناك. كانت قوية. وانطفأت فجأة.

إطلاق النار مستمر. مرة يطلقون لمدة خمس أو عشر دقائق بشكل لا يحتمل. ولكن هذا لا يستمر. وفي مرة أخرى يطلقون بشكل متفرق، وميت، وإلى هدف غير محدد، فلا يمكن أن يصدق أن العصابة التي مقابلك هي عصابة التشغرجوي. أعصاب الإنسان تربط بطريقة إطلاقه للنار في الاشتباك. إطلاق نار مفرزة ذات عزيمة وتصميم وثقة بالنفس يكون كالساعة. يعمل تك، تك..

ساعة عصابة التشغرجوي تتوقف حيناً، وتعمل حيناً. إنها معطلة.

رغم هذا فإن هذه الساعة المعطلة استمرت مع التوقف حيناً، والعمل حيناً آخر حتى الواحدة بعد منتصف الليل. أي أن الاشتباك استمر حتى الواحدة بعد منتصف الليل. نحن خسرنا في هذا الاشتباك ثلاثة قتلى وخمسة جرحى.

الثلاثة الذين قتلوا من فدائيي الهجوم الخمسة هم:

١- أحمد قوجة من قرية نوفرام التابعة لدوزجة.

٢- الجاويش عثمان من قرية مهدي بيك التابعة لدوزجة.

٣- الجاويش محمد من قرية قرة تشوكك التابعة لقضاء هندك.

في الساعة الواحدة توقف الاشتباك. ضاعت العصابة. كانت تمطر بشكل مدهش. الجو بارد. عندما أصبح الصباح كنا منتظرين في متاريسنا. ومنذ الصباح الباكر، فتحنا النار على المكان الذي كانوا فيه،

وتقدمنا من كل الجهات. وصلنا إلى المكان الذي كانوا يتمترسون فيه. كانت هنالك جثتان متمددتان. إحداهما لعثمان بيك من ارباظ الذي اختطفوه إلى الجبل. ولم يكن للثانية رأس ويدان. وقد سلخ جلد جذعها. ولكن لباسها لم يكن لباس التشغرجوي، بل لباس فتوات إيجة المعهودة. هذا ما توهنا. إذا لم يكن هذا الميت هو التشغرجوي، فلماذا قطعوا رأسه؟ إذا لم يكن هذا التشغرجوي، فلماذا سلخوا جلده؟ لماذا لم تكن يداه في مكانيهما؟ لم يقطع حتى الآن رأس أي فتوة إيجوي أطلق عليه النار. لماذا هذا؟ ثم إنهم لماذا أطلقوا النار على عثمان بيك؟ لو لم يكن هذا المطلق عليه النار هو التشغرجوي، لما تركهم يطلقون النار على الرهينة. لم يكن ليفعل هذا. حين يُفكر على هذا النحو، تجتمع الأدلة كلها عند التشغرجوي. عندما تفكر بهذا كله، لا يمكنك القول إلا أن هذا هو التشغرجوي. ولكن هذا التشغرجوي! لديه حيل متنوعة. ويمكن أن يفعل هذا لكي يجعلني لا أستطيع النظر في وجوه الناس كسعيد باشا. فأنا أبرق برقية وراء برقية إلى العالم كله بأننا قتلنا التشغرجوي، ثم أجده بعد يوم أمامنا، وينظّف المفرزة كلها. ويمكن له أيضاً أن يلبس أي فتوة ألبسته. يتغير بعد ذلك. مهما يكن علينا أن نبقى متيقظين، وألا نسقط في فخ التشغرجوي. يجب أن ننزل هذه الجثة إلى البلدة مع جثثنا.

كان من الواضح أن التشغرجوي لم يمت بسهولة بعد أن أصيب. اقتلع بأظفاره أعشاب مكان تبلغ مساحته أربعين متراً من جذورها، وفتتها. هذا يعني أنه تخبط كثيراً.

وضعتُ الجثة المقطوعة الرأس على الخيول مع جثثنا، وأخذناها إلى البلدة.

أعلمت البلدة بأن الميت يمكن أن يكون التشغرجوي. ولكنني أبلغت أيضاً بأنه مقطوع الرأس. تلقى الخبر ناظم باشا، فجاء فوراً إلى نازللي، واستدعى من أودمش زوجة التشغرجوي الكبيرة إراظ.

قال الباشا: "ادخل المرأة، وأرها الجثة!"

دخلت المرأة، وخرجت.

قالت: "هذا ليس فتوتي."

قلنا: "انظري جيداً، انظري! ألم يكن عنده إشارة في مكان منه؟"

قالت: "كانت له شامة."

دخلت من جديد. خرجت بعد قليل دامعة العينين.

المرأة إراظ امرأة حقيقية. إنها أكثر النساء إخلاصاً وشهامة. لن تبكي، وتلطم ياه! ولكنها وقفت متيبسة. لم تنبس.

حين سألناها: "أهو الفتوة؟" أشارت برأسها إيجاباً، ثم ذهبت.

قلت للوالي ناظم باشا: "علينا أن نتحرك الآن وبسرعة. لأن العصابة خربت. علينا أن نطاردها. المأوى الأساسي للعصابة في أطراف أودمش. تنظيف العصابة سهل. ولكن علينا أن ننشر خبر موت التشرجوي في البلد كلّه فوراً."

قال الباشا: "صحيح."

علّقوا جثة التشغرجوي من القدمين فوراً هناك في ساحة نازللي.

جاءني كامل حاجيضوق وعثمان بعد أن رأيا هذا، وقالا: "أرأيت ما فعلناه يا رشدو بيك؟ أيليق هذا بشهم كالتشغرجوي؟ لو أنه هو الذي أطلق النار علينا."

صعب عليهما كثيراً تعليق التشغرجوي من قدميه للتشهير به.

انطلقنا. وفي الطريق اجتمعنا كمفرزة كلنا.

عثمان: "لم يقتل التشغرجوي شخص واحد. يعود هذا الشرف للمفرزة بأفرادها الخمسة والأربعين. لن يبوح أحد بعد الآن بمن قتل التشغرجوي. أهذا وعد؟"

قررنا هذا جميعاً: "صحيح. لن يتكلّم أحد. الجميع قتلوه." ومنذ ذلك اليوم حتى الآن لم يتكلّم أحد بهذا.

بعد ذلك، وصلنا إلى أودمش. بعد مقتل التشغرجوي، تفككت المآوي والتنظيمات كلها. بعد مطاردة شديدة مدة عشرين يوماً، تلقينا خبراً بأن باقي العصابة في قرية قايا. هرعنا إلى هناك فوراً. وطوقنا المكان بسرعة. حاصرنا البيت الذي توجد فيه العصابة، وبدأ الاشتباك. استمر الاشتباك طويلاً. حلَّ المساء. يكاد يحل الظلام. لو أفلتناهم هذه المرة لن نستطيع الظفر بهم مرة أخرى. سيهربون عندما يحلّ الليل. الظلام على وشك الحلول. الحل! وجدّت الحل. جلبت عشر أو خمس عشرة صفيحة كاز، وأضرمت النار في بيوت الحي المجاورة للبيت الذي هم فيه. بعد ذلك، شننا هجوماً عنيفاً. أضرمنا النار في البيت الذي يقيمون فيه أيضاً. النار مستمرة بالاشتعال على طرفين. هم معاندون. مازالوا يطلقون النار علينا من البيت شبه المحترق، ويوقعون بيننا خسائر. فقد أصابوا محمداً التشوغ منا.ولكنهم لا يمكن أن يفلتوا من بين أيدينا. فإما أن يصابوا بالرصاص، أو يحترقوا.

فجأة خرج واحد من النار. أراد الهرب. أطلقنا عليه النار، وقبضنا عليه جريحاً. خرج آخر. ركض كثيراً. في النهاية أكل الرصاصة

أيضاً. سقط، ونهض. بعد ذلك، ركض عائداً نحو النار التي خرج منها، وصرخ: "إذا كنت سأستسلم لك يا عثماني..." وألقى بنفسه إلى النار.

وهكذا أزيلت العصابة كلها عدا الحاج مصطفى فقد هرب، ونجا.

بعد أن أنهينا أمر التشغرجوي، وفي أثناء استعدادنا للعودة، استلمنا من الوالي ناظم باشا وثيقة الشكر الواردة أدناه:

محافظة آيدن

ديوان المراسلات

الرقم:

العام:

الخاص: ٦٩٥

إلى مأمور المطاردة النقيب رشدو بيك!

بداية، أعبر لكم سيدي عن شكري وامتناني الخاصين مرفقاً لكم صورة طبق الأصل عن البرقية التي أرسلتها إلى وزارة الداخلية تقديراً لكم ولولوجكم إلى مرمى البنادق في سبيل إزالة التشغرجوي وعصابته كاملة، والتنكيل بها.

٢١ ذي الحجة ٣٢٩

الموافق ٢٩ تشرين الثاني٣٢٧

ناظم بن حسن تحسين

بداية، بخصوص إزالة التشغرجوي وعصابته هذه المرة، فإن الضرورة تقتضي ترفيع المأمورين النقيبين شكرو بيك ورشدو بيك من قوة المطاردة المشهود لهما جرأتهما وخدمتهما غير العادية، وتعيينهما في

قيادة ألوية الدرك داخل الولاية ، لذلك أتقدم لجلالة عناية وزارتكم اتخاذ الاجراءات اللازمة انطلاقاً من اعتبار خصوصيتهما النادرة بمطاردة الأشقياء سابقاً والحاجة لضباط ذوي كفاءة وجرأة.

قبر التشغرجوي خارج نازللي على الطريق. ومنذ ذلك اليوم يزور القرويون القبر باعتباره مقام ولي.

غير هذا، يُعتقد أن تراب قبر التشغرجوي دواء لكثير من الأوجاع. ويقال إنه علاج ناجع لآلام الاكتئاب والملاريا. هذا ما يقولونه.

وحتى بعد سنوات طويلة جداً، فإن القرويين الذين يمرون من ذلك الطريق، وقبل وصولهم إلى القبر بنصف ساعة، يصرخون ملء أفواههم:

"أيها الفتوة التشغرجوي! أيها الفتوة التشغرجوي! افسح لنا كي نمر. لسنا غرباء..."



الشائعات حول قتل التشغرجوي كثيرة. الوثائق التي أعطاني إياها العقيد رشدو قوباش حول قتل مفرزته للفتوة التشغرجوي سلطت ضوءاً جديداً على هذه الشخصية الغريبة، وأضاءت موت الفتوة. الجزء المعنون ـ نحن قتلنا التشغرجوي ـ أضفته كما ورد تماماً على لسان العقيد رشدو قوباش. ونشر هذا الجزء في جريدة جمهوريت كما هو. لم أضف إليه شيئاً.

علي مولا

ISBN:2-84305-843-X
9 782843 058431